تفسير سورة النحل

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ
لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ
حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ
بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ
وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ
ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(٦) أحمر أسود

لَأٓيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ
ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ
كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾

[النحل: ١-١٨]

(٧) أحمر أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ - فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ - سُبْحَٰنَهُۥ - وَتَعَٰلَىٰ - بِٱلرُّوحِ - أَنذِرُوٓاْ - فَٱتَّقُونِ - نُّطْفَةٍ - خَصِيمٌ مُّبِينٌ - وَٱلْأَنْعَٰمَ - فِيهَا دِفْءٌ - وَمَنَٰفِعُ - تُرِيحُونَ - تَسْرَحُونَ - أَثْقَالَكُمْ - بَٰلِغِيهِ - بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ - وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ - وَمِنْهَا جَآئِرٌ - تُسِيمُونَ - وَمَا ذَرَأَ - يَذَّكَّرُونَ - حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا - ٱلْفُلْكَ - مَوَاخِرَ فِيهِ - وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ - رَوَٰسِيَ - أَن تَمِيدَ بِكُمْ - وَسُبُلًا - وَعَلَٰمَٰتٍ - لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾	أمره للملك بالنفخ في الصور -يوم القيامة- عذاب الله الكائن يوم القيامة.
﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾	فلا تطلبوا وقوعه قبل أوانه.
﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾	تنزه.
﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾	ارتفع قدره وعلا قدره.
﴿بِٱلرُّوحِ﴾	بالوحي، وقيل: بالنبوة.
﴿أَنذِرُوٓاْ﴾	خوِّفوا - حذِّروا.
﴿فَٱتَّقُونِ﴾	فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية.
﴿نُّطْفَةٍ﴾	قطرة المني.
﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾	مخاصمٌ لربه ومُعادي لربه قد أظهر خصومته وعداوته.

(٨) أحمر أسود

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾	قيل: المراد الأنعام الثمانية (جمل وناقة وثور وبقرة وكبش ونعجة وجدي وعنز). وقيل: عُني بها الإبل خاصة.
﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾	منها ما تستدفئون به (كالملابس المصنوعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها).
﴿وَمَنَٰفِعُ﴾	ما تنتفعون به (من الألبان والشعور وغيرها).
﴿تُرِيحُونَ﴾	ترجعون من مراعيكم إلى بيوتكم وإلى مُراح الإبل فيها.
﴿تَسۡرَحُونَ﴾	تخرجون من بيوتكم إلى مراعيكم وأعمالكم.
﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾	أمتعتكم.
﴿بَٰلِغِيهِ﴾	واصلين إليه.
﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾	بجهد شديد على الأنفس.
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾	وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل إلى جنته ومرضاته.
﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾	من الطرق طرقٌ جائرة لا توصل إلى مرضاة الله ولا إلى جناته..
﴿تُسِيمُونَ﴾	ترعون.
﴿وَمَا ذَرَأَ﴾	وما خلق.
﴿يَذَّكَّرُونَ﴾	يتعظون - يعتبرون.
﴿حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾	ما تتزينون به وتلبسونه للزينة (كاللؤلؤ والمرجان).

(٩) أحمر أسود

﴿ٱلْفُلْكَ﴾	السفن العظيمة الهائلة.
﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾	سائرةً بسرعة تشق المياه وتشق الرياح.
﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾	لتلتمسوا أسباب الرزق الحلال الطيب.
﴿رَوَاسِيَ﴾	جبالًا راسيات.
﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾	كي لا تضطرب الأرض بكم ولا تميل بكم.
﴿وَسُبُلًا﴾	طُرقًا.
﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾	معالم تستدلون بها في أسفاركم.
﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾	لا تستطيعوا حصرها.



سورة النحل هي سورة النعم

س: هل لسورة النحل اسم آخر؟

ج: نعم من العلماء من أطلق عليها سورة النعم، وذلك لِذكر العديد من نعم الله تبارك وتعالى على خلقه في هذه السورة المباركة، والله أعلم.



س: اذكر بعض الأدلة على أن الكفار كانوا يستعجلون العذاب، وكانوا يستعجلون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ربهم بذلك؟

ج: من الأدلة على استعجالهم بالعذاب، قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٤].

ومن الأدلة على استعجالهم يوم القيامة قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

أما استعجالهم ربهم فدليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦] فاستعجلوا ربهم بإنزال العذاب وقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].



س: لماذا عُبر بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

ج: ذلك لقرب مجيء هذا اليوم، كما تقول للشخص إذا سألك متى ستأتي تقول: أنا قد جئت، أي: اقتربت منك.

أما الأدلة على اقتراب الساعة فمنها:

* قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١].

* وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

* وثَمَّ أدلة أُخر أوردناها عند تفسير الآيات المذكورة، وبالله التوفيق.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: اقترب أمر الله ﷻ الذي سيأمر فيه الملك بالنفخ في الصور، وذلك لقيام القيامة، لقيام الخلق من القبور للحساب والثواب والعقاب، فلا تستعجلوا نزول العذاب عليكم ولا تستعجلوا قيام الساعة فإنها آتية، ولا تستعجلوا ربكم بهذا وذاك، فقد تنزه ربنا عن العجز وتنزه ربنا عن الضعف وتنزه ربنا وتعالى عن أن يكون معه شريك في الملك، وتنزه ربنا عن أن يعبد معه إلهٌ غيره.

وهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أتى أمر الله فقرُب منكم أيها الناس ودنا، فلا تستعجلوا وقوعه.

ثم اختلف أهل التأويل في الأمر الذي أعلم الله عباده مجيئه وقُربه منهم ما هو، وأيّ شيء هو؟ فقال بعضهم: هو فرائضه وأحكامه[1].

وقال آخرون: بل ذلك وعيد من الله لأهل الشرك به، أخبرهم أن الساعة قد قَرُبت وأن عذابهم قد حضر أجله فدنا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو تهديد من الله

(١) أورد الطبري ذلك بسندٍ ضعيف عن الضحاك.

أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك وذلك أنه عقَّب ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ فدلّ بذلك على تقريعه المشركين ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا.

وقوله سبحانه وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى تنزيها لله وعلوًّا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يَدِين به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه.

يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده.

وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحدًا استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعادًا وتكذيبًا.

قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾. [الشورى: ١٨]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علوًّا كبيرًا، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ أي: تنزيهًا له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق، وذلك شرك. وقيل: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ أي: عن إشراكهم. وقيل: «ما» بمعنى الذي أي ارتفع عن الذين أشركوا به.

وقال الشنقيطي (أضواءالبيان):

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: قرب وقت إتيان القيامة، وعبر بصيغة الماضي تنزيلًا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع. واقتراب القيامة المشار إليه هنا بينه جل وعلا في مواضع أُخر، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]. وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله جل وعلا: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ الآية [الزمر: ٦٨].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ...﴾ الآية [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ... ﴾ الآية [الزمر:٦٩-٧١].

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله جل وعلا: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقوله: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ ﴾ الآية [هود: ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦]، وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠﴾ [يونس:٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

والضمير في قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، في تفسيره وجهان:

أحدهما: أنه العذاب الموعد به يوم القيامة، المفهوم من قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

والثاني: أنه يعود إلى الله؛ أي: لا تطلبوا من الله أن يعجل لكم العذاب؛ قال معناه ابن كثير.



المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾

س: ما المراد بالروح، ولماذا أطلق عليه الروح؟

ج: المراد بالروح في هذا المقام الوحي، وأطلق على الوحي روح؛ لأن حياة القلوب تكون به ولا تتم إلا به، وذلك كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فيوحي الله إلى أنبيائه ورسله، فيبلغ أنبياؤه ورسله خلقه ما أوحاه الله إليهم فتحيا به قلوبهم بعد مواتها.

هذا، ومما يدل على أن الروح الوحي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، مع قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

هذا، ومن العلماء من أورد أقوالًا أُخر في المراد بالروح، منها النبوة - القرآن الرحمة - أوامر الله ﷻ ونواهيه - أرواح بني آدم... والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

ج: **المعنى - والله تعالى أعلم -:** يُنزل ربنا سبحانه وتعالى ملائكته الذين اختصهم بأن يكونوا رسلًا بينه وبين خلقه، وكبيرهم جبريل عليه السلام، ينزلهم ربنا بأمره بالوحي بالشيء الذي يريد أن يوحيه إلى رسله الذين اصطفاهم من خلقه، وإلى من يريد أن يوحى إليه من عباده، وأعظم ما في ذلك الوحي وأَجَلُّه أن أنذروا عبادي أن يشركوا بي شيئًا فإنه لا إله إلا أنا، لا إله معي ولا معبود سواي فاجعلوا بينكم وبين عذابي وقاية، وذلك بتوحيدكم لي وامتثالكم أمري

(١٦) أحمر
أسود

واجتنابكم ما نهيتكم عنه، وتصديقكم برسلي وبما أنزلته عليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أورد قراءتين في قوله: ﴿يُنَزِّلُ﴾ واختار ما عليه الرسم الذي في المصحف:

فتأويل الكلام: ينزل الله ملائكته بما يحيا به الحقّ ويضمحلّ به الباطل من أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني على من يشاء من رسله ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ فإن الأولى في موضع خفض، ردًّا على الروح، والثانية في موضع نصب بأنذروا. ومعنى الكلام: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، بأن أنذروا عبادي سطوتي على كُفرهم بي وإشراكهم في اتخاذهم معي الآلهة والأوثان، فإنه لا إله إلا أنا، يقول: لا تنبغي الألوهة إلا لي، ولا يصلح أن يُعبد شيء سواي، فاتقون: يقول: فاحذروني بأداء فرائضي وإفراد العبادة وإخلاص الربوبية لي، فإن ذلك نجاتكم من الهلكة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والباء في قوله: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي مع ثيابه. ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: على الذين اختارهم الله للنبوة. وهذا رد لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ تحذير من عبادة الأوثان، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه. ودل على ذلك قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾. و«أن» في موضع نصب بنزع الخافض، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، «فأن» في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي إتيانه، بعد قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾، بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٥]، وكذلك إتيانه بعد قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ...﴾ الآية [غافر: ١٥]؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضًا، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنَزِّلُ﴾، بضم الياء وإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بالضم

والتشديد، ﴿مِنْ﴾ في الآية تبعيضية، أو لبيان الجنس.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، أي: ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلًا لذلك.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ ممن يعلمه صالحًا، لتحمل رسالته.

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ - إلى - لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.



(١٩) أحمر
أسود

المراد بخلق السموات والأرض بالحق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾.

ج: في تفسير الآية الكريمة، ومعناها وجوه للعلماء:

أحدها: خلق السموات والأرض لإقامة الحق كي يختبر الناس ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إلا أن يعفو الله عنه، وكي يأخذ للمظلوم من ظالمه.

الثاني: خلق السموات والأرض بالحق، وليس بالباطل خلقهما لحكم وغاياتٍ، لم يخلقهما عبثًا ولا باطلًا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

الثالث: خلقهما الله ﷻ للحق، للاستدلال بهما على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، وعلى البعث أيضًا.

الرابع: خلقهما الله ﷻ للزوال والفناء، كما يُقال الموت حق.

الخامس: خلقهما ﷻ وحده لم يشاركه في خلقهما أحدٌ.

أما قوله تعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ أي: تعالى عن أن يكون معه إلهٌ يعبد، وتعالى عن أن يكون معه إلهٌ شاركه في خلقه. والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في تأويل الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره معرّفًا خلقه حجته عليهم في توحيده، وأنه لا تصلح الألوهة إلا له: خلق ربكم أيها الناس السموات والأرض بالعدل وهو الحقّ

(٢٠) أحمر
أسود

منفردًا بخلقها لم يشركه في إنشائها وإحداثها شريك ولم يعنه عليه معين، فأنى يكون له شريك ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: علا ربكم أيها القوم عن شرككم ودعواكم إلهًا دونه، فارتفع عن أن يكون له مثل أو شريك أو ظهير، لأنه لا يكون إلهًا إلا من يخلق وينشئ بقدرته مثل السموات والأرض ويبتدع الأجسام فيحدثها من غير شيء، وليس ذلك في قُدرة أحد سوى الله الواحد القَّهار الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح الألوهة لشيء سواه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ [النجم: ٣١].

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: للزوال والفناء. وقيل: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: للدلالة على قدرته، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت. ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت

الكمال ويعلموا أنه خلقهما سكنًا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقًّا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السماوات والأرض ذكر خلق مما فيهما.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: خلق الله ﷻ الإنسان فسواه وعدله وأحسن صورته خلقه في أحسن تقويم، خلقه من نطفة من منيٍّ يُمنى، وبعد أن خلقه وسواه وأحسن صورته وعدله إذا به بدلًا من أن يشكر الله، إذا به مخاصم لربِّه ﷻ إذا به ينكر فضل الله ﷻ وينكر وحدانيته ويعبد معه غيره، إذا به يجادل في الله بغير علم، إذا به جاحدٌ لنعم الله ﷻ قد أظهر جحوده، وبيَّن نكرانه وكفرانه إذا به مخاصم لربه قد أبان عن خصومته وأظهرها يُنكر ما أخبر الله به، ينكر البعث والحساب والثواب والعقاب، ينكر قدرة الله ﷻ على البعث، ويضرب الأمثال يستدل بها على عدم قدرة الله، وليس له فيها أدنى دليل.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ [مريم: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ [الفرقان: ٥٥] أي: معاونًا لغيره على محاربة الله والشرك به وهذا في الإنسان الكافر والعياذ بالله.

أما أهل الإيمان حشرنا الله معهم وثبتنا الله على الإيمان، فإنهم يقرون لله

بما هو أهله، يقرون بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله ﷺ، وسائر رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيضًا أيها الناس، أنه خلق الإنسان من نطفة، فأحدث من ماء مهين خلقًا عجيبًا، قلَّبه تارات خلقًا بعد خلق في ظلمات ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تمّ خلقه ونفخ فيه الروح، فغذاه ورزقه القوت ونماه، حتى إذا استوى على سوقه كفر بنعمة ربه وجحد مدبره وعبد من لا يضرّ ولا ينفع، وخاصم إلهه، فقال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: ٧٨] ونسي الذي خلقه فسوّاه خلقًا سويًّا من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبدًا لا ضدًّا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاش قَالَ: بَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ابْنَ آدَمَ، أَنَّى تُعجِزني وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ**

(٢٣) أحمر
أسود

وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: أتصدقُ. وَأَنى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مخاصم، كالنسيب بمعنى المناسب. أي يخاصم الله عَزَّوَجَلَّ في قدرته. و﴿مُّبِينٌ ۝٤﴾ أي: ظاهر الخصومة. وقيل: يبين عن نفسه الخصومة بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله جل وعلا: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾، أظهر القولين فيه: أنه ذم للإنسان المذكور، والمعنى: خلقناه ليعبدنا ويخضع لنا ويطيع؛ ففاجأ بالخصومة والتكذيب، كما تدل عليه (إِذَا) الفجائية، ويوضح هذا المعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، مع قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح لهذا المبحث في «سورة الطارق».

وقال:

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾، الظاهر أنه اسم فاعل أبان اللازمة، بمعنى بان وظهر؛ أي بين الخصومة.

(١) أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشرًا تامًّا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلًا متكلمًا، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.



فضل الله ﷻ على الخلق بخلق الأنعام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: وخلق الله ﷻ الأنعام تستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته فتوحدوا الله ﷻ، ويعبدوه وحده لا شريك له فينفعكم ذلك في أُخراكم، وفي دنياكم كذلك، وأما عن الأنعام ففي الجملة هي الأنعام الثمانية الجمل – الناقة – الثور – البقرة – الكبش – النعجة – الجدي – العنز – قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر: ٦].

وقال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ...﴾ [الأنعام: ١٤٣].

إلا أنه أحيانًا تطلق الأنعام على الإبل على وجه الخصوص، وعلى الإبل في هذا الموطن حملها بعض العلماء، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾، أيضًا لمصالحكم في دنياكم، فلكم فيها ما تستدفئون به، تستخرجون منها الأصواف والأوبار والأشعار ما تصعنون منه ثيابكم وملابسكم ولحفكم التي تتغطون بها وتستدفئون بها، وكذا لكم في الأنعام منافع منها شربكم من ألبانها واستنفاعكم بجلودها ونسلها، وكذلك أكلكم منها وكذا لكم فيها جمالٌ، ترون جمالها أثناء رجوعكم بها من المراعي إلى مُراحها بمنازلكم، فقوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: ترجعون بها بعد أن أكلت وشربت وعملت ترجعون بها إلى حظائرها ومراحها، وهي في أحسن أحوالها آنذاك، قد امتلأت ضروعها بالألبان، وارتفعت أسنمتها وامتدت خواصرها، وكذا لكم فيها، وعند

ركوبكم عليها جمال حين تسرحون بها، أي: تخرجون بها من بيوتكم إلى حقولها وأماكن رعيها وعملها ولكم فيها جمال عند ركوبكم عليها.

وكذا فإن الله سخرها لكم تحمل أثقالكم، أمتعتكم وحوائجكم وبضائعكم من بلادكم إلا بلاد لم تكونوا مستطيعين الوصول إليها إلا بجهد الأنفس وبمشقة على الأنفس، وقيل: إلا بفقدان نصف قوتكم، على تفسير الشق بالنصف، ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ﴾ ذو رأفةٍ بكم إذ خلقها لكم ﴿رَّحِيمٞ﴾ بكم إذ ذللها لكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيها الناس ما خلق لكم من الأنعام، فسخَّرها لكم، وجعل لكم من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس تدفئون بها، ومنافع من ألبانها، وظهورها تركبونها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ يقول: ومن الأنعام ما تأكلون لحمه كالإبل والبقر والغنم، وسائر ما يؤكل لحمه، وحذفت «ما» من الكلام لدلالة «من» عليها.

وأورد عدة آثار في تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ أي: الثياب واللحف.

وأن المنافع ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة والنسل.

ثم قال الطبري:

ويقول تعالى ذكره: ولكم في هذه الأنعام والمواشي التي خلقها لكم ﴿جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ يعني: تردّونها بالعشيّ من مسارحها إلى مراحها ومنازلها التي تأوي إليها ولذلك سمي المكان المراح، لأنها تراح إليه عشيا فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته فهو يريحها إراحة، وقوله: ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ يقول: وفي وقت إخراجكموها غدوة من مُراحها إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته يسرحها تسريحًا، إذا أخرجها للرعي غدوة، وسَرحت الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحًا وسروحًا، فالسرح بالغداة،

والإراحة بالعشيّ، ومنه قول الشاعر:

كأنَّ بَقايا الأتْنِ فَوْقَ مُتُونِهِ   مدَّبُّ الدَّبىّ فَوْقَ النَّقا وَهْوَ سارِحُ

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظامًا ضروعها، طوالًا أسنمتها، وحين تسرحون إذا سرحت لرعيها.

وأيضًا: عن قتادة، قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ يقول: بجهد الأنفس.

قال الطبري:

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن ربكم أيها الناس ذو رأفة بكم، ورحمة، من رحمته بكم، خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، وخلق السموات والأرض أدلة لكم على وحدانية ربكم ومعرفة إلهكم، لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من فضله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًّا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال المثقلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وذلك في الحج والعمرة

والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كقوله:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٧٩، ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشق الأنفس مشقتها وغاية جهدها، وقال بعد أن أورد من معاني الشق النصف، وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى، أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها، أي لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمراد بالدفء على أظهر القولين: أنه اسم لما يدفأ به، كالملء اسم لما يملأ به، وهو الدفاء من اللباس المصنوع من أصواف الأنعام وأوبارها

وأشعارها.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل:٨٠]، وقيل: الدفء نسلها، والأول أظهر؛ والنسل داخل في قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾، أي: من نسلها ودرها، ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت.

﴿وَ﴾ لكم فيها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ غير ذلك ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ أي: في وقت رواحها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ ولكن الله ذللها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره.



(٣٠) أحمر
أسود

ومن نعمه عليهم خلق الخيل والبغال والحمير والإشارة إلى سائر وسائل المواصلات

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وسخر الله ﷻ لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها لقضاء الحوائج والمصالح ولتركبوها أيضًا متزينين بركوبها، فأحيانًا تركب لقضاء الحوائج والمصالح، وأحيانًا تركبوها زينةً، أما قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ قيل: من سائر المخلوقات التي لا تعلمونها، كالذي أعدَّه الله ﷻ لأهل الإيمان في الجنة، إذ النبي ﷺ قال: «**فِيهَا مَا لَا عَين رَأَتْ وَلَا أُذنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَر**»، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

* وقيل: يخلق من المخلوقات في الدنيا مخلوقات لا تعلمونها.

* وقيل: يخلق أيضًا من المواصلات التي تركبونها ومن الزينة التي تتزينون بها ما لا تعلمون في زمانكم وسيعلمه غيركم أو لا يعلمون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضًا لتركبوها وزينة: يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم، للركوب وغير ذلك، ونصب الخيل والبغال عطفًا على الهاء والألف في قوله: ﴿خَلَقَهَا﴾، ونصب الزينة بفعل مضمر على ما بيَّنت، ولو لم يكن معها واو وكان الكلام: لتركبوها زينة، كانت منصوبة بالفعل الذي قبلها الذي هي به متصلة، ولكن دخول الواو آذنت بأن معها ضمير فعل، وبانقطاعها عن الفعل الذي قبلها.

وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ يقول تعالى ذكره: ويخلق ربكم مع خلقه هذه الأشياء التي ذكرها لكم ما لا تعلمون مما أعدّ في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فضلها على الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء -ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل -بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن وافقه من الفقهاء ؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه[1] أكثر العلماء.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالب- للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفًا من انقطاعها وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون،

(١) يعني إلى تحريم لحوم الحمر الأهلية.

كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرًا في قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢﴾ [الرحمن: ٥٢] فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾.



حلُّ أكل لحم الخيل

س: هل لحوم الخيل حلال أكلها؟

ج: نعم لحوم الخيل حلال، وبهذا جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ وأصحابه ولم يرد نصٌّ صحيح بالمنع.

وهذه أقوال فريق من أهل العلم، وفي ثناياها الأحاديث المشار إليها، المجوِّزة لأكل لحوم الخيل.

وبداية فقد أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه الإمام أحمد بسند ضعيف عن الْمِقْدَام بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الصَّائِفَةَ، فقَرِم أَصْحَابُنَا إِلَى اللَّحْمِ، فَسَأَلُونِي رَمَكة، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِمْ فَحبلوها وَقُلْتُ: مَكَانَكُمْ حَتَّى آتِيَ خَالِدًا فَأَسْأَلَهُ. فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ خَيْبَرَ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، فَأَمَرَنِي أَنْ أُنَادِيَ: «**الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ**» ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ لُحُومُ الْأُتُنِ الْأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا، وَكُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ**»[(١)].

وَالرَّمَكَةُ: هِيَ الحِجْرَة. وَقَوْلُهُ: حَبَلوها، أَيْ: أَوْثَقُوهَا فِي الْحَبْلِ لِيَذْبَحُوهَا. وَالْحَظَائِرُ: الْبَسَاتِينُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْعُمْرَانِ.

وَكَأَنَّ هَذَا الصَّنِيعَ وَقَعَ بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ الْعَهْدَ وَمُعَامَلَتِهِمْ عَلَى الشَّطْرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَلَوْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ نصًّا فِي تَحْرِيمِ لُحُومِ الْخَيْلِ، وَلَكِنْ لَا يقاوِمُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[(٢)]، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ

---

(١) أحمد (٤/ ٨٩)، رقم (١٦٨٦٧).

(٢) البخاري (٤٢١٩) و(٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١).

(٣٤) أحمر
أسود

لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1] وَأَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادَيْنِ، كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ، فَنَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَمْ يَنْهَنَا عَنِ الْخَيْلِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[2]، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ.

فَهَذِهِ أَدَلُّ وَأَقْوَى وَأَثْبَتُ، وَإِلَى ذَلِكَ صَارَ جمهورُ الْعُلَمَاءِ: مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَأَصْحَابُهُمْ، وَأَكْثَرُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وأورد الطبري من وجوهٍ في أسانيدها ضعف عن ابن عباس أنه كان يكره لحم الخيل ويستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وأورد أقوالًا في المنع من أكل الخيل، وأقوالًا في إباحتها واختار القول بإباحتها إذ قال: وذلك أنه لو كان في قوله تعالى ذكره: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ دلالة على أنها لا تصلح، إذ كانت للركوب للأكل - لكان في قوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب. وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ جائز حلال غير حرام، إلا بما نص على تحريمه أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسول الله ﷺ فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء. وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله ﷺ، وعلى البغال بما قد بيَّنا في كتابنا، كتاب الأطعمة بما أغنى عن

(١) أحمد (٣/ ٣٥٦)، وانظر مسلم (١٩٤١).
(٢) مسلم (١٩٤٢).

إعادته في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدلّ على أنه لا وجه لقول من استدلّ بهذه الآية على تحريم لحم الفرس.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة. أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل. إذ لو دلت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمر، والسورة مكية، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام خيبر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرحًا به، وقد تركب ويحرث بها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩﴾ [غافر: ٧٩]. وقال في الخيل: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بينه عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كل شي فقالت: إنما خلقت للحرث. فيلزم من علل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب وألا تؤكل البقر لأنها خلقت للحرث. وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسنة الثابتة فيها. روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النسائي عن جابر: أطعمنا رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر. وفي رواية عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل على

(٣٦) أحمر
أسود

عهد رسول الله ﷺ فإن قيل: الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خيبر حكاية حال وقضية في عين، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة، ولا يحتج بقضايا الأحوال. قلنا: الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ يزيل ذلك الاحتمال، ولين سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت: نحرنا فرسا على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه، رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يعرج عليه.



تحريم لحوم الحُمر الأهلية

س: هل لحوم الحمر حلالٌ أكلها؟

ج: لحوم الحُمر الأهلية (التي يركبها الناس) حرام، وذلك لأن النبي ﷺ حرَّمها يوم خيبر.



س: هل لحوم البغال حرام أكلها؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل، فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا إن الخيل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول. وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة. وقد مضى في «الأنعام» الكلام في تحريم الحمر فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط، فسمي رجسًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وعلى الله بيان الطريق المستقيم الذي يوصل إليه وإلى مرضاته وجناته، الطريق الذي ينبغي أن يقصده القاصدون، الطريق السوي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، على الله بيانه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكما أنه سبحانه يسر لكم السبل في دنياكم وأنعم عليكم فيها وسخر لكم الدواب تركبونها لبلوغ مقاصدكم، فكذا فإنه بيَّن لكم سبل مرضاته

وجناته وأوضحهما لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ أي: ومن السبل سبل جائرة مائلة معوّجة منحرفة لا توصل إلى جنات الله وإلى مرضاته فاحذروها ولا تسلكوها.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فمعناه - والله أعلم - ولو شاء الله لهداكم إلى الإيمان كلكم ولوفقكم سلوك الإيمان كلكم.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾.

[الأنعام: ١٤٩]

وكما قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ٩٩]، وكما قال: ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ [الرعد: ٣١]، وكقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] إلى غير ذلك.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وعلى الله أيها الناس بيان طريق الحقّ لكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، والسبيل: هي الطريق، والقصد من الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، كما قال الراجز:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ القاصِدِ

وقوله: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ يعني تعالى ذكره: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوجّ، فالقاصد من السبل: الإسلام، والجائر منها: اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من ملل الكفر كلها جائر عن سواء السبيل وقصدها، سوى الحنيفية المسلمة، وقيل: ومنها جائر؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر، فأنثت في هذا الموضع، وقد كان بعضهم يقول: وإنما قيل: ومنها؛ لأن السبيل وإن كان

(٣٩) أحمر
أسود

لفظها لفظ واحد فمعناها الجمع.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: السبيل: طريق الهدى.

ومن وجوهٍ فيها مقالٌ عن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ الأهواء المختلفة.

وبسندٍ يصحح بطريقيه عن قتادة: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: من السُّبل سبل الشيطان.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ قال: من السبل جائر عن الحق، قال: قال الله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ⁽٩⁾﴾ يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه، فكنتم تهتدون وتلزمون قصد السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرّقون في سبل عن الحقّ جائرة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال: لو شاء لهداكم أجمعين لقصد السبيل، الذي هو الحقّ، وقرأ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية، وقرأ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]... الآية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ

(٤٠) أحمر
أسود

ٱلتَّقْوَىٰۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان. والسبيل: السلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين. وقصد السبيل: استعانة الطريق، يقال: طريق قاصد أي يؤدي إلى المطلوب. ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ﴾ أي: ومن السبيل جائر، أي عادل عن الحق فلا يهتدى به، ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من

الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله وإلى كرامته.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ ولكنه هدى بعضًا كرمًا وفضلًا ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلًا.



مزيد بيان لنعم الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: الله ﷻ الذي لا إله سواه، والذي تجب عليكم عبادته وحده لا شريك له، هو الذي أنزل من السماء ماءً، وهو المطر تشربون منه وتشرب أشجاركم منه كذلك فتنبت وتنمو وتزدهر، فترعون فيه أنعامكم، وتأكل من هذا الشجر دوابكم، فمعنى تسيمون، ترعون وينبت الله لكم بهذا المطر، الغيث النازل من السماء، وبعد أن تتشربه التربة ينبت الله لكم به جميع أنواع الزروع والثمار وكذا ينبت لكم به أشجار الزيتون المثمرة والنخيل كذلك، وكذلك حدائق الأعناب، وينبت الله لكم به من كل الثمرات، إن في ذلك لدلالة لقوم يتفكرون، فيستدلون بها على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، ويتفكرون في ذلك، وفي مآلهم الذي سيؤولون إليه، فمن ثم يحملهم هذا على العمل الصالح. والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الربّ الذي أنزل من السماء ماء، يعني: مطرًا لكم من ذلك الماء، شراب تشربونه، ومنه شراب أشجاركم، وحياة غروسكم ونباتها ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ يقول: في الشجر الذي ينبت من الماء الذي أنزل من السماء تسيمون، ترعون، يقال منه: أسام فلان إبله يسيمها

إسامة، إذا أرعاها، وسومها أيضًا يسومها، وسامت هي: إذ رعت، فهي تسوم، وهي إبل سائمة ومن ذلك قيل للمواشي المطلقة في الفلاة وغيرها للرعي، سائمة. وقد وجَّه بعضهم معنى السوم في البيع إلى أنه من هذا، وأنه ذهاب كلّ واحد من المتبايعين فيما ينبغي له من زيادة ثمن ونقصانه، كما تذهب سوائم المواشي حيث شاءت من مراعيها، ومنه قول الأعشى:

وَمَشَى القَوْمُ بالعمادِ إلى المَرْ عَى وأعْيا المُسِيمَ أيْنَ المَساقُ

وأورد عدة آثار في معنى تسيمون، أي: ترعون.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يُنبت لكم ربكم بالماء الذي أنزل لكم من السماء زرعَكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يعني: من كلّ الفواكه غير ذلك أرزاقًا لكم وأقواتًا وإدامًا وفاكهة، نعمة منه عليكم بذلك وتفضّلًا وحُجة على من كفر به منكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ يقول جلّ ثناؤه: إن في إخراج الله بما ينزل من السماء من ماء ما وصف لكم ﴿لَأٓيَةً﴾ يقول: لدلالة واضحة، وعلامة بينة ﴿لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ يقول: لقوم يعتبرون مواعظ الله، ويتفكَّرون في حججه، فيتذكرون وينيبون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال المطر من السماء -وهو العلو- مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ أي: جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحًا أجاجًا.

﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾ أي: وأخرج لكم به شجرًا ترعون فيه أنعامكم.

(٤٤) أحمر
أسود

وقوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾.

ج: هذا - والله أعلم - مزيدُ بيان لنعم الله ﷻ التي أنعم بها على خلقه، فهو جل وعلا الذي سخر لكم أيها العباد الليل والنهار وأودع فيهما ما أودع لراحتكم، والليل والنهار يتعاقبان لما فيه مصالحكم فـ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس: ٤٠] ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦٧].

وكذا فإنه سخر النهار للمعاش والسعي.

وكذا فإن الشمس والقمر والنجوم، كل ذلك مسيرٌ بتسيير الله له، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٨، ٣٩].

وكذا فإن النجوم سخرها الله فلا يسقط نجم على نجم إلا بإذن الله وبأمر الله، قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ [الحج: ٦٥].

أما قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التسخير لليل والنهار والشمس والقمر والنجوم

﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ لدلالات واضحات على وحدانية الله ﷻ وقدرته لكن الذي يستفيد منها العقلاء الألباء الذين يعقلون ويفهمون عنه مراده.

وكذا فإنه سبحانه وتعالى خلق لكم كل الصنوف التي في الأرض كل صنوف الزروع والمخلوقات المختلفة في ألوانها وطعومها وأشكالها وأحجامها، إن في ذلك التسخير لدلالات على وحدانيتنا وقدرتنا ولكن يستفيد أهل الاتعاظ والاعتبار والادكار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نِعَمه عليكم أيها الناس مع التي ذكرها قبل أن سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم، هذا لتصرّفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ لمعرفة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسنينكم، وصلاح معايشكم ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ يقول تعالى ذكره: إن في تسخير الله ذلك على ما سخره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون عنه تنبيهه إياهم.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ وسخر لكم ما ذرأ: أي ما خلق لكم في الأرض مختلفا ألوانه من الدوابّ والثمار.

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقول: وما خلق لكم مختلفًا ألوانه من الدوابّ، ومن الشجر والثمار، نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء

(٤٦) أحمر
أسود

السموات نورًا وضياءً لمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماوات، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ هو الذي سخَّر البحر، ذلَّلهُ وهيأه لكم، ولو شاء ما جعله مُسخرًا مذلَلًا، بل ذلَّله وسخره لتأكلوا منه لحمًا طريًّا، وهو لحم الحيتان والأسماك وغير ذلك من اللحوم الطرية التي تصطادونها منها، وكذا وسخره لتستخرجوا منه حليةً تتزينون بها، وتلبسونها كاللؤلؤ والمرجان وغير ذلك، ومن تسخيره لنا أنك ترى السفينة العظيمة الهائلة تسير فيه مسرعةً

تشق ماءه وتشق الرياح ويسمع لجريانها صوت وهي تسير وتمخر تشق الماء والرياح، وذلك التسخير منه ﷻ لتسافروا عليها لالتماس الأرزاق في التجارات والصيد وغير ذلك، ولتقدموا شكرًا على ذلك لربكم وخالقكم.

فيفترض أن النعم تُشكر فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

ولقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: والذي فعل هذه الأفعال بكم، وأنعم عليكم، أيها الناس هذه النعم، الذي سخر لكم البحر، وهو كلّ نهر، ملحًا ماؤه أو عذبًا ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ وهو السمك الذي يصطاد منه. ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ وهو اللؤلؤ والمرجان.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ يعني: حيتان البحر.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿مَوَاخِرَ﴾ فقال بعضهم: المواخر: المواقر.

وأورد أقوالًا أُخر بأسانيد فيها مقالٌ في معنى مواخر: تجرى فيه متعرِّضة.

ومنها: هي السفينة تقول بالماء هكذا يعني تشقه.

ومنها: ما أخذ عن يمين السفينة وعن يسارها من الماء فهو المواخر.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد: ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: تمخر الريح.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قال: تجري مقبلة ومدبرة بريحٍ واحدة.

قال الطبري رحمه الله:

والمخْر في كلام العرب: صوت هبوب الريح، إذا اشتدّ هبوبها، وهو في هذا الموضع: صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذٍ

بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخرًا ومخورًا، وهي ماخرة، ويقال: امتخرت الريح وتمخرتها: إذا نظرتَ من أين هبوبها وتسمَّعت صوت هبوبها، ومنه قول واصل مولى ابن عيينة. كان يقال: إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح، يريد بذلك: لينظر من أين مجراها وهبوبها ليستدبرها فلا ترجع عليه البول وتردّه عليه.

وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: ولتتصرّفوا في طلب معايشكم بالتجارة سخر لكم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ يقول: ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم من ذلك سخر لكم ما سخر من هذه الأشياء التي عدّدها في هذه الآيات.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه.

وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح وقيل: تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثًا عن أبيهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، لجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ أي: نعمه وإحسانه.

(٤٩) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم-: وألقى الله ﷻ الجبال الرواسي على الأرض كي لا تميد الأرض ولا تضطرب بمن عليها، فجعلت الجبال أثقالًا لوزنها وضبطها، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣٢].

وكذا أجرى الله ﷻ في الأرض أنهار، وجعل في الأرض طرقًا لعلكم تتوصلون بها إلى مرادكم في الأسفار والتجارات وغير ذلك، وجعل في الأرض أيضًا علامات تستدلون بها في أسفاركم، فتعلمون بها الأماكن وتستدلوا بها على الطرق والبلاد، وهذه العلامات جائز أن تكون جبالًا وجائز أن تكون هِضابًا وجائز أن تكون وديانًا، وقيل أيضًا: إنها نجومٌ يستدل بها.

أما قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: والبشر يهتدون بالنجم كذلك في أسفارهم بل وفي حضرهم كذلك، وقد جعلت النجوم - كما تقدم مرارًا - لأمور ثلاثة:

أحدها: يهتدي بها في ظلمات البر والبحر.

الثاني: زينة للسماء الدنيا.

الثالث: رجومٌ للشياطين.

ثمَّ وبعد أن بيَّن الله ﷻ نعمه على خلقه يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ الأشياء كلها، ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ كالوثن والصنم، وكأي معبود يُعبد من دون الله؟؟ أفلا تتعظون وتعتبرون كيف سويتم بين الله ﷻ خالق كل شيء، وبين من لا يخلق، كيف سويتم بين الخالق ﷻ وبين غيره؟ كيف أشركتم في عبادتكم الله ﷻ عبادة آلهة أخرى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تتعظون وتعتبرون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ فنعم الله لا تُحصى ولا تُعد فقدموا الشكر الذي تستطيعوا تقديمه لله ﷻ، ولن تطيقوا شكرها، فقدموا ما استطعتم من الشكر، واعلموا أن الله غفور رحيم، يغفر لكم تقصيركم في شكره، إذا شكرتموه، فلن تفوا بحقه ولن تفوا بشكره، وهو جل ذكره غفور لمن قصر من عباده في شكره، رحيم بهم كذلك لا يكلفهم فوق طاقتهم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نعمه عليكم أيها الناس أيضا، أن ألقى في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابت في الأرض من الجبال. وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ يعني: أن لا تميد بكم، وذلك كقوله ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ والمعنى: أن لا تضلوا. وذلك أنه جلّ ثناؤه أرسى الأرض بالجبال لئلا يميد خلقه الذي على ظهرها، بل وقد كانت مائدة قبل أن تُرْسَى بها.

وأورد بسنده، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، قالت الملائكة. ما هذه بمقرّة على ظهرها أحدًا، فأصبحت صبحًا وفيها رواسيها.

وقوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ يقول: وجعل فيها أنهارًا، فعطف بالأنهار على الرواسي، وأعمل فيها ما أعمل في الرواسي، إذ كان مفهومًا معنى الكلام والمراد منه، وذلك نظير قول الراجز:

تَسْمَعُ في أجْوَافِهِنَّ صَوْرَا ... وفي اليَدَيْنِ حَشَّةً وبَوْرا

والحشة: اليُبس، فعطف بالحشة على الصوت، والحشة لا تسمع، إذ كان مفهوما المراد منه وأن معناه وترى في اليدين حَشَّةً.

وقوله: ﴿وَسُبُلٗا﴾ وهي جمع سبيل، كما الطرق: جمع طريق، ومعنى

(٥١) أحمر
أسود

الكلام: وجعل لكم أيها الناس في الأرض سُبلا وفجاجًا تسلكونها، وتسيرون فيها في حوائجكم، وطلب معايشكم رحمة بكم، ونعمة منه بذلك عليكم ولو عماها عليكم لهلكتم ضلالًا وحيرة.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ يقول: لكي تهتدوا بهذه السبل التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون والمواضع التي تريدون، فلا تضلوا وتتحيروا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾.

اختلف أهل التأويل في المعنى بالعلامات، فقال بعضهم: عني بها معالم الطرق بالنهار.

وقال آخرون: عني بها النجوم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن إبراهيم: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ قال: منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به.

وأورد بإسنادين يصحان بمجموعهما عن قتادة، قوله: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ والعلامات: النجوم، وإن الله تبارك وتعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلَّف ما لا علم له به.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عدّد على عباده من نعمه، إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكلّ علامة استدلّ بها الناس على طرقهم، وفجاج سبُلهم، فداخل في

قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ والطرق المسبولة: الموطوءة، علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدى بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل. غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار، إذ كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ وإذا كان ذلك أشبه وأولى بتأويل الآية، فالواجب أن يكون القول في ذلك ما قاله ابن عباس في الخبر الذي رويناه عن عطية[١] عنه، وهو أن العلامات معالم الطرق وأماراتها التي يهتدى بها إلى المستقيم منها نهارًا، وأن يكون النجم الذي يهتدى به ليلًا هو الجدي والفرقدان، لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم.

فتأويل الكلام إذن: وجعل لكم أيها الناس علامات تستدلون بها نهارًا على طرقكم في أسفاركم. ونجومًا تهتدون بها ليلًا في سُبلكم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة؟ يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرّفهم بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلَّة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عدّدها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره، قال لهم جلّ ثناؤه موبخهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سُلطانه وقُدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضرًّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة؟

(١) وعطية وهو العوفي ضعيف.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والله هو الخالق الرازق، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئا، ولا تملك لأهلها ضرًّا ولا نفعًا، قال الله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ هو الوثن والصنم، و «من» لذوي التمييز خاصة، فجعل في هذا الموضع لغيرهم للتمييز، إذ وقع تفصيلًا بين من يخلق ومن لا يخلق، ومحكيّ عن العرب: اشتبه عليّ الراكب وجمله، فما أدرى من ذا ومن ذا، حيث جمعا، وأحدهما إنسان حسنت من فيهما جميعًا. ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا أداء شكرها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول جلّ ثناؤه: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة إليه والتوبة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ٣٢﴾ [النازعات: ٣٢].

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقًا للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل فيها سبلًا أي: طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق بالنهار.

وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس.

وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ يقولون: النجوم، وهي الجبال.

ثم قال تعالى منبهًا على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئا بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ بكم أن يعذبكم، أي: بعد الإنابة والتوبة.



(٥٥) أحمر

أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ
يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ
وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ
يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ
وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ
أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ
ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ
أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

[النحل: ١٩-٢٩]

(٥٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿تُسِرُّونَ – تُعْلِنُونَ – يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ – أَيَّانَ – قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ – مُّسْتَكْبِرُونَ – لَا جَرَمَ – أَوْزَارَهُمْ – يَزِرُونَ – فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ – فَخَرَّ – تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ – وَٱلسُّوٓءَ – فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ – مَثْوَى﴾.
ج:

الكلمة	معناها
﴿تُسِرُّونَ﴾	تخفون (في صدوركم).
﴿تُعْلِنُونَ﴾	تظهرون (بألسنتكم أو بجوارحكم).
﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	يعبدون مع الله – يعبدون غير الله.
﴿أَيَّانَ﴾	متى.
﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾	يجحدون وحدانية الله – يجحدون الحق والقرآن، ونبوة النبي عليه الصلاة والسلام.
﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾	متعالون على قبول الحق والإذعان له والإقرار بعبوديتهم لله.
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا.
﴿أَوْزَارَهُمْ﴾	آثامهم أحمالهم من الذنوب.
﴿يَزِرُونَ﴾	يحملون (من الذنوب).
﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾	فدمر الله أصل بنيانهم وقواعد بنيانهم.
﴿فَخَرَّ﴾	فسقط.

(٥٧) أحمر
أسود

﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾	تعاندون أنبيائي ورسلي بسببهم.
﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾	العقاب السيئ – الجزاء السيئ.
﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾	فأظهروا الخضوع والاستسلام والانقياد.
﴿مَثۡوَى﴾	مقام – مسكن – مستقر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ الذي يجب أن يُفرد بالعبادة يعلم ما تخفونه في أنفسكم وما تظهرونه بجوارحكم أو بألسنتكم، كل ذلك يعلمه الله ﷻ، أما الأصنام والآلهة التي عبدتموها من دون الله فإنها لا تخلق شيئًا ولكنها تُخلق، ثم هي جمادات لا روح فيها.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فمعناه: أن الأصنام لا تشعر متى تبعث، لا تدري متى يوم القيامة، وعبَّر عن الأصنام بقوله: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ وكأنها تعقل قيل لأنها تُلهم النطق يوم القيامة لتتبرأ من عابديها وقيل: لأن قرناءها وسدنتها هم المعنيون بذلك.

وقال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ هم أهل الكفر والعياذ بالله.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: والله الذي هو إلهكم أيها الناس، يعلم ما تسرّون في أنفسكم من ضمائركم فتخفونه عن غيركم، فما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محصن ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يوم القيامة، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته، ومُسائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تحصوا، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ يقول تعالى ذكره: وأوثانكم الذين تدعون من دون الله أيها الناس آلهة لا تخلق شيئا وهي تخلق، فكيف يكون إلها ما كان مصنوعًا مدبرًا، لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا.

ويقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: والذين تدعون من دون الله أيها الناس: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ وجعلها جلّ ثناؤه أمواتا غير أحياء، إذ كانت لا أرواح فيها.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهي هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها، ولا تملك لأهلها ضرًّا ولا نفعًا، وفي رفع الأموات وجهان: أحدهما أن يكون خبرًا للذين، والآخر على الاستئناف وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما تدري أصنامكم التي تدعون من دون الله متى تبعث، وقيل: إنما عنى بذلك الكفار، إنهم لا يدرون متى يبعثون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] .

وقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ «أَيَّانَ» بمعنى: «متى».

وفي المشار إليهم قولان:

أحدهما: أنها الأصنام، عبّر عنها كما يُعبّر عن الآدميين. قال ابن عباس:

وذلك أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها، فيتبرَّؤون من عبادتهم، ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إلى النار.

والثاني: أنهم الكفار، لا يعلمون متى بعثهم، قاله مقاتل.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ قليلًا ولا كثيرًا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟

ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبًّا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه.



التنبيه على وحدانية الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ج: **المعنى – والله أعلم–:** معبودكم الحق الذي يستحق العبادة إنما هو إلهٌ واحدٌ فأهل الإيمان يعظمونه ويوحدونه ويفردونه بالعبادة، أما أهل الكفر

والتكذيب الذين لا يقرون بالبعث ولا بالحساب قلوبهم منكرةٌ لوحدانية الله ﷻ ومنكرةٌ لقدرته على البعث ومنكرةٌ للقرآن الذي أُنزل عليك يا رسول الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربهم ﷻ وعن الإقرار له بالوحدانية، فحقًّا أن الله يعلم ما تخفونه وما تظهرونه وسيجازيهم على ذلك، فإنه ﷻ لا يحب المستكبرين، المتعالين عن عبادته، والذين يبطرون الحق ويجحدونه، وكذا يحتقرون خلق الله، فالكبر هنا كبر عن توحيد الله وطاعته، والكبر من معانيه أيضًا بطر الحق وغمط الناس، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ(١)، وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: معبودكم الذي يستحقّ عليكم العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبود واحد، لأنه لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكا سواه ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ يقول تعالى ذكره: فالذين لا يصدّقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرّون بالمعاد إليه بعد الممات قلوبهم منكرة، يقول تعالى ذكره: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهة ليست لشيء غيره يقول: وهم مستكبرون عن إفراد الله بالألوهة، والإقرار له بالوحدانية، اتباعًا منهم لما مضى عليه من الشرك بالله أسلافهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الحديث الذي مضى، وهم مستكبرون عنه.

ويعني تعالى ذكره بقوله: لا جرم حقًّا أن الله يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون من إنكارهم ما ذكرنا من الأنباء في هذه السورة، واعتقادهم نكير قولنا لهم:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

إلهكم إله واحد، واستكبارهم على الله، وما يعلنون من كفرهم بالله وفريتهم عليه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: إن الله لا يحب المستكبرين عليه أن يوحدوه ويخلعوا ما دونه من الآلهة والأنداد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد. فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حبًّا عظيمًا، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلًا وعنادًا وهو: توحيد الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ عن عبادته.

﴿ لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا لا بد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإذا قيل لأهل الكفر ماذا أنزل ربكم ﷻ على نبيه محمد ﷺ من الآيات قالوا: ما أنزل ربنا من شيء، كما في الآية الأخرى: ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١] فيقال لهم: فما قولكم فيما يتلوه محمدٌ ﷺ، فجوابهم أن ما يتلوه محمد ﷺ، ليس من عند الله إنما هي قصص وخرافات الأولين يتعلمها صباحًا ومساءً ويأتي يلقيها علينا، كما في قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣].

فهذا هو قولهم في القرآن، يقولون عنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فتكون العاقبة أنهم يتحملوا بذلك القول إثم كفرهم الذي كفروا، وإثم أعمالهم التي عملوها بناءً على كفرهم، وإثم شركهم بالله وجحودهم وإنكارهم، وكذا يتحملون إثم من أضلوه وصرفوه عن الحق، وأفتوه بالكذب والزور، فما أسوأ هذه الذنوب التي يتحملونها وما أسوأ عاقبتها، فاللام في قوله تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ لام العاقبة، أي: لتكون عاقبتهم أنهم يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة...

هذا، وسيأتي قول النبي ﷺ: «**فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(١).

هذا، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

المشركين، ماذا أنزل ربكم، أيّ شيء أنزل ربكم، قالوا: الذي أنزل ما سطَّره الأوّلون من قبلنا من الأباطيل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ يقول: أحاديث الأوّلين وباطلهم، قال ذلك قوم من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبيّ الله ﷺ، فإذا مرّ بهم أحد من المؤمنين، يريد نبيّ الله ﷺ، قالوا لهم: أساطير الأوّلين، يريد: أحاديث الأوّلين وباطلهم.

يقول تعالى ذكره: يقول هؤلاء المشركون لمن سألهم، ماذا أنزل ربكم الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطير الأوّلين، لتكون لهم ذنوبهم التي هم عليها مقيمون من تكذيبهم الله، وكفرهم بما أنزل على رسوله ﷺ، ومن ذنوب الذين يصدّونهم عن الإيمان بالله يضلون يفتنون منهم بغير علم، وقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون، والثقل الذي يتحملون.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ﴾ أي: ذنوبهم وذنوب الذين يضلونهم بغير علم، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ أي: لم ينزل شيئا، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: ٥] أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالًا مختلفة متضادة، كلها باطلة كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر،

وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ١٨-٢٤] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مثلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا**»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ قالوا: لم ينزل عليه شيء، وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين، نقله من كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل. أصلها من سطر: إذا كتب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ [الطور: ٢]، وقال بعض العلماء الأساطير: الترهات والأباطيل، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَّاذَآ﴾، يحتمل أن تكون «ذا» موصولة و«ما» مبتدأ، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾ صلة الموصول، والموصول وصلته خبر المبتدأ. ويحتمل أن يكون مجموعهما اسمًا واحدًا في محل نصب، على أنه مفعول ﴿أَنزَلَ﴾، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومثل ماذا بعد ما استفهام   أو من إذا لم تلغ في الكلام

وبين جل وعلا كذب الكفار في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين، بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ..﴾ الآية [الفرقان: ٦]، وبقوله هنا: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين، تحملوا أوزارهم ـ أي: ذنوبهم ـ كاملة، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتبعوهم في الضلال؛ كما يدل عليه حرف التبعيض الذي هو «مِنْ»، في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ...﴾ الآية.

وقال القرطبي: «مِنْ» لبيان الجنس؛ فهم يحملون مثل أوزار من أضلوهم كاملة.

وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]، واللام في قوله:

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾، تتعلق بمحذوف دل المقام عليه؛ أي: قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

تنبيه

فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣]، مع أن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١٨]، ويقول جل وعلا: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ويقول ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالجواب ـ والله تعالى أعلم ـ: أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين:

أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا، وإنما أخذ بعمل غيره؛ لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ...﴾ الآية [فاطر: ١٨].

وأورد ما أخرجه مسلم[(١)] في صحيحه من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمِ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧).

أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ». اهـ.

وأورد أيضًا ما أخرجه مسلم[1] من حديث أبي هريرة بلفظ: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مثلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا».

قال مقيده عفا الله عنه: هذه النصوص الصحيحة تدل على رفع الإشكال بين الآيات، كما تدل على أن جميع حسنات هذه الأمة في صحيفة النبي ﷺ، فله مثل أجور جميعهم؛ لأنه صلوات الله عليه وسلامه هو الذي سنّ لهم السنن الحسنة جميعها في الإسلام، نرجو الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وأن يصلي ويسلم عليه أتم صلاة وأزكى سلام.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾، يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسل المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى؛ لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في «الأعراف»؛ كقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف:٣٠]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ [الزمر:٤٧]، وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سببترديهم في النار، أعاذنا الله والمسلمين منها.

وقال بعض العلماء: معنى حملهم أوزارهم: أن الواحد منهم عند خروجه

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

من قبره يوم القيامة يستقبله شيء كأقبح صورة، وأنتنها ريحًا؛ فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني! فيقول: لا والله، إلا أن الله قبّح وجهك! وأنتن ريحك! فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه فطالما ركبتني في الدنيا! هلم أركبك اليوم؛ فيركب على ظهره. اهـ.

وقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، ﴿سَآءَ﴾ فعل جامد؛ لإنشاء الذم بمعنى بئس، ﴿مَا﴾، فيها الوجهان المشار إليهما بقوله في الخلاصة:

وما مميز وقيل فاعل   في نحو نعم ما يقول الفاضل

وقوله: ﴿يَزِرُونَ﴾، أي: يحملون، وقال قتادة: يعملون. اهـ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى -مخبرًا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي: إذا سألوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلًا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: قد مكر أهل الكفر الذين كانوا قبل كفار قريش، مكروا بمن يريد الإيمان فحاولوا صرفه عن طريق الإيمان، ومكروا بمن آمن فحاولوا تضليله وقتله وإلحاق الأذى به.

أما عن كيفية مكرهم، والمكر الذي مكروا فلأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن هذا الذي عناه الله بقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ﴾ هو النمرود بن كنعان، والذي حاج إبراهيم في ربه بنى صرحًا عاليًا لمحاربة ربِّه ﷻ فأسقط الله سقف بيته عليه.

وقيل: إنه بختنصر البابلي.

قلت (مصطفى): والظاهر أن الذين مكروا ودمَّر الله عليهم قوم كثيرون، فقوم صالح، وهو التسعة رهط من قوم ثمود مكروا بصالح ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ...﴾ [النمل: ٤٨-٥٢].

ومكر بنو إسرائيل بعيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ مكروا بعيسى عليه السلام لصلبه فسلمه الله ﷻ ورفع إليه.

ومكر فرعون أيضًا لإضلال الناس إذ قال: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ

لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

ومكر قوم نوحٍ بنوح عليه السلام كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: ٢٢].

وغير هؤلاء الكثير والكثير مكروا بخلق الله لإضلالهم وإغوائهم وصرفهم عن دينهم، مكروا فأظهروا الخير وأبطنوا الشر وأظهروا الطيب، وأبطنوا الخبيث.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ فمحتملٌ لمعانٍ:

أحدها: أن يكون بعض هؤلاء الذين مكروا بنوا بنيانًا لصرف الناس عن دينهم فدمّره الله من أساسه وأصله وأسقط سقفه عليهم ونزل عليهم العذاب من حيث لا يتوقعون ولا يدرون.

والثاني: أن يكون المراد أن الله ﷻ أبطل كيدهم ومكرهم وأنزل على الذين يريدون المكر بالعباد وإغوائهم عذابًا من حيث لا يتوقعون ولا يدرون، ويحتمل أن يكون المكر بالبنيان والعذاب بما سوى إسقاط السقف، والمراد أن العذاب فجأهم من وجهٍ لا يتوقعونه، والظاهر الموافق لسياق الآية الكريمة هو الوجه الأول، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ أي: ولا يقتصر عذاب الله لهؤلاء الذين مكروا على عذاب الدنيا الذي عذبهم الله به، بل ويوم القيامة يفضحهم الله ﷻ، وأعظم الخزي إدخالهم النار والعياذ بالله، كما في الآية الكريمة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ معناه: والله أعلم أن الله ﷻ يقول لأهل الكفر أين شركائي، أين من جعلتموهم لي شركاء، وعاديتم أنبيائي ورسلي وأوليائي بسببهم؟!! أين هذه الآلهة الباطلة التي

عبدتموها من دوني، ادعوها إن استطعتم فلتنصركم إن استطعتم، فحينئذٍ لم يدروا جوابًا فتكلم أهل العلم وأهل الإيمان، قالوا: إن الخزي اليوم والسوء على أهل الكفر والجحود والنكران، الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وعبدوا معه آلهة أخرى.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله، من أراد اتباع دين الله، فراموا مغالبة الله ببناء بَنَوه، يريدون بزعمهم الارتفاع إلى السماء لحرب من فيها، وكان الذي رام ذلك فيما ذُكر لنا جبار من جبابرة النَّبَط، فقال بعضهم: هو نمرود بن كنعان، وقال بعضهم: هو بختنصر، وقد ذكرت بعض أخبارهما في سورة إبراهيم. وقيل: إن الذي ذُكر في هذا الموضع هو الذي ذكره الله في سورة إبراهيم.

ثم قال أيضًا:

وقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فخرّ عليهم السقف من فوقهم: أعالي بيوتهم من فوقهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ إي والله، لأتاها أمر الله من أصلها ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ والسقف: أعالي البيوت، فائتفكت بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾.

وقال آخرون: عنى بقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ أن العذاب أتاهم من السماء.

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم

سقوف بيوتهم، إذ أتى أصولها وقواعدها أمر الله، فائتفكت بهم منازلهم لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان، وخرّ السقف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيل ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأتى هؤلاء الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذاب الله من حيث لا يدرون أنه أتاهم منه.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره: فعل الله بهؤلاء الذين مكروا الذين وصف الله جلّ ثناؤه أمرهم ما فعل بهم في الدنيا، من تعجيل العذاب لهم، والانتقام بكفرهم، وجحودهم وحدانيته، ثم هو مع ذلك يوم القيامة مخزيهم، فمذلهم بعذاب أليم، وقائل لهم عند ورودهم عليه ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أصله: من شاققت فلانًا فهو يشاقّني، وذلك إذا فعل كلّ واحد منهما بصاحبه ما يشقّ عليه. يقول تعالى ذكره يوم القيامة تقريعًا للمشركين بعبادتهم الأصنام: أين شركائي؟ يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحلّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا، وتتولونهم، والوليّ ينصر وليه، وكانت مشاقتهم الله في أوثانهم مخالفتهم إياه في عبادتهم.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني: الذلة والهوان والسوء، يعني: عذاب الله على الكافرين.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قولين في الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾.

أحدهما: أنه النمروذ الذي بنى الصرح.

والآخر: أنه بختنصر.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأموالهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية [سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وقال هاهنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَته، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**».

وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعًا لهم وموبخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أي: أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم

(١) البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٧).

الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ -وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة قد مكروا، وبين ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

[إبراهيم: ٤٦]

وبين بعض مكر كفار مكة، بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

[آل عمران: ٥٤]

وبين بعض مكر قوم صالح، بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

[النمل: ٥٠، ٥١]

وذكر بعض مكر قوم نوح، بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ..﴾ الآية [نوح: ٢٢-٢٣].

وبين مكر رؤساء الكفار، في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ...﴾ الآية [سبأ: ٣٣]، والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين جل وعلا أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله؛

(٧٦) أحمر
أسود

وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتثه من أصله واقتلعه من أساسه؛ فأبطل عملهم وأسقط بنيانهم. وهذا الذي فعل بهؤلاء الكفار الذين هم نمروذ وقومه ـ كما قدمنا في «سورة الحجر» ـ فعل مثله أيضًا بغيرهم من الكفار؛ فأبطل ما كانوا يفعلون ويدبرون؛ كقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ٢﴾ [الحشر: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، أي: يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: ٩-١٠]، أي: أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور، وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ [الطارق: ٩].

وقد بين جل وعلا في موضع آخر: أن من أدخل النار فقد ناله هذا الخزي المذكور، وذلك في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقد قدمنا في سورة «هود» إيضاح معنى الخزي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي!

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ

ﵟٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَﵞ [القصص٦٢]، وقوله: ﵟوَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَﵞ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﵟثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا...ﵞ الآية [غافر: ٧٣-٧٤]، وقوله: ﵟحَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا...ﵞ الآية [الأعراف: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ﵟقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡﵞ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورًا هائلة، ﵟفَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِﵞ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﵟفَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡﵞ فصار ما بنوه عذابًا عذبوا به، ﵟوَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ﵞ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولًا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضًا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﵟوَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚﵞ هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﵟثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡﵞ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

ﵟوَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚﵞ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﵟضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَﵞ [الأعراف:٣٧] ﵟقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَﵞ أي:

العلماء الربانيون ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: سوء العذاب ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

ج: **المعنى - والله تعالى أعلم-:** الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم على الشرك بالله ﷻ، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل بسبب شركهم بالله، هؤلاء الذين يموتون على الكفر يوم القيامة يظهرون كمال الخضوع والانقياد والاستسلام ويكذبون مع ذلك في قيلهم، وينكروا أن يكونوا قد أشركوا في الدنيا، كما في آية أُخرى إذ يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فهاهنا ينكرون أيضًا فيقولون ما كنا نعمل في الدنيا سوءًا، فيجابون بقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: قد كنتم تعملون سوءًا في الدنيا، وأنتم كذبة في قولكم، فالله سبحانه وتعالى: لا يخفى عليه من خلقه شيء، فهو عليمٌ بما صنعتموه في دنياكم، فها هي جهنم المعدَّة لكم فادخلوا أبوابها ماكثين فيها لا تخرجون منها أبدًا فلبئس المقام مقام هؤلاء المتكبرين على ربهم المستكبرين عن عبادته وطاعته.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ من قول أهل العلم المذكورين في الآية المتقدمة، ومنهم من قال إنه قول الله ﷻ.

هذا، ومن العلماء من نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ على آية النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ ...﴾ [النساء: ٩٧] وأرى هذا التنزيل بعيدًا؛ لأن آية النساء في مسلمين ظلموا أنفسهم بمعاونة أهل

الكفر، أما هذه التي نحن بصددها في الكفار الأصليين والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقول: الذين تقبض أرواحهم الملائكة، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: وهم على كفرهم وشركهم بالله، وقيل: إنه عنى بذلك من قتل من قريش ببدر، وقد أخرج إليها كرها.

وأورد نحوًا مما تقدم في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ...﴾ [النساء: ٩٧].

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ يقول: فاستسلموا لأمره، وانقادوا له حين عاينوا الموت قد نزل بهم، ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ وفي الكلام محذوف استغني بفهم سامعيه ما دلّ عليه الكلام عن ذكره وهو: قالوا ما كنا نعمل من سوء، يخبر عنهم بذلك أنهم كذّبوا وقالوا: ما كنا نعصي الله اعتصامًا منهم بالباطل رجاء أن ينجوا بذلك، فكذّبهم الله فقال: بل كنتم تعملون السوء وتصدّون عن سبيل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: إن الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره، يقول لهؤلاء الظلمة أنفسهم حين يقولون لربهم: ما كنا نعمل من سوء: ادخلوا أبواب جهنم، يعني: طبقات جهنم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: ماكثين فيها ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ يقول: فلبئس منزل من تكبر على الله ولم يقرّ بربوبيته، ويصدّق بوحدانيته جهنم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: الاستسلام والخضوع. والمعنى: أظهروا كمال الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت، أو يوم القيامة. يعني: أنهم في الدنيا يشاقون الرسل، أي: يخالفونهم ويعادونهم، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، أي: خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك.

ومما يدل من القرآن على أن المراد بإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام، قوله: (**وَلا تَقُولُوا لمن ألْقى إِلَيْكُم السّلم لست مُؤمنا**)، على قراءة نافع وابن

(٨١) أحمر
أسود

عامر وحمزة بلا ألف بعد اللام؛ بمعنى الانقياد والإذغان. وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ [النساء: ٩٠]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الآية [النساء: ٩١].

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنة لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق عليه من ترك السوء، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل٨٧]، فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد، والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ الآية [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٥]، وقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، فقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، معمول قول محذوف بلا خلاف.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعنى: أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من السوء، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي، وقد بين الله كذبهم، بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وبين في مواضع أخر: أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما ذكر هنا، وبين كذبهم في ذلك أيضًا؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، وقوله: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤]،

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: حرامًا محرمًا أن تمسونا بسوء؛ لأنا لم نفعل ما نستحق به ذلك، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿بَلَىٰٓ﴾، تكذيب لهم في قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الآية، لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في «سورة الحجر»، في قوله جل وعلا: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤]، أرجو الله أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها! إنه رحيم كريم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَىٰٓ﴾ كنتم تعملون السوء فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم. ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فكلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يومًا من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

(٨٣) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ
ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ
أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ ﴾

[النحل: ٣٠-٣٤]

(٨٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ – ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ – ﴿أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ – ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ – ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾	تقبض الملائكة أرواحهم وهم على الإيمان والإسلام وصالح الأعمال.
﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾	هل ينتظرون.
﴿أَمۡرُ رَبِّكَ﴾	المراد أمره بقيام الساعة.
﴿وَحَاقَ بِهِم﴾	نزل بهم وحلَّ بهم.
﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾	جزاء استهزائهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وقيل لأهل الإيمان والتوحيد والإسلام، الذين اتقوا الشرك بالله ﷻ قيل لهم - لما نزل القرآن - ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل ربنا خيرًا، ثم فصلوه بقولهم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، أي: للذين استقاموا على أمر الله ﷻ حسنةٌ في هذه الدنيا، وهي طمأنينة القلب بالإيمان ورضا القلب بذلك، والعيشة الهنيئة والحياة الطيبة، والتي منها الزوجة الصالحة وغير ذلك مما يرزقهم الله به، وأعظم ذلك كله في الدنيا رضا القلب بالإيمان والتوحيد ونطق اللسان بذلك، فضلًا عن سائر صور الحياة الطيبة.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ هو قول الله ﷻ.

وقال آخرون كما سبق إنه قول المتقين لما سئلوا ماذا أنزل ربكم.

هذا، وقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فيها نفس الوجهين المتقدمين، ومعناه: الدار الآخرة، وما أُعد فيها من النعيم المقيم خيرٌ للذين أحسنوا في الدنيا ولنعم الدار دار المتقين ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ جنات إقامة ﴿يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ أي: هكذا يجازي الله ﷻ أهل التقوى. أما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ...﴾ فمعناه، والله أعلم الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند استيفاء آجالهم، وهم طيبون، سلموا من

(٨٦) أحمر
أسود

الشرك وسلموا من الكبائر، تقول لهم الملائكة عند الاحتضار سلام عليكم ادخلوا الجنة، يوم تقوم الساعة جزاء أعمالكم الصالحة التي عملتموها.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ ذلك يُقال لهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وكل ذلك صحيح فالبشارات تتوالى في الدنيا وعند الاحتضار وفي القبر ويوم يقوم الأشهاد، وكذا بعد دخول الجنان، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقيل للفريق الآخر، الذين هم أهل إيمان وتقوى لله ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ يقول: قالوا: أنزل خيرًا. وكان بعض أهل العربية من الكوفيين يقول: إنما اختلف الأعراب في قوله ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ وقوله ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ والمسألة قبل الجوابين كليهما واحدة، وهي قوله ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ لأن الكفار جحدوا التنزيل، فقالوا حين سمعوه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي هذا الذي جئت به أساطير الأوّلين، ولم ينزل الله منه شيئا، وأما المؤمنون فصدَّقوا التنزيل، فقالوا: ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، بمعنى أنه أنزل خيرا، فانتصب بوقوع الفعل من الله على الخير، فلهذا افترقا ثم ابتدأ الخبر فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ وقد بيَّنا القول في ذلك فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ يقول تعالى ذكره: للذين آمنوا بالله في هذه الدنيا ورسوله، وأطاعوه فيها، ودعوا عباد الله إلى الإيمان والعمل بما أمر الله به،حسنة، يقول: كرامة من الله ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ يقول: ولدار الآخرة خير لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيا، وكرامة الله التي أعدّها لهم فيها أعظم من كرامته التي عجلها لهم في الدنيا ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يقول: ولنعم دار الذين

خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضه وتجنب معاصيه دار الآخرة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ ﴾ وهؤلاء مؤمنون، فيقال لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ فيقولون: ﴿خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾: أي آمنوا بالله وأمروا بطاعة الله، وحثوا أهل طاعة الله على الخير ودعوهم إليه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ﴾.

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بساتين للمقام، وقد بيَّنا اختلاف أهل التأويل في معنى عدن فيما مضى بما أغنى عن إعادته ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ يقول: يدخلون جنات عدن، وفي رفع جنات أوجه ثلاث: أحدها: أن يكون مرفوعًا على الابتداء، والآخر: بالعائد من الذكر في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ والثالث: على أن يكون خبر النعم، فيكون المعنى إذا جعلت خبر النعم: ولنعم دار المتقين جنات عدن، ويكون ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ في موضع حال، كما يقال: نعم الدار دار تسكنها أنت، وقد يجوز أن يكون إذا كان الكلام بهذا التأويل يدخلونها، من صلة جنات عدن، وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ ﴾ يقول: للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهي أنفسهم، وتلذّ أعينهم ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ يقول: كما يجزي الله هؤلاء الذين أحسنوا في هذه الدنيا بما وصف لكم أيها الناس أنه جزاهم به في الدنيا والآخرة، كذلك يجزي الذين اتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ ﴾.

يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تَقْبِض أرواحَهم ملائكةُ

الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم. وقوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ يعني جلّ ثناؤه أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي صخر، أنه سمع محمد بن كعب القُرَظيّ يقول: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ...﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيام حياتكم فيها طاعة الله، طلب مرضاته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئا، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ أي: أنزل خيرًا، أي: رحمة وبركة وحسنًا لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبروا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ بدل من قوله: ﴿دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم في الدار الآخرة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ أي: إقامة يدخلونها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَرَابِهِمْ، فَلَا يَشْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطِرِينَا كواعب أترابًا، فيكون ذلك**».

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ ﴾ أي قالوا: أنزل خيرا، وتم الكلام. و﴿مَاذَآ﴾ على هذا اسم واحد. وكان يرد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون. ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير

والهدى، والمراد القرآن. وقيل: إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وانتصب في قوله: ﴿خَيْرًا﴾؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين. والمؤمنين آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيرا. وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل: هو من كلام الله ﷻ وقيل: هو من جملة كلام الذين اتقوا. والحسنة هنا: الجنة، أي: من أطاع الله فله الجنة غدا. وقيل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا، لفنائها وبقاء الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فيه وجهان: قال الحسن: المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة. وقيل: المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة، وهذا قول الجمهور. وعلى هذا تكون ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلًا من الدار فلذلك ارتفع. وقيل: ارتفع على تقدير هي جنات، فهي مبينة لقوله: ﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير: جنات عدن نعم دار المتقين.

وقال:

﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستة أقوال:

الأول: ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من الشرك.

الثاني: صالحين.

الثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

الرابع: طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى.

الخامس: طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله.

السادس: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط. والله أعلم. ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة.

الثاني: أن يكون تبشيرًا لهم بالجنة، لأن السلام أمان.

وقال:

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما- أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة. الثاني- أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ يعني في الدنيا من الصالحات.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن دار الآخرة خير من دار الدنيا. وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ...﴾ الآية [القصص:٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضحى: ٤]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤-١٥].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أسند هنا جل وعلا التوفي للملائكة في قوله: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأسنده في «السجدة» لملك الموت في قوله: ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة: ١١]،

وأسنده في «الزمر» إلى نفسه جل وعلا في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا..﴾ الآية [الزمر: ٤٢]، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة «السجدة»: أنه لا معارضة بين الآيات المذكورة؛ فإسناده التوفي لنفسه، لأنه لا يموت أحد إلا بمشيئته تعالى، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده إلى الملائكة؛ لأن لملك الموت أعوانًا من الملائكة ينزعون الروح من الجسد إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت، كما قاله بعض العلماء، والعلم عند الله تعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا لها ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعًا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات

ذاته، وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم لا بحولهم وقوتهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ماذا ينتظر هؤلاء المشركون المعرضون عن طاعة الله ﷻ حتى يؤمنوا؟!! فقد جاءتهم الحجج الواضحات والدلالات البينات على وحدانية الله ﷻ وقدرته، وصدق رسله فماذا يريدون بعد ذلك إنهم بامتناعهم عن الإيمان لا ينبغي أن ينتظروا إلا مجيء الملائكة بالعذاب، أو مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، أو أمر الله ﷻ بقيام الساعة فعند ذلك يؤمنوا، ولكن هيهات هيهات أن ينفعهم هذا الإيمان.

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أي: كالتكذيب والكفر الذي سلكه هؤلاء المشركون فكذلك فعلت الأمم المكذبة من قبلهم رفضوا الإيمان،

وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا حتى أتاهم عذاب الله وأتتهم الملائكة لقبض أرواحهم، ولكن كما قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ ﴾ كما قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما بخسهم الله حقهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإنزالها أسوأ المنازل في الجحيم والعياذ بالله.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أي: فحلَّ بهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها، وحاق بهم، حلَّ بهم ونزل جزاء استهزائهم وكفرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك بحشرهم لموقف القيامة ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ يقول جلّ ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة الله لقبض أرواحهم، أو إتيان أمر الله فعل أسلافهم من الكفرة بالله، لأن ذلك في كلّ مشرك بالله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلال سُخْطه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به، حتى استحقوا عقابه، فعجَّل لهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال: بالموت، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وهو ملك الموت، وله رسل، قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ ﴾ ذاكم يوم القيامة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: فأصاب هؤلاء الذين فعلوا من الأمم الماضية فعل هؤلاء المشركين من قريش سيئات ما عملوا، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: وحلّ بهم من عذاب الله ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسلُ الله، ونزل ذلك بهم دون غيرهم من أهل الإيمان بالله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى متهددا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة.

﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ١٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

هذا راجع إلى الكفار، أي: ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم. وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي

وخلف «يـأتيهم الملائكـة» باليـاء. والبـاقون بالتـاء. و﴿يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بالعذاب من القتل كيوم بدر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة. والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب، فأضيف ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم جزاء الخبيث من أعمالهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ودار ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكِّروا فلم يتذكروا، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

(٩٧) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى
ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ
ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٣٦)
إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ
(٣٧) وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ
وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ
أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ
رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ
أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٤٣) بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ

(٩٨) أحمر
أسود

﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ
ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن
فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

[النحل: ٣٥-٥٠]

(٩٩) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ - حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ - عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ - لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۚ - جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ - لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ - يَتَوَكَّلُونَ - أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ - بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ - مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ - يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ - بِمُعۡجِزِينَ - يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ - دَآبَّةٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾	الشيطان - كل ما عُبد من دون الله ورضى بذلك.
﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾	تحققت فيه كلمة الله بأنه سيموت على الكفر والضلال.
﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾	نهاية المكذبين بوحدانية الله والمكذبين للرسل.
﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾	من أضله الله فلن يهتدي.
﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ﴾	مجتهدين في الإيمان - مغلِّظين للأيمان.
﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾	لنسكننهم سكنًا طيبًا في الدنيا - لنرزقنهم رزقًا حسنًا.
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون.
﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾	أهل الكتاب.
﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾	بالحجج والكتب.
﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	مكروا بالناس ليوقعوهم في السيئات التي أعظمها الشرك بالله.

(١٠٠) أحمر
أسود

﴿يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾	يأخذهم في أسفارهم وتنقلهم من بلدة إلى بلدة – يأخذهم أثناء نومهم وتقلبهم في الفراش.
﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾	بفائتين – بمغالبين الله – بمعجزي الله – يهلكهم وهم يرون الهلاك وأسبابه مقبلة عليهم
﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾	يتراجع الظل من اتجاه للاتجاه الآخر.
﴿دَآبَّةٖ﴾	كل ما يدب على الأرض.



(١٠١) أحمر
أسود

حقٌّ يريد به المشركون الباطل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وقال الذين عبدوا مع الله آلهة أُخرى وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا. قالوا: لو لم يرضى الله بعبادتنا لهذه الآلهة لمنعنا منها ومن عبادتها، وكذا لمنع آباءنا من عبادتها وكذا لو شاء ما حرّمنا شيئًا أحلَّه هو، فلو شاء لمنعنا من تحريم هذه الأشياء التي حرمناها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، ولأنزل بنا العقوبة والعذاب على ذلك، فكونه لم يُنزل علينا عقوبة ولا عذابًا علمنا بذلك أنه راضٍ عن عبادتنا آلهة أُخر معه، وعلمنا بذلك رضاه بالأشياء التي حرمناها.

فهكذا جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكجدالهم هذا جادل من كان قبلهم من أهل الكفر الذين سبقوهم فقل لهؤلاء الذين احتجوا بعدم إنزال العذاب عليهم، ليس علينا معشر الرسل إلا تبليغكم بلاغًا مبينًا واضحًا وظاهرًا أما إنزال العذاب عليكم أو تأجيله وتركه فذاك أمرٌ موكول إلى الله ﷻ ليس إلى أحدٍ من خلقه أما قولكم يا أهل الكفر إن الله راض بذلك الكفر منكم، فقد كذبكم الله في ذلك، وقد أعذر إليكم وأرسل إليكم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وقد قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ولقد بعث ربنا في كل أمة رسولًا يأمرهم بعبادة الله ﷻ وترك عبادة الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

فأقام الله الحجج وأرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب وضرب الله الأمثال

للناس، للدلالة على وحدانيته وأنه لا شريك له فقطع على الكافرين أعذارهم بذلك.

هذا، ومن العلماء من قال: إن هذا القول من أهل الكفر كان على سبيل الاستهزاء والسخرية.

هذا، وقد يحمل قول أهل الكفر: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ...﴾ على أن مرادهم بهذا المنع الكوني القدري، وليس المنع الشرعي الديني، بمعنى أنهم يقولون إن الله قدر علينا أن نعبد غيره فسنبقى على ما قدره الله علينا، ولو أراد منعنا لهدانا للإيمان:

وجواب ذلك من وجوه:

أحدها: من الذي أدراكم بالمقدر عليكم أو على غيركم!!

ثانيها: لماذا إذا تعاقبون من سرق أموالكم واعتدى على نسائكم وقتل منكم من قتل؟!! لماذا تعاقبون من يفعل ذلك بكم.

ولم لا تقولون إن السارق الذي سرق أموالنا قدَّر الله عليه أن يكون سارقًا، لماذا لم تتركوه إذن، ولماذا لم تتركوا القاتل الجاني وغير ذلك.

ثالثها: لماذا تتركون أوامر الله الشرعية الدينية الواضحة الظاهرة فتتركون أوامر الله وتقترفوا ما نهاكم عنه.

فسيكون قولهم حينئذٍ حقًّا يريدون به باطلًا، أو يكونوا قالوا ذلك ساخرين مستهزئين. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قول تعالى ذكره: وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام من دون الله: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضي عبادتنا هؤلاء، ولا نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب، إلا أن الله شاء منا ومن آبائنا تحريمناها ورضيه،

لولا ذلك لغير ذلك ببعض عقوباته أو بهدايته إيانا إلى غيره من الأفعال. يقول تعالى ذكره: كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم المشركة الذين استَن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال، وقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ يقول جلّ ثناؤه: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رسلنا الذين نرسلهم بإنذاركم عقوبتنا على كفركم، إلا البلاغ المبين: يقول: إلا أن تبلغكم ما أرسلنا إليكم من الرسالة. ويعني بقوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: الذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه من أرسل إليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانًا.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه. قال الله رادًّا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولًا أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولًا وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وانظر ما سيأتي في تفسير الآية التي تليها عن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا،

ولا حرموا شيئًا من الأنعام التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقًّا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله ﷻ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: مفاده أن الله ﷻ أعذر إلى الخلق وبعث في كل قرنٍ من القرون، أو جيل من الأجيال رسولًا يحذرهم ويأمرهم وينهاهم، يأمرهم بعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة الشياطين وعن عبادة أي شيء غير الله ﷻ، فالطاغوت الشيطان والطاغوت كل معبود سوى الله ﷻ فمن رضى بعبادة عابديه، فهكذا أرسلنا الرسل وأصل دعوتهم هو هذه: الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الطواغيت، وهذا الذي

تضمنته كلمة لا إله إلا الله، وهو الذي تضمنته الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكذا قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

أما قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: من الأمم السابقة فريق وفقه الله للإيمان وشرح صدره له فآمن وسلم، ومنهم من بقي على كفره وتحققت فيه كلمة الله التي قضاها عليه وهي أن الله حكم عليها بالشقاوة، بأن يكون شقيًّا من أهل النار كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أما قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سير المتدبر المتأمل المستدل المعتبر ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ الذين كذبوا الرسل، انظروا ماذا حلَّ بهم لقد انتقم الله منهم وجعلهم عبرة ونكالًا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد بعثنا أيها الناس في كلّ أمة سلفت قبلكم رسولًا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يقول: وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدْكم عن سبيل الله، فتضلوا، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يقول: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفَّقه لتصديق رسله، والقبول

منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرون حقَّت عليهم الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله وكذّبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدّقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حلّ بهم ما حلّ من بأسنا بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار الله فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

... وبعث في كل أمة رسولًا، أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولًا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ [الملك: ١٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوا الله ووحدوه. ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أي: اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال. ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: أرشده إلى دينه وعبادته. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي: بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرد على القدرية، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ وقد تقدم هذا في غير موضع. ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ أي: كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولًا بعبادة الله وحده،

واجتناب عبادة ما سواه. وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»، لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيرًا في القرآن عن طريق العموم والخصوص، فمن النصوص الدالة عليه مع عمومها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في أفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الأمم التي بعث فيها الرسل بالتوحيد منهم

(١٠٩) أحمر
أسود

سعيد، ومنهم شقي؛ فالسعيد منهم يهديه الله إلى اتباع ما جاءت به الرسل، والشقي منهم يسبق عليه الكتاب فيكذب الرسل، ويكفر بما جاؤوا به، فالدعوة إلى دين الحق عامة، والتوفيق للهدى خاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، فقوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾، أي: من الأمم المذكورة في قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾، وقوله: ﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾، أي: وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل.

ثم قال:

وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ...﴾، أي: وجبت عليه ولزمته، لما سبق في علم الله من أنه يصير إلى الشقاوة. والمراد بالضلالة: الذهاب عن طريق الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية: أن حرص النبي ﷺ على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علما وعملا ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغي. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذبًا إلا كان عاقبته الهلاك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن تحرص على هداية هؤلاء المشركين فلا ينبغي أن تذهب نفسك عليهم حسرات، واعلم أن من أضله الله ﷻ لن يهتدي وإن حرصت على هدايته، ﴿وَمَا لَهُم﴾، وما لهؤلاء المشركين من ناصرين ينصرونهم من دون الله.

والآية كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وكقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وكقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء

المشركين إلى الإيمان بالله واتباع الحق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء الكوفيين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ بفتح الياء من يهدي، وضمها من يضلّ، وقد اختلف في معنى ذلك قارِئوه كذلك، فكان بعض نحويي الكوفة يزعم أن معناه: فإن الله من أضله لا يهتدي، وقال: العرب تقول: قد هدى الرجل: يريدون قد اهتدى، وهدى واهتدى بمعنى واحد، وكان آخرون منهم يزعمون أن معناه: فإن الله لا يهدي من أضله، بمعنى: أن من أضله الله فإن الله لا يهديه. وقرأ ذلك عامَّة قرّاء المدينة والشام والبصرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ بضم الياء من يُهدى ومن يضل، وفتح الدال من يُهدَى بمعنى: من أضله الله فلا هادي له.

وهذه القراءة أولى القراءتين عندي بالصواب، لأن يهدي بمعنى يهتدي قليل في كلام العرب غير مستفيض، وأنه لا فائدة في قول قائل: من أضله الله فلا يهديه، لأن ذلك مما لا يجهله أحد، وإذ كان ذلك كذلك، فالقراءة بما كان مستفيضا في كلام العرب من اللغة بما فيه الفائدة العظيمة أولى وأحرى.

فتأويل الكلام لو كان الأمر على ما وصفنا: إن تحرص يا محمد على هداهم، فإن من أضله الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به لتتم عليه الحجة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ يقول: وما لهم من ناصر ينصرهم من الله إذا أراد عقوبتهم، فيحول بين الله وبين ما أراد من عقوبتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ

ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وأقسموا (أي: أهل الشرك) بالله مجتهدين في الأيمان مغلظين لها مكررين لها مؤكدين، أقسموا أن الله ﷻ لن يبعث من يموت، وهذا القسم غريب من أهل الكفر فكيف يقسمون معظمين الله ﷻ بقسمهم ومع ذلك ينفون قدرته على البعث؟؟!! فقل لهؤلاء بلى سيبعث الله الموتى، وعد الله بذلك، ووعده حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله ﷻ يتحقق.

أما قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: أن الساعة آتية وكائنة ليظهر الله ﷻ للناس وجه الحق في المسائل التي كانوا في دنياهم يختلفون فيها، فكانوا يختلفون في البعث ويظهر لهم وجه الحق فيه، وكانوا يتخلفون في الجنة والنار ويختلف في وعود الله التي وعد بها في الدنيا... كل ذلك كان بين الناس اختلاف فيه يظهره الله يوم القيامة، وكذا كل اختلاف كان في الدنيا يظهر

الله وجه الصواب ووجه الحق فيه يوم القيامة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إذا بعثهم الله وكانوا يكذبون بالبعث ليعلموا ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ في دعواهم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب.

ثم يبين الله ﷻ قدرته على البعث بقوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: أن أمرنا يتحقق بكلمة كن، لا يُعجزنا شيء، فيكون الأمر كما أردنا وكما أمرنا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وحلف هؤلاء المشركون من قريش بالله جَهْد أيمانِهِمْ حلفهم، لا يبعث الله من يموت بعد مماته، وكذبوا وأبطلوا في أيمانهم التي حلفوا بها كذلك، بل سيبعثه الله بعد مماته، وعدًا عليه أن يبعثهم وعد عباده، والله لا يخلف الميعاد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ يقول: ولكن أكثر قريش لا يعلمون وعد الله عباده، أنه باعثهم يوم القيامة بعد مماتهم أحياء.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ تكذيبًا بأمر الله أو بأمرنا، فإن الناس صاروا في البعث فريقين: مكذّب ومصدّق، ذُكر لنا أن رجلًا قال لابن عباس: إن ناسًا بهذا العراق يزعمون أن عليًّا مبعوث قبل يوم القيامة، ويتأوّلون هذه الآية، فقال ابن عباس: كذب أولئك، إنما هذه الآية للناس عامَّة، ولعمري لو كان عليّ مبعوثًا قبل يوم القيامة ما أنكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾.

يقول تعالى ذكره: بل ليبعثن الله من يموت وعدًا عليه حقًّا، ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أن الله لا يبعث من يموت، ولغيرهم الذين يختلفون فيه من

إحياء الله خلقه بعد فنائهم، وليعلم الذين جحدوا صحة ذلك، وأنكروا حقيقته أنهم كانوا كاذبين في قيلهم: لا يبعث الله من يموت.

ويقول تعالى ذكره: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائنا لهم، ولا في غير ذلك مما نخلق ونكوّن ونحدث، لأنا إذا أردنا خلقه وإنشاءه، فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه، ولا كُلفة علينا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبًا لهم ورداًّ عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾[النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطور: ١٤ -١٦].

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَآ

أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، أي: أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما ... يقول له: «كن»، قولة فيكون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات.

﴿بَلَىٰ﴾ هذا رد عليهم، أي بلى ليبعثنهم. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: (**يبعثهم**) يدل على الوعد، أي: وعد البعث وعدًا حقًّا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**». وقد تقدم، ويأتي.

وقال:

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: ليظهر لهم. ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من أمر البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالبعث وأقسموا عليه ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي

اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمدًا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبي طالب.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أي: إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما نحدثه، لأنا إنما نقول له كن فيكون.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: ﴿كُن﴾، فيكون بلا تأخير. وذلك أن الكفار لما ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء ﴿كُن﴾ كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله في الرد على من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: ﴿كُن﴾، بل إذا قال للشيء ﴿كُن﴾ مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، ونظيره قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾..﴾ الآية [آل عمران: ٥٩]، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأن تحقق وقوعه

كالوقوع بالفعل؛ فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء، وأنه يقول له كن فيكون كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه، أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمرًا في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦] ـ نظرًا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا، قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطبًا لجهنم، وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب، ولا شديد فإنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.



الوعد الحسن للمهاجرين في سبيل الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: وعدٌ من الله ﷻ لعباده المؤمنين الذين فارقوا ديارهم وأوطانهم إيثارًا لمرضاة الله ﷻ وطلبًا لجناته، وكذا فارق كثيرٌ منهم أهله وترك أولاده ابتغاء مرضاة الله ولإقامة دين الله بعد أن وقع عليهم الظلم من أقوامهم، وبعد أن أوذوا في سبيل الله، هؤلاء لنسكننهم منازل طيبة حسنة في الدنيا ولنوسعن عليهم في الأرزاق ولنفتحن لهم البلاد وغير ذلك من نعيم الدنيا، وكذا فإن الله ﷻ أعدَّ لهم في الآخرة ما هو أعظم من ذلك وأكبر من ذلك، أعدَّ لهم جنات النعيم وجنات الفردوس وهي بلا شك أفضل وأحسن وأجمل وأدوم من نعيم الدنيا ففيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أعد الله لهم ذلك لو كانوا يعلمون، قيل: لو كان أهل الإيمان يعلمون، وقيل: لو كان أهل الشرك يعلمون.

أما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فهذا وصف للمهاجرين الذين أُعدت لهم جنات النعيم، أنهم صبروا على مفارقة الأهل والديار والأوطان والأصحاب، وصبروا على أذى قومهم لهم، وثبتوا على طاعة ربهم وأحسنوا الاعتماد عليه، وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم عداوة لهم في الله على كفرهم إلى آخرين غيرهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يقول: من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات الله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول: لنسكننهم في الدنيا مسكنًا

يرضونه صالحًا.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصارًا من المؤمنين.

قال الطبري:

وقال آخرون: عنى بقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنرزقنهم في الدنيا رزقًا حسنًا.

وقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ يقول: ولثواب الله إياهم على هجرتهم فيه في الآخرة أكبر، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، وآتيناهم الثواب الذي ذكرناه، الذين صبروا في الله على ما نابهم في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يقول: وبالله يثقون في أمورهم، وإليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد

(١٢٠) أحمر
أسود

الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكامًا، وكل منهم للمتقين إمامًا، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال هشيم، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: صبروا على أقل من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستة أقوال:

الأول: نزول المدينة، قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة.

الثاني: الرزق الحسن، قاله مجاهد.

الثالث: النصر على عدوهم، قاله الضحاك.

الرابع: إنه لسان صدق، حكاه ابن جريج.

الخامس: ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات.

السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولأجر دار الآخرة أكبر، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ أي: لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك. قيل: هو راجع إلى المؤمنين. أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢]، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وما أرسلنا من قبلك ملائكة للناس يدعونهم إلى الله ﷻ، ما أرسلنا إلا رجالًا، أي: ما كانت الرسل إلا رجالًا، لم يكونوا ملائكة ولم يكونوا نساءً أرسلنا رسلًا رجالًا بالبينات، بالحجج الواضحات والدلالات الظاهرات، ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾ أي: والكتب التي أنزلناها عليهم وأوحينا إليهم ذلك الوحي، فاسألوا يا معشر قريش، واسألوا يا أهل الشرك، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، الرسل الذين أرسلهم الله فسيخبركم أهل الذكر أن الرسل كانوا بشرًا. أما أهل الذِّكر فمن هم؟ قيل: إنهم أهل الكتاب، وهذا قول أكثر العلماء، وقيل: إنهم العلماء المسلمون، وقيل: العلماء من آل بيت النبي ﷺ، والأظهر هنا، والله أعلم، ما عليه أكثر العلماء، وهو أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس: ٩٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: وأنزلنا عليك القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: لتبلغ الناس ما أنزله الله إليهم وتوضحه لهم، ولعلهم يتفكروا فيما أُنزل إليك فيتعظون ويعتبرون.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالًا من بني آدم نوحي إليهم وحينا لا ملائكة، يقول: فلم نرسل إلى قومك إلا مثل الذي كنا نرسل إلى من قَبلهم من الأمم من جنسهم وعلى منهاجهم ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يقول لمشركي قريش: وإن كنتم لا تعلمون أن الذين كنا نرسل إلى من قبلكم من الأمم رجال من بني آدم مثل محمد ﷺ وقلتم: هم ملائكة: أي ظننتم أن الله كلمهم قبلًا فاسألوا أهل الذكر، وهم الذين قد قرؤوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتب الله التي أنزلها على عباده.

وأورد بإسنادٍ ضعيف عن أبي جعفر: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال: نحن أهل الذكر.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال: الذكر: القرآن، وقرأ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]... الآية.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: أرسلنا بالبينات والزُّبُر رجالا نوحي إليهم.

... ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر. والبينات: هي الأدلة والحجج التي أعطاها الله رسله أدلة على نبوّتهم شاهدة لهم على حقيقة ما أتوا به إليهم من عند الله. والزُّبُر: هي الكتب، وهي جمع زَبُور، من زَبَرْت الكتاب وذَبَرته: إذا

كتبته. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يقول: وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيرا للناس وعظة لهم، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لتعرفهم ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ذلك ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به أي: بما أنزلنا إليك.

وذهب ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلى أن أهل الذكر هم أهل الكتاب، إذ أورد قول ابن عباس بذلك، وتعقب قول ابن زيد وكذا قول أبي جعفر الباقر، وهو من آل بيت النبوة بقوله: وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر: القرآن واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، صحيح، ولكن ليس هو المراد هاهنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر - ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر- صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت رسول الله - عليهم السلام والرحمة- من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبني علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر -وهو محمد بن علي بن الحسين-وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرا كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]. ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرا، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشرا أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي: بالدلالات والحجج، ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعني: القرآن، ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد ﴿ إِلَّا رِجَالًا ﴾ آدميين. ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء. ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال. وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.



س: الكلمة من كتاب الله كثيرًا ما تتعدد معانيها وضح ذلك من الآيتين السابقتين، وكذا من غيرها من الآيات؟

ج: إيضاحه أن الذكر في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ المراد به التوراة والإنجيل. والذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ المراد به القرآن.

هذا، وكثيرًا ما تتعدد معاني الكلمة الواحدة. كالإنسان في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] فالمراد به آدم عليه السلام،

(١٢٧) أحمر
أسود

والإنسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] المراد به بنو آدم. وككلمة الأمة، تتعدد معانيها كما بيناه من قبل. وكلمة الكتاب وغير ذلك، والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أفأمن الذين يمكرون بأهل الإيمان ويحتالون بهم لإيقاعهم في السيئات التي أعظمها الشرك بالله ﷻ، أفأمن هؤلاء الذين يسعون لإضلال العباد، كما قال أهل الشرك يوم القيامة لسادتهم وكبراءهم ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

أفأمن أهل الشرك المكرة الذين يكيدون كيدهم، أفأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض من تحتهم أو يأتيهم العذاب من فوقهم أو من أي مكان من حيث لا يتوقعون ولا يترقبون، أفأمنوا أن يأتيهم العذاب ليلًا وهم نائمون أو نهارًا وهم يلعبون؟!!

أفأمنوا أن يأخذهم الله ﷻ وهم في أسفارهم يتقلبون من بلدة إلى بلدة أو على فرشهم يتقلبون من جانب إلى جانب، أو في أعمالهم وهم يتنقلون من عمل إلى عمل، فالله قادر على هذا، وما هم بفائتين من عذاب إن أرادهم بعذاب ولن يعجز ربي إذا أرادهم بسوء فهو عليهم قادر أفامنوا هذا الذي ذُكر.

أو أمنوا أن يأخذهم الله ﷻ على تخوفٍ، أي: وهم خائفون من نزول العذاب عليهم وحلوله بهم لرؤيتهم أسبابه، وذلك كأن يكون العذاب حلَّ على قرى مجاورة لقراهم، بأماكن قريبةً منهم، أو بأشخاص قريبين منهم

والعذاب في طريقه إليهم، فالله قادر على هذا أيضًا، قادر على أن يهلكهم بعذاب يتوقعونه ويترقبونه.

ولكن ربي رؤوف بالعباد رحيم بهم إذ أمهلهم وأرسل إليهم رسلًا وأخَّر عنهم العذاب كي يتوبوا ويرجعوا إلى الله ﷻ.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: أفأمن الذين ظلموا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، فراموا أن يفتنوهم عن دينهم من مشركي قريش الذين قالوا: إذ قيل لهم: ماذا أنزل ربكم: أساطير الأوّلين، صدّا منهم لمن أراد الإيمان بالله عن قصد السبيل، أن يخسف الله بهم الأرض على كفرهم وشركهم، أو يأتيهم عذاب الله من مكان لا يشعر به، ولا يدري من أين يأتيه، وكان مجاهد يقول: عنى بذلك نمرود بن كنعان.

قال الطبري:

وإنما اخترنا القول الذي قلناه في تأويل ذلك، لأن ذلك تهديد من الله أهل الشرك به، وهو عقيب قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ فكان تهديد من لم يقرّ بحجة الله الذي جرى الكلام بخطابه قبل ذلك أحرى من الخبر عمن انقطع ذكره عنه.

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أو يهلكهم في تصرّفهم في البلاد، وتردّدهم في أسفارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾ يقول جلّ ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إن أراد أخذهم كذلك.

وأما قوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ فإنه يعني: أو يهلكهم بتخوّف، وذلك بنقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال

منه: تخوّف مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ يقول: فإن ربكم إن لم يأخذ هؤلاء الذين مكروا السيئات بعذاب معجَّل لهم، وأخذهم بموت وتنقص بعضهم في أثر بعض، لرءوف بخلقه، رحيم بهم، ومن رأفته ورحمته بهم لم يخسف بهم الأرض، ولم يعجِّل لهم العذاب، ولكن يخوّفهم وينقّصهم بموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن حلمه وإمهاله وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية.

قال قتادة والسدي: ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين الله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم. فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.



(١٣١) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أولم ير هؤلاء الذين يمكرون بالعباد لإيقاعهم في السيئات، في الشرك والكفر والكبائر، أولم يروا إلى الأشياء التي خلقها الله ﷻ ولها ظلٌّ يتراجع أحيانًا يكون عن اليمين وأحيانًا يكون عن الشمال، فهو في أول النهار، أعني الظل في أول النهار طويل، ويتقلص تدريجيًّا إلى أن يثبت وقت الزوال ثم يتراجع ويطول بعد أن كان في قصر، والظلال في هذا تسجد لله ﷻ، وقيل: الأشياء تسجد لله ومن ثَمَّ فظلالها أيضًا تسجد. وقد قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦]. قال البعض في تفسير النجم أنه الحشيش أو النباتات التي ليس لها ساق، أما الشجر فالذي له ساق.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وهم أذلة صاغرون خاضعون.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ أي: أن كل من في السموات، الملائكة وغيرهم، وكل دابة تدب على الأرض، كل ذلك يسجد لله ﷻ إما طوعًا أي: عن طواعية ورضا، وإما كرهًا فيجري فيهم قضاء الله الذي قضاه عليهم دون أدنى امتناع منهم، بل قدر الله فيهم نافذ.

أما قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: وتسجد الملائكة لله ﷻ كذلك، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فقيل: عائد على الملائكة كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾. [الأنبياء: ١٩]

أما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: الدواب والملائكة كل يخاف

ربَّه ﷻ ويرهبه ويخشاه، وقوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ تحمل عدة معاني أنه فوقيته المكان، وفوقية القهر والغلبة، وكل صحيح والله أعلم.

أما قوله جل ذكره: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ويمتثلون أمر الله ﷻ، وهم الملائكة عليهم السلام وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذن: أو لم ير هؤلاء الذين مكروا السيئات، إلى ما خلق الله من جسم قائم، شجر أو جبل أو غير ذلك، يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل، يقول: يرجع من موضع إلى موضع، فهو في أوّل النهار على حال، ثم يتقلّص، ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ أما اليمين: فأوّل النهار، وأما الشمال: فآخر النهار.

واختلف في معنى قوله: ﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ فقال بعضهم: ظلّ كلّ شيء سجوده.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ كلا عن اليمين والشمائل في حال سجودها، قالوا: وسجود الأشياء غير ظلالها.

وقال آخرون: بل الذي وصف الله بالسجود في هذه الآية ظلال الأشياء، فإنما يسجد ظلالها دون التي لها الظلال.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيَلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية، كما قال ابن عباس يقال من ذلك: سجدت النخلة إذا مالت، وسجد البعير وأسجد: إذا أميل للركوب. وقد بيَّنا معنى السجود في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ يعني: وهم صاغرون، يقال منه: دخر فلان لله يدخر

دخرًا ودخورًا: إذا ذلّ له وخضع ومنه قول ذي الرُّمَّة:

فَلَمْ يَبْقَ إلا داخِرٌ فِي مُخَيَّسٍ ومُنْجَحِرٌ فِي غيرِ أرْضِكَ فِي جُحْرِ

وأما توحيد اليمين في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ فجمعها، فإن ذلك إنما جاء كذلك، لأن معنى الكلام: أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلال ما خلق من شيء عن يمينه: أي ما خلق، وشمائله، فلفظ «ما» لفظ واحد، ومعناه معنى الجمع، فقال: عن اليمين بمعنى: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معناه في الشمائل، وكان بعض أهل العربية يقول: إنما تفعل العرب ذلك، لأن أكثر الكلام مواجهة الواحد الواحد، فيقال للرجل: خذ عن يمينك، قال: فكأنه إذا وحد ذهب إلى واحد من القوم، وإذا جمع فهو الذي لا مساءلة فيه، واستشهد لفعل العرب ذلك بقول الشاعر:

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إنْ كان هَدَّنِي رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدِرٍ في الضَّراغمِ

فقال: بِفِي الشامتين، ولم يقل: بأفواه، وقول الآخر:

الوَارِدُونَ وتَيْمٌ في ذَرَا سَبإٍ قد عَضَّ أعْناقَهُمْ جِلْدُ الجَوَامِيسِ

ولم يقل: جلود.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابَّة يدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ٢٢]، وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة، ربهم من فوقهم، أن يعذّبهم إن عَصَوا أمره،ويفعلون ما يؤمرون، يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به، فيؤدّون حقوقه، ويجتنبون سُخْطه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عَزَّ وَجَلَّ وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: صاغرون.

وقال مجاهد أيضا: سجود كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله،

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ وعن ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعًا واختيارًا، وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات. يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية.



س: هل عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾ سجود؟

ج: نعم عندها سجدة، وقد نقل الإجماع على ذلك الطحاوي وغيره[1].

وفي الصحيح[2] أن عمر رضي الله عنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل،

---

(١) شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

(٢) البخاري (١٠٧٧).

(١٣٦) أحمر
أسود

حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة، قال: يا أيها الناس إنا نمرُّ بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه، ولم يسجد عمر رضي الله عنه.



س: لماذا أفردت اليمين وجمعت الشمائل في قوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم:

إن اليمين أفرد تعظيمًا له والشمائل جمعت لنقصها.

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ...﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقال آخرون من أهل العلم: إن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين، أن عن اليمين عائدة على الشيء، أي عن يمين الشيء، أما قوله: ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ فعائد على قوله: ﴿مَا خَلَقَ﴾ أي: عن شمائل عموم الخلق. والله أعلم.



س: كيف قيل: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾ وهنالك كفار لا يسجدون لله عز وجل؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بالسجود هنا سجود القهر والغلبة فينفذ في الخلائق كلهم قدر الله.

الثاني: أن الآية عامة، واستثنى منها كفرة بني آدم.

الثالث: أنهم وإن لم يسجدوا فظلالهم تسجد لله عز وجل والله أعلم.

(١٣٧) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ
فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا
فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا
بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ
يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ ﴾

[النحل: ٥١-٦٤]

(١٣٨) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:
﴿إِلَٰهَيْنِ - فَٱرْهَبُونِ - ٱلدِّينُ - وَاصِبًا - تَجْـَٔرُونَ - لِمَا لَا يَعْلَمُونَ - تَٱللَّهِ - تَفْتَرُونَ - وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ - سُبْحَٰنَهُۥ - كَظِيمٌ - يَتَوَٰرَىٰ - هُونٍ - يَدُسُّهُۥ - مَثَلُ ٱلسَّوْءِ - ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ - وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ - ٱلْكَذِبَ - مُّفْرَطُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿إِلَٰهَيْنِ﴾	معبودين.
﴿فَٱرْهَبُونِ﴾	فخافون واخشونِ.
﴿ٱلدِّينُ﴾	الطاعة والإخلاص.
﴿وَاصِبًا﴾	قائمًا واجبًا.
﴿تَجْـَٔرُونَ﴾	تصرفون - ترفعون الصوت بالدعاء.
﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾	للأصنام التي لا يعلمون منها نفعًا.
﴿تَٱللَّهِ﴾	والله، قسمٌ بالله.
﴿تَفْتَرُونَ﴾	تختلقون الكذب.
﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾	ينسبون لله.
﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾	تنزَّه.
﴿كَظِيمٌ﴾	ممتلئ غمًّا وهمًّا.
﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾	يختفي.
﴿هُونٍ﴾	إذلال - إهانة - هوان.

(١٣٩) أحمر
أسود

﴿يَدُسُّهُۥ﴾	يدفنه – يخفيه.
﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾	المثل السيئ.
﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾	أفضل الأمثال وأعلاها، وهو أنه واحدٌ لا شريك له.
﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾	يفترون الكذب بألسنتهم.
﴿مُّفۡرَطُونَ﴾	منسيون متروكون في العذاب سابقون إلى العذاب.



(١٤٠) أحمر
أسود

النهي عن اتخاذ إلهٍ مع الله ﷻ وبيان عظيم قدرته ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وقال الله ﷻ لا تتخذوا أيها الناس اثنين فتجعلوهما معبودين تعبدونهما، إنما المعبود إلهٌ واحد هو الذي يُعبد هو الذي يُدعى ويرجى ويخشى ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ يقول تعالى: فلا تخافوا إلا مني ولا تخشوا إلا بأسي وسطوتي وسلطاني.

والله ﷻ المعبود وحده هو الذي له ما في السموات والأرض، فكل ذلك ملك له ﷻ، وله الدين دائمًا أبدًا، فملكه لا يزول ولا ينتهي وسلطانه لا يضعف ولا يوهن، فليس كملك من ملوك الدنيا الذي ينتهي حكمهم وينتهي ملكهم ويعزل أو يضعف كلا بل العبادة الدائمة لله والخضوع المستمر الدائم لله والطاعة كلها لله، والرجاء كله في الله ﷻ والإخلاص له في الوجه والعمل، كل ذلك لله ﷻ، كل ذلك واجب على المسلم لربِّه ﷻ وبصفة دائمة، فمن ذا الذي تخشونه وتحذرونه غير الله؟ ومن ذا الذي يُرجى ويخشى غير الله.

ثم إن كل النعم التي بكم من الله ﷻ ثم إذا أصابكم الضر في أبدانكم أو في أموالكم أو في أهاليكم فإليه تصرخون وترفعون الصوت بالدعاء والالتجاء، ثم إنه سبحانه إذا كشف الضرَّ عنكم إذا فريق منكم يشركون بالله ﷻ كأنهم لم يصابوا بضرٍّ من قبل، فيجحدون نعمة الله ﷻ بكفرهم، يجحدون إنجاء الله لهم ورزقه لهم ومعافاته لهم، فقل لهؤلاء تمتعوا فسوف تعلمون عاقبة أمركم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكا، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولله ملك ما في السموات والأرض من شيء، لا شريك له في شيء من ذلك، هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وله الطاعة والإخلاص دائما ثابتا واجبا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وتأويل الكلام: ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناس من عافية وصحة وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره، لأن ذلك إليه وبيده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَم ومرض، وعلة عارضة، وشدّة من عيش ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يقول: فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم، وأصله: من جؤار الثور، يقال منه: جأر الثور يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره، ومنه قول الأعشى:

وَمَا أَيْبُلِيٌّ عَلَى هَيْكَلٍ ... بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وصَارَا

يُـــرَاوِحُ مِـــنْ صَـــلَوَاتِ المَلِيــــ ـــكِ طَـوْرًا سُـجُودًا وَطَـوْرًا جُـؤَارًا

يعني بالجؤار: الصياح، إما بالدعاء، وإما بالقراءة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضرِّ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ﴾ يقول: ليجحدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشف الضرّ عنهم ﴿فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا من الله وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم جلّ ثناؤه: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي دائما.

وعن ابن عباس أيضا: واجبا. وقال مجاهد: خالصا. أي: له العبادة وحده ممن في السماوات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس

وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا به شيئا، وأخلصوا له الطلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه وإحسانه إليه.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قائلًا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلًا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: عاقبة ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء. أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي. وقيل لام العاقبة. وقيل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليجعلوا النعمة سببا للكفر، وكل هذا فعل خبيث، كما قال:

والكفر مخبثة لنفس المنعم

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد. وقرأ عبد الله: (قل تمتعوا). ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: عاقبة أمركم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾، نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهًا آخر معه، وأخبرهم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد، ثم أمرهم أن يرهبوه، أي: يخافوه وحده؛ لأنه هو الذي بيده الضر والنفع، لا نافع ولا ضار سواه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ ﴾ [ق: ٢٦]، وقوله: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۝٢٢ ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ۝٣٩ ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وبين جل وعلا في مواضع أُخر: استحالة تعدد الآلهة عقلًا؛ كقوله: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٩٢ ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]، وقوله: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ ﴾ [الإسراء: ٤٢]، والآيات بعبادته وحده كثيرة جدًّا، فلا نطيل بها الكلام.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ ﴾، الدين هنا: الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه دينًا؛ كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب

جميع النواهي. ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأيامًا لنا غرًّا كراما عصينا الملك فيها أن ندينا

أي: عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي: نطيعه. وقوله ﴿وَاصِبًا﴾، أي: دائمًا؛ أي له جلَّ وعلا: الطاعة والذل والخضوع دائمًا؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعًا له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطمعون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرًا.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه جل وعلا في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ٣]؛ لأنها ترفع أقوامًا كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقوامًا كانوا ملوكًا في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦].

ونظير هذه الآية المذكورة قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: ٨-٩]، أي: دائم. وقيل: عذاب موجع ومؤلم، والعرب تطلق الوصب على المرض، وتطلق الوصوب على الدوام.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: تجعلون له شريكا في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة متفرد بالأفعال كلها. فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحّدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾

(١٤٦) أحمر
أسود

أي: خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، والله المنفرد بالعطاء والإحسان ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لا أحد يشركه فيها، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ أي: تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة، ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ في دنياكم قليلا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفركم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ويجعل أهل الشرك هؤلاء للأصنام التي لا يعلمون منه نفعًا ولا ضرًّا، التي لم يُحصِّلوا من ورائها نفعًا، ولا يرون أنها دفعت عنهم ضرًّا نصيبًا مما رزقناهم من الحرث والأنعام، وذلك أن أهل الشرك كانوا إذا أثمرت حقولهم وأنتجت بهائمهم جعلوا من ذلك جزءًا لأنفسهم وجزءًا لأصنامهم، وجعلوا من البهائم كذلك أصنافًا مخصوصة لآلهتهم وأوثانهم، أطلقوا عليها أسماء كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام،

على ما تقدم بيانه في سورة الأنعام والمائدة، فيقسم الله ﷻ بنفسه بقوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾ فالتاء تاء القسم ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾ عن الافتراءات التي افتريتموها في دينكم وعن التحليل والتحريم الذي كان منكم دون رجوعكم إلى الله ﷻ.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون من عَبَدة الأوثان، لما لا يعلمون منه ضرًّا ولا نفعًا نصيبًا. يقول: حظًّا وجزاء مما رزقناهم من الأموال، إشراكا منهم له الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرّهم دون غيره.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ وهم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيبا مما رزقناهم، وجزءا من أموالهم يجعلونه لأوثانهم.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ قال: جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء، جعلوا لها نصيبا مما قال الله من الحرث والأنعام، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها.

قال الطبري:

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾ يقول تعالى ذكره: والله أيها المشركون الجاعلون الآلهة والأنداد نصيبا فيما رزقناكم شركا بالله وكفرا، ليسألنكم الله يوم القيامة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطل والإفك على الله بدعواكم له شريكا، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيبا، ثم ليعاقبنكم عقوبة تكون جزاء لكفرانكم نعمه وافترائكم عليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام

والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيبا مع الله وفضلوهم أيضا على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة جعلوا الله منها جزءًا، وللوثن جزءًا؛ فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني والصنم فقير. وقد أقسم جل وعلا على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيبًا مما خلق الله للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وهو سؤال توبيخ وتقريع.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر -نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ﴾ الآية، وقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وقال: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

ومن جهالات المشركين

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: زعموا – كذبًا وزورًا – أن الملائكة إناثٌ، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ [الزخرف: ١٩]، ونسبوها لله ﷻ فقالوا الملائكة: بنات الله، تعالى الله عن قولهم عُلُوًّا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٣، ١٥٤]، فقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أي: أهل الشرك ﴿لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ﴾ تنزَّه ربنا ﷻ عن قولهم، ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يختارون لأنفسهم ما يريدونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

ثم بيَّن الله ﷻ حال أهل الكفر هؤلاء عندما يُخبر أحدهم أن امرأته ولدت بنتًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ إذا أُخبر بذلك ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أصبح وجهه وقد علاه النكد والهم، أصبح كأنه أسود، والعرب يقولون هذا لمن أصيب بشيء أحرجه أو آذاه أو أحزنه حُزنًا شديدًا يقولون اسوَدَّ وجهه.

أما قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ممتلئ همًّا وغمًّا وحُزنًا ﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ يختفي ويستتر ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ أي: من الخبر السيئ الذي أُخبر به، فيقف مُحتارًا أيترك هذا المولود، التي هي البنت، أيتركها حية ويربيها مع ما في ذلك من الذل والعار والهوان، وكذا مع ما في ذلك من ظلمها وأذاها، أم يدسه في التراب؟ أي: يئدها وهي حية، ألا فما أسوأ هذا الحكم الذي حكموا به وهذا القضاء الذي قضوا به.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: أن الذين يكفرون بالبعث لهم أسوأ الأمثال فهم الجهلة والأغبياء والحمقى بشركهم بالله ﷻ وبكفرهم بالله ﷻ.

أما رب العزة سبحانه وتعالى فله صفات الكمال كلها وله المثل الأعلى في كل شيء فهو الواحد لا شريك له ولا ندَّ له ولا صاحبة له ولا ولد له، وهو الذي انتهت إليه السيادة في كل شيء، فهو العالم ليس فوقه عالم، هو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء، وهو الكبير ليس أحدٌ أكبر منه وهو العزيز ليس هناك من هو أعزُّ منه... ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يمتنع منه شيءٌ يريده ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فيما يشرع ويقضي وفي كل شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن جهل هؤلاء المشركين وخبث فعلهم، وقبح فِرْيتهم على ربهم، أنهم يجعلون لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم، فاستوجب بنعمه عليهم الشكر، واستحق عليهم الحمد: البنات، ولا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى سبحانه، نزه جلّ جلاله بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه من البنات، فلم يرضوا بجهلهم إذ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه، ولا ينبغي أن يكون له من الولد أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها إذا كانت لهم، وفي «ما» التي في قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وجهان من العربية: النصب عطفا لها على البنات، فيكون معنى الكلام إذا أريد ذلك: ويجعلون لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون، فتكون «ما» للبنين، والرفع على أن الكلام مبتدأ من قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فيكون معنى الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم البنون.

وقوله ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ يقول: وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة ما يضيفه إليه من ذلك له، ظلّ وجهه مسودًا من كراهته له ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ يقول قد كَظَمَ الحزنَ، وامتلأ غما بولادته له، فهو لا يظهر ذلك.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وهذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله تعالى ذكره بخبث صنيعهم فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما يدري أنه خير، لرُبّ جارية خير لأهلها من غلام. وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه، وكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: يتوارى هذا المبشر بولادة الأنثى من الولد له من القوم، فيغيب عن أبصارهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ يعني: من مساءته إياه مميلا بين أن يمسكه على هون: أي على هوان، وكذلك ذلك في لغة قريش فيما ذكر لي، يقولون للهوان: الهون؛ ومنه قول الحطيئة:

فلمَّا خَشِيتُ الهُونَ والعَيْرُ مُمْسِكٌ   على رَغْمِهِ ما أثبتَ الحبلَ حافِرُه

وبعض بني تميم جعل الهون مصدرا للشيء الهين، ذكر الكسائي أنه سمعهم يقولون: إن كنت لقليل هون المؤنة منذ اليوم قال: وسمعت: الهوان في مثل هذا المعنى، سمعت منهم قائلا يقول لبعير له: ما به بأس غير هوانه، يعني خفيف الثمن، فإذا قالوا: هو يمشي على هونه، لم يقولوه إلا بفتح الهاء، كما قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ﴾ يقول: يدفنه حيا في التراب فيئده.

(١٥٢) أحمر
أسود

وقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ يقول: ألا ساء الحكم الذي يحكم هؤلاء المشركون، وذلك أن جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لما لا ينفعهم ولا يضرهم شركا فيما رزقهم الله، وعبدوا غير من خلقهم وأنعم عليهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠﴾.

وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه أن قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾، والآية التي بعدها مثل ضربه الله لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أنه مثل، وعنى بقوله جلّ ثناؤه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للذين لا يصدّقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠﴾ الإخلاص والتوحيد.

وفي رواية عن قتادة: لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦٠﴾ يقول تعالى ذكره: والله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خَلَل، ولا خطأ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا،

وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدًا، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وقال هاهنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فإنه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيبا من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يئدها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفة السوء من الجهل والكفر. وقيل: هو وصفهم الله تعالى

بالصاحبة والولد. وقيل: أي: العذاب والنار. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي: الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد، قاله قتادة. وقيل: أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز. وقال ابن عباس: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ النار، و﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ كقوله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]. فإن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ فالجواب أن قوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ أي: الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص، أي: لا تضربوا لله مثلًا يقتضي نقصًا وتشبيهًا بالخلق. والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾.

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾، أي: يعتقدون. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعتقدون أن لله بنات إناثًا، وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله؛ كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ الآية [الزخرف: ١٩]، فزعموا لله الأولاد! ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى، فالإناث التي جعلوها لله يكرهونها لأنفسهم ويأنفون منها. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾، أي: لأن شدة الحزن والكآبة تسود لون الوجه. ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾، أي: ممتلئ حزنًا وهو ساكت. وقيل: ممتلئ غيظًا على امرأته التي ولدت له الأنثى. ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ ﴾، أي: يختفي من أصحابه من أجل سوء ما بشر به لئلا يروا ما هو فيه من الحزن والكآبة، أو لئلا يشمتوا به ويعيروه. ويحدث نفسه وينظر: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾، أي: ما بشر به وهو الأنثى، ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾، أي: هوان وذل، ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ﴾، في التراب: أي يدفن المذكور الذي هو الأنثى حيًّا في التراب، يعني ما كانوا يفعلون بالبنات من الوأد وهو دفن البنت حية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ [التكوير: ٨-٩]. وأوضح جل وعلا هذه المعاني المذكورة في هذه الآيات في مواضع أخر، فبين أن جعلهم الإناث لله، أو الذكور لأنفسهم قسمة غير عادلة، وأنها من أعظم الباطل.

وبين أنه لو كان متخذًا ولدًا سبحانه وتعالى عن ذلك! لاصطفى أحسن النصيبين، ووبخهم على أن جعلوا له أخس الولدين، وبين كذبهم في ذلك، وشدة عظم ما نسبوه إليه. كل هذا ذكره في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤]، وقوله: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ [الزخرف: ١٦]، وقوله: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزمر: ٤]، وقوله: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩﴾ [الطور: ٣٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ﴾، وقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ [الزخرف: ١٨]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ [الزخرف: ١٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين إنهم

بنات الله ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ أي: لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة فكان ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف إذا بشِّر بأنثى وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يدفنها وهي حية وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها فكيف ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم.

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه من الوجوه وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.



رحمة الله بالعباد

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولو يؤاخذ الله ﷻ الناس بما يصدر منهم من الشرك والكبائر والمعاصي والضلالات لأهلك كل الدواب التي على الأرض، ولكن جرت حكمته أن يؤخرهم إلى انقضاء آجالهم التي حدَّدها وسمَّاها ﷻ فإذا جاء وقت انقضاء آجالهم قبضهم إليه فلا يتأخرون عن وقتهم ولا يتقدمون عنه.

هذا، وقد يطرح هاهنا سؤال حاصله: أليس في العباد طيبون وفضلاء وأهل صلاح فضلًا عن الأنبياء والمرسلين؟!!

فجواب ذلك: بلى فيهم هؤلاء، ولكن ذنوب الأكثرين تغطي على أعمال الصالحين، بل وتؤثر أيضًا على الدواب، وقد سئل النبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ﴾ عصاة بني آدم بمعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ يعني على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ ﴾ تدب عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يقول: إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وُقِّت لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ عن الهلاك ﴿سَاعَةً ﴾ فيمهلون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ له حتى يستوفُوا آجالهم.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي الأحوص، قال: كاد الجُعْل أن يعذّب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾. ونحوه من وجهين

عن ابن مسعود قال: كاد الجُعل أن يهلك في جُحره بخطيئة ابن آدم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بني آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ أي: بكفرهم وافترائهم، وعاجلهم. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على الأرض، فهو كناية عن غير مذكور، لكن دل عليه قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض. والمعنى المراد من دابة كافرة فهو خاص. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء. وقيل: المراد بالآية العموم، أي: لو أخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة من نبي ولا غيره، وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان، في حجرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل، كما قال: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ﴾ أي: أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ وقد تقدم، فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقامًا وجزاء، وهلاك المؤمن معوضًا بثواب الآخرة.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ

(١) مسلم (٢٨٧٩).

يَقُولُ: « **إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ**».

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ وَسُئِلَتْ عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **يَعُوذُ بِالْبَيْتِ عَائِذٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: « **يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ**»[1].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

واعلم: أن قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، فيه وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه خاص بالكفار؛ لأن الذنب ذنبهم، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٦٤]، ومن قال هذا القول قال: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: كافرة؛ ويروى هذا عن ابن عباس. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وجمهور العلماء، منهم ابن مسعود، وأبو الأحوص، وأبو هريرة، وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره ـ على أن الآية عامة؛ حتّى إن ذنوب بني آدم لتهلك الجعل في حجره، والحبارى في وكرها، ونحو ذلك؛ لولا أن الله حليم لا يعجل بالعقوبة، ولا يؤاخذهم بظلمهم.

قال مقيده عفا الله عنه: وهذا القول هو الصحيح؛ لما تقرر في الأصول من: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة ﴿مِن﴾ تكون نصًّا صريحًا في العموم. وعليه فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصًّا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ من غير زيادة ولا نقص، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لأهلك

(١) مسلم (٢٨٨١) وله شواهد في الصحيحين وغيرهما أيضًا من طرق أُخر.

المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: أن أهل الشرك يجعلون البنات له سبحانه وتعالى، ويتقولون كذبًا أن الحسنى لهم، وقد اختلف العلماء في الحسنى فقال بعضهم: المراد الغلمان، أي: البنين الذكور.

وحجة أصحاب هذا القول قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩]. وقال آخرون – وأرى قولهم صائبًا-: إن المراد بالحسنى الجنة، وشاهد ذلك قول قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ...﴾ [فصلت: ٥٠].

أما قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ فمعناه حقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ منسيون فيها مُهملون متروكون.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ يقول: وتقول ألسنتهم الكذب وتفتريه، أن لهم الحسنى، فأن في موضع نصب، لأنها ترجمة عن الكذب. وتأويل الكلام: ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم، ويزعمون أن لهم الحسنى، الذي يكرهونه لأنفسهم. البنات يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أن الملائكة بنات الله. وأما الحُسنى التي جعلوها لأنفسهم: فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يئدون

الإناث من أولادهم، ويستبقون الذكور منهم، ويقولون: لنا الذكور ولله البنات، وهو نحو قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وأورد من وجهين يصحان بمجموعهما عن قتادة، قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: يتكلمون بأن لهم الحُسنى أي الغلمان.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: حقًّا واجبًا أن لهؤلاء القائلين لله البنات، الجاعلين له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم الحسنى عند الله يوم القيامة النار. وقوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وأنهم مُخَلَّفون متروكون في النار، منسيون فيها.

وأورد بسندٍ صحيح عن سعيد بن جبير في هذه الآية ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قال: منسيون مُضَيَّعون.

وفي رواية: متروكون في النار، منسيون فيها.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنهم مُعْجَلُونَ إلى النار مقدّمون إليها، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب: أفرطنا فلانا في طلب الماء، إذا قدّموه لإصلاح الدلاء والأرشية، وتسوية ما يحتاجون إليه عند ورودهم عليه فهو مُفْرَط. فأما المتقدّم نفسه فهو فارط، يقال: قد فَرَط فلان أصحابَه يَفْرُطهم فُرْطا وفُروطا: إذا تقدمهم وجمع فارط: فُرَّاط.

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قال: قد أفرطوا في النار أي مُعْجَلُون.

وقال آخرون: معنى ذلك: مُبْعَدون في النار.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي اخترناه، وذلك أن الإفراط الذي هو بمعنى التقديم، إنما يقال فيمن قدَم مقدَما لإصلاح ما يقدم إليه إلى

وقت ورود من قدمه عليه، وليس بمقدم من قدم إلى النار من أهلها لإصلاح شيء فيها لوارد يرد عليها فيها فيوافقه مصلحًا، وإنما تَقَدّم مَن قُدِّم إليها لعذاب يُعجَّل له. فإذا كان معنى ذلك الإفراط الذي هو تأويل التعجيل ففسد أن يكون له وجه في الصحة، صحّ المعنى الآخر، وهو الإفراط الذي بمعنى التخليف والترك. وذلك أنه يُحكى عن العرب: ما أَفْرطت ورائي أحدًا: أي ما خَلَّفته؛ وما فرطته: أي لم أخلفه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارا عن أحد الرجلين أنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]-فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون

السيئات وتجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب. وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الغلمان. وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد ولهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في تمنيهم ذلك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وأورد نحوًا مما تقدم في تفسير ﴿مُّفْرَطُونَ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أن المشركين ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم -وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟!! ﴿وَ﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

فرد عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ مقدمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدًا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحق الذي لا شك فيه: أن المراد بالحسنى: هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقًا فسيكون لهم فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا. ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان:

أحدهما: كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى؛ كقوله تعالى عن الكافر: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا

وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ...﴾ الآية [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل الثاني: أن الله أتبع قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ...﴾ الآية، فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا، والعلم عند الله.

والمصدر المنسبك من ﴿أَنَّ﴾ وصلتها في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، في محل نصب، بدل من قوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحًا لا خفاء فيه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: قسمٌ من الله ﷻ، يقسم جل جلاله بنفسه الكريمة أنه ﷻ أرسل رسلًا من قبلك يا رسول الله إلى أمم سبقت ومضت فحسَّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم يوم القيامة، أي: ناصرهم بزعمهم فبئس الولي وخاب الناصر، وهذا نوع استهزاء بأهل الكفر فإذا كان ناصركم لا يملك دفع الضر والعذاب عن نفسه فكيف يدفع عن غيره، بل أنتم وأولياؤكم لكم عذاب أليم. مؤلم موجعٌ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مقسما بنفسه ﷻ لنبيه محمد ﷺ: والله يا محمد لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلى أممها بمثل ما أرسلناك إلى أمتك من الدعاء إلى التوحيد لله، وإخلاص العبادة له، والإذعان له بالطاعة، وخلع الأنداد والآلهة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ يقول: فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة

الأوثان مقيمين، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وبئس الناصر ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرّتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضرّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلًا فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يَهِيدَنَّكَ تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصًا؛ ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بيَّن تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ رسلًا يدعونهم إلى التوحيد، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم اليوم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ في الآخرة حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وما أنزلنا عليك يا رسول الله الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو القرآن إلا لتبين وتوضح للناس المسائل التي يختلفون فيها من أمر البعث والمعاد والثواب والعقاب وأخبار الأمم الماضية وأخبار ما هو آت، وكذا ما أحل الله لهم وما حرَّم الله عليهم، إلى غير ذلك، وكذا أنزلناه هداية ودلالة لمن يريد أن يهتدي ورحمةً لقوم يؤمنون، يصدقون بوحدانية الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أنزلنا يا محمد عليك كتابنا وبعثناك رسولًا إلى خلقنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله، فتعرّفهم الصواب منه، والحقّ من الباطل، وتقيم عليهم بالصواب منه حجة الله الذي بعثك بها.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يقول: وهدى بيانا من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمة لقوم يؤمنون به، فيصدّقون بما فيه، ويقرّون بما تضمن من أمر الله ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين، لأن موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى لرسوله: أنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

﴿٦٥﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن، إلا لتبين للناس الحق، فيما كان موضع اختلافهم، من التوحيد، والقدر، وأحكام الأفعال، وأحوال المعاد، وليكون هداية تامة، ورحمة عامة، لقوم يؤمنون بالله، وبالكتاب الذي أنزله.



(١٦٨) أحمر
أسود

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ
يَسۡمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ
لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ (٦٧) وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ
ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ
لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن
يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَٱللَّهُ فَضَّلَ
بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٧١) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ
أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ (٧٢) وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـًٔا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا
تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧٤)﴾

[النحل: ٦٥-٧٤]

(١٦٩) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لَعِبْرَةً - فَرْثٍ - خَالِصًا - سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ - سَكَرًا - وَرِزْقًا حَسَنًا - وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ - يَعْرِشُونَ - فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ - ذُلُلًا - أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ - بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ - فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ - يَجْحَدُونَ - وَحَفَدَةً - أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ - فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَعِبْرَةً﴾	لعظةً.
﴿فَرْثٍ﴾	زبلٍ وبول (وما تخرجه البهائم من دبرها وقُبلها).
﴿خَالِصًا﴾	صافيًا غير مشوبٍ (غير مختلط بالدم أو بالاحمرار أو بأي شيء آخر).
﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾	مستساغًا يستسيغه الشاربون ولا يقف في حلوقهم.
﴿سَكَرًا﴾	خَمرًا، وقيل: المشروبات ذات الطعم الحسن السكري، كالنبيذ (التمر المنقوع في الماء، أو الزبيب المنقوع في الماء).
﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾	رزقًا طيبًا (كالتمر والزبيب والعنب والرطب وغير ذلك).
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾	وألهم ربك النحل، وأرشدها وأمرها.
﴿يَعْرِشُونَ﴾	يسقفون البيوت، يعرشون للأعناب سقوفًا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾

(١٧٠) أحمر
أسود

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾	فامشي في الطرق التي ذلَّلها الله لك ويسرها الله لك، مذلَّلة لك مطيعة.
﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾	آخر العمر وأسوأه وأَخَسُّهُ وأردؤه.
﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾	بمُعطين أموالهم لعبيدهم حتى يساونهم.
﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾	فهم فيه متساوون.
﴿يَجۡحَدُونَ﴾	ينكرون - يكفرون.
﴿وَحَفَدَةٗ﴾	أولاد الأولاد - خدم.
﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾	الباطل الشيطان ومما يمليه من إملاءات وما يوحيه من إيحاءات.
﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾	فلا تشبهوا الله بخلقه - فلا تجعلوا له أمثالًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: تذكير بنعم الله ﷻ على العباد، والمعنى والله ﷻ معبودكم الحق الذي ينبغي ويجب أن يُفرد بالعبادة هو الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها فأخرجت ثمرتها وأنبتت غلتها، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله ﷻ ودلالة على قدرته على البعث لقوم يسمعون فيفقهون.

وكذا فلكم في الأنعام (والمراد هنا الناقة والبقرة والنعجة والعنز) لكم فيما يخرج من بطونها من اللبن الذي يسقيكم الله إياه لعظةً وعبرةً فهذا اللبن الذي يخرج صافيًا نقيًّا مستساغًا تشربونه لا يغصُّكم، أي: لا يقف في حلوقكم، بل هو مستساغ لشاربيه، هذا اللبن الذي يخرج من بين الدم والفرث، فلا يتأثر بدماء ولا تعلوه حمرة، وكذا لا يتأثر بالفرث الذي هو الزبل الذي يكون في الكرشى، فلا يتلوث به بل يخرج نقيًّا مستساغًا صافيًا لكم فيه دلالة على وحدانية الله ﷻ وعظةً تتعظون بها.

وكذا لكم عبرة في ثمرات النخيل (التي هي التمر والرطب والبلح وغير ذلك ولكم في الأعناب أيضًا عبرة).

ومن هذا وذاك تتخذون وتصنعون السكر والرزق الحسن، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله ﷻ وقدرته لقوم يعقلون عن الله آياته، لقوم يفهمون ويتعظون.

هذا، وقد اختلف العلماء وتعددت أقوالهم في تفسير السَّكر الذي امتن الله به على العباد، فقال الجمهور من العلماء إنه الخمر فهو الذي يُسكر قالوا،

وكان هذا قبل تحريم الخمر، قالوا: والرزق الحسن التمر والزبيب، وقالوا: إن هذا القدر من الآية الكريمة منسوخٌ بآيات تحريم الخمر.

وقال فريق آخر من أهل العلم: إن المراد بالسَّكر المشروبات الطيبة ذات الطعم الطيب كالعصائر ونحوها، وكالنبيذ الذي يُنتبذ ولا يصل إلى حد السكر، أعني كالتمر المنقوع في الماء والزبيب المنقوع في الماء، وعلى هذا فلا نسخ في الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره منبهَ خلقِه على حججه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه: أيها الناس معبودكم الذي له العبادة دون كلّ شيء، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: مطرًا، يقول: فأنبت بما أنزل من ذلك الماء من السماء الأرض الميتة التي لا زرع بها ولا عُشْبَ ولا نبت ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ بعد ما هي ميتة لا شيء فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إحيائنا الأرض بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماء لدليلًا واضحًا، وحجة قاطعة، عذر من فكر فيه ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾ يقول: لقوم يسمعون هذا القول فيتدبرونه ويعقلونه، ويطيعون الله بما دلهم عليه.

يقول تعالى ذكره: وإن لكم أيها الناس لعظة في الأنعام التي نُسقيكم مما في بطونه.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ يقول: نسقيكم لبنا، نخرجه لكم من بين فرث ودم خالصا: يقول: خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطا به ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ يقول: يسوغ لمن شربه فلا يَغَصّ به كما يَغَصّ الغاصّ ببعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغصّ أحد باللبن قَطُّ.

ويقول تعالى ذكره: ولكم أيضًا أيها الناس عِبرةٌ فيما نسقيكم من ثمرات

النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا، مع ما نسقيكم من بطون الأنعام من اللبن الخارج من بين الفرث والدم. وحذف من قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ الاسم، والمعنى ما وصفت، وهو: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه لدلالة «مِن» عليه، لأن «من» تدخل في الكلام مُبَعِّضة، فاستغنى بدلالتها ومعرفة السامعين بما يقتضي من ذكر الاسم معها. وكان بعض نحويِّي البصرة يقول في معنى الكلام: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه سكرًا، ويقول: إنما ذكرت الهاء في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾ لأنه أريد بها الشيء، وهو عندنا عائد على المتروك، وهو «ما». وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ من صفة «ما» المتروكة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾ فقال بعضهم: عني بالسَّكَر: الخمر، وبالرزق الحسن: التمر والزبيب، وقال: إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حُرّمت بعد.

وأورد الطبري من طرق عن الأسود بن قيس عن عمرو بن سفيان عن ابن عباس ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾ قال: الرزق الحسن ما أحل من ثمرتها، والسَّكر ما حُرِّم من ثمرتها.

وروى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه أيضًا.

وصح هذا عن سعيد بن جبير أيضًا، قال: السكر ما حُرِّم من ثمرتها، وفي رواية: السكر خَمرٌ[1]، والرزق الحسن الحلال.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾ أما السَّكَر: فخمور هذه الأعاجم، وأما الرزق الحسن: فما

(١) والمراد: أنهم كانوا يصنعون الخمر من العنب والتمر، وقد ورد عن بعض أهل العلم أن الآية الكريمة نزلت وهم يشربون الخمر، فكان هذا قبل ان ينزل تحريم الخمر.

تنتبذون، وما تُخَلِّلون، وما تأكلون، ونزلت هذه الآية ولم تحرّم الخمر يومئذ، وإنما جاء تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة.

وقال آخرون: السَّكَر بمنزلة الخمر في التحريم، وليس بخمر، وقالوا: هو نقيع التمر والزبيب إذا اشتدّ وصار يُسْكِر شاربه.

وقال آخرون: السَّكَر: هو كلّ ما كان حلالا شربه، كالنبيذ الحلال والخلّ والرطَب. والرزق الحسن: التمر والزبيب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية، وذلك أن السَّكَر في كلام العرب على أحد أوجه أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب. والثاني: ما طُعِم من الطعام، كما قال الشاعر:

جَعَلْتُ عَيْبَ الأكْرَمِينَ سَكَرَا

أي طعمًا. والثالث: السُّكُون، من قول الشاعر:

جَعَلْتُ عَيْنَ الحَرُورِ تَسْكُرُ

وقد بيَّنا ذلك فيما مضى. والرابع: المصدر من قولهم: سَكَر فلان يَسْكَر سُكْرا وسَكْرا وسَكَرا، فإذا كان ذلك كذلك، وكان ما يُسْكِر من الشراب حراما بما قد دللنا عليه في كتابنا المسمى: «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام» وكان غير جائز لنا أن نقول: هو منسوخ، إذ كان المنسوخ هو ما نفى حكمه الناسخ، وما لا يجوز اجتماع الحكم به وناسخه، ولم يكن في حكم الله تعالى ذكره بتحريم الخمر دليل على أن السَّكَر الذي هو غير الخمر، وغير ما يسكر من الشراب، حرام، إذ كان السكر أحد معانيه عند العرب، ومن نزل بلسانه القرآن هو كلّ ما طعم، ولم يكن مع ذلك، إذ لم يكن في نفس التنزيل دليل على أنه منسوخ، أو ورد بأنه منسوخ خبر من الرسول، ولا أجمعت عليه

الأمة، فوجب القول بما قلنا من أن معنى السَّكَر في هذا الموضع: هو كلّ ما حلّ شربه، مما يتخذ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه الخمر أو ما يسكر من الشراب، وخرج من أن يكون معناه السَّكَر نفسه، إذ كان السَّكَر ليس مما يتخذ من النَّخْل والكَرْم، ومن أن يكون بمعنى السكون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يقول: فيما إن وصفنا لكم من نعمنا التي آتيناكم أيها الناس من الأنعام والنخل والكرم، لدلالة واضحة وآية بينة لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه مواعظه، فيتعظون بها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وأفرد هاهنا الضمير عودًا على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أيً نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان.

وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أي: المال.

وقوله: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يغص به أحد.

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا، ثنى بذكر ما يتخذه

الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعًا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء -وهو الدبس -وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٤ -٣٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب. ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: دلالة على البعث وعلى وحدانيته، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا، فتكون هذه الدلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدم القول في الأنعام، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ [الحشر: ٢]. وقال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شي ومن أعظم العبر بريء يحمل مذنبًا.

وقال أيضًا بعد أن أورد قول ابن عباس في تفسير السَّكر، قال القرطبي:

وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسد، هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقًا أو قصدًا إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني.

قلت: فعلى أن السكر الخل أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. قال ابن عباس: الحبشة يسمون الخل السكر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر قول الجمهور في تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: خمرًا، قال:

وإذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور، وأن الله امتن على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها، فاعلم أن هذه الآية مكية، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحة الخمر.

الأولى: آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وبعد نزولها تركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها آخرون للمنافع التي فيها.

الثانية: آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ...﴾ الآية [النساء: ٤٣].

الثالثة: آية المائدة الدالة على تحريمها تحريمًا باتًا، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله ـ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها؛ لأنه تعالى صرح بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها أمرًا جازمًا في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، واجتناب الشيء: هو التباعد عنه، بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه. وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، ويفهم منه: أنه من لم يجتنبها لم يفلح، وهو كذلك.

ثم بين بعض مفاسدها بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ ﴾ [المائدة: ٩١]، ثم أكد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي «انتهوا»، وقد تقرر في فن المعاني: أن من معاني صيغة الاستفهام التي ترد لها الأمر؛ كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ...﴾ الآية [آل عمران: ٢٠]، أي: أسلموا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر الله تعالى في هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

أي: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين للذته ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصا سائغا للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجًا وحاضرًا ومدخرًا وطعاما وشرابًا يتخذ من عصيرها ونبيذها، ومن السكر الذي كان حلالًا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

ولهذا قال من قال: «إن المراد بالسكر هنا: الطعام والشراب اللذيذ»، وهو أولى من القول الأول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك.

س: إلى ماذا يعود الضمير في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾؟

ج: أورد القرطبي أقوالًا في الإجابة على هذا السؤال إذ قال:

اختلف الناس في الضمير من قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ على ماذا يعود. فقيل: هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ابن العربي: وما أراه عول عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير، وقال الزجاج، وقال الكسائي: معناه مما في بطون ما ذكرناه، فهو عائد على المذكور، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: ١١، ١٢] وقال الشاعر:

مثـــل الفـــراخ نتفـــت حواصـــله

ومثله كثير. وقال الكسائي: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي: مما في بطون بعضه، إذ الذكور لا ألبان لها، وهو الذي عول عليه أبو عبيدة. وقال الفراء: الأنعام والنعم واحد، والنعم يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نعم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي: إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظامًا. حسنًا. والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل يبرين وتيهاء فلسطين.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

وقد دلت الآيات المذكورة على أن الأنعام يصح تذكيرها وتأنيثها؛ لأنه ذكرها هنا في قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، وأنثها في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ومعلوم في العربية:

أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظرًا إلى اللفظ، والتأنيث نظرًا إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس. وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيثها كما ذكرناه آنفًا. وجاء فيه تذكير النخل وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠]، والتأنيث في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ونحو ذلك. وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [القيامة: ١٨]، والتأنيث في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ...﴾ الآية [الذاريات:٤٧]، ونحو ذلك من الآيات. وهذا معروف في العربية، ومن شواهده قول قيس بن الحصين الحارثي الأسدي وهو صغير في تذكير النعم:

في كل عام نعم تحوونه ... يلقحه قوم وتنتجونه



ذِكر النحل ونعمة الله وقدرته فيه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وألهم ربك ﷻ النحل وعلمها كيفية اتخاذ البيوت التي تسكنها وهي الخلايا، تتخذها في الجبال فتكون لنفسها خلايا في الجبال، وكذا على الأشجار، وكذا في سقوف البيوت، وسقوف حدائق العنب والحدائق التي لها عروش، أي: كالأعناب التي تكون لها عروش، ثم أوحى الله إليها أيضًا، علمها وأرشدها أن تأكل من الثمرات التي تحتاج إليها وتستسيغها، فاسلكي الطرق التي سخرها الله لك وذلَّلها الله لك وكذا مطيعةً لله ﷻ تبتغي رزق الله ﷻ فكلي من هذه الثمار ومُصِّي من رحيقها، يخرج الله بذلك من بطون هذه النحل شرابٌ، وهو العسل مختلفٌ ألوانه بحسب المطعومات التي تطعمها النحلة، وفي هذا العسل شفاء للناس، كما قد بينته أحاديث رسول الله ﷺ، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله وقدرته لقومٍ يتفكرون في مخلوقات الله ﷻ فيستدلون بها على وحدانيته وقدرته وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وألهم ربك يا محمد النحل إيحاء إليها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني: مما يبنون من السقوف، فرفعوها بالبناء.

ويقول تعالى ذكره: ثم كلي أيتها النحل من الثمرات، ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ يقول: فاسلكي طرق ربك ﴿ذُلُلًا ۚ﴾ يقول: مُذَلَّلة لك، والذُّلُل: جمع ذَلُول.

والتأويل على قوله: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ﴾ الذُّلُل لكِ: لا يتوعر عليكِ سبيل سلكتيه، ثم أسقطت الألف واللام فنصب على الحال.

وأورد قول قتادة بسندٍ حسن: عنه أي مطيعة.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: يخرج من بطون النحل شراب، وهو العسل، مختلف ألوانه، لأن فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان.

قال أبو جعفر: أسحر: ألوان مختلفة مثل أبيض يضرب إلى الحمرة.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه الهاء التي في قوله ﴿فِيهِ﴾، فقال بعضهم: عادت على القرآن، وهو المراد بها.

وقال آخرون: بل أريد بها العسل.

وأورد بسندٍ يصحح من طريقين عن قتادة، قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ففيه شفاء كما قال الله تعالى من الأدواء، وقد كان ينهى عن تفريق النحل، وعن قتلها.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إخراج الله من بطون هذه النحل: الشراب المختلف، الذي هو شفاء للناس، لدلالة وحجة واضحة على من سخَّر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكل، واتخاذها البيوت التي تنحت من الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج من الشفاء للناس، أنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك ولا تصحّ الألوهة إلا له.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريًّا تسخيريًّا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك

الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ هُوَ الْعَسَلُ - الحديثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[(١)] فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي استَطْلَق بطنُه. فَقَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلًا**». فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَمَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا! قَالَ: «**اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**». فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا! فقال رسول اللهِ ﷺ: «**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ! اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**». فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا فَبَرِئَ.

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب: الدواء بالعسل، وقول الله ﷻ: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾= = حديث (٥٦٨٤) (٩/ ١٣٩)، وطرفه في (٥٧١٦). ومسلم في كتاب السلام، باب: التداوي بسقي العسل، حديث (٩١/ ٢٢١٧) (١٤/ ٢٩٢-٢٩٣).

يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1]، مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[2]: مِنْ حَدِيثِ سَالِمٍ الْأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**».

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ[3]: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الغَسِيلِ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ، أَوْ يكونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ: فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**».

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل، حديث (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) البخاري (٥٦٨٠).

(٣) البخاري (٢٢٠٥)، ومسلم (٢٧٧).

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: طرق ربك. والسبل: الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أي ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول وهو المنقاد، أي مطيعة مسخرة. فـ﴿ذُلُلًا﴾ حال من النحل. أي تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها، لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا، قاله ابن زيد. وقيل: المراد بقوله: ﴿ذُلُلًا﴾ السبل. يقول: مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها واختاره الطبري. واليعسوب سيد النحل، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يعتبرون، ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها. فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية. ثم إنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلًا حلوًا وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية، المراد بالإيحاء هنا: الإلهام. والعرب تطلق الإيحاء على الإعلام بالشيء في خفية؛ ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام. ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، أي: ألهمها، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ الآية [مريم: ١١]، أي: أشار إليهم، وسمى أمره للأرض إيحاء في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٤، ٥]، ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته:

فمدافع الريان عري رسمها ... خلقًا كما ضمن الوحي سلامها

فـ «الوحي» في البيت - بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء - جمع وحي بمعنى الكتابة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله خلقكم ثم يقبض أرواحكم ومنكم من يؤخره الله عَزَّ وَجَلَّ إلى أن يبلغ عُمرًا طويلًا، إلى أن يبلغ أرذل العمر، وهو أردأ العمر وأضعفه وأخسُّهُ فيضعف عقله شيئًا بعد شيء حتى ينسى ما كان يذكر، وينكر ما كان يعرف ويصيبه الخرف إن الله عليم بكل شيء قديرٌ على كل شيء.

والآية كقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤].

والفارق هنا بين حال الطفولة وحال الشيخوخة أن حال الطفولة تتبعه قوة، والكل يريد بقاءه وحياته، أما حال الشيخوخة فلا تتبعه قوة بل يتبعه ضعف بعد ضعف وهزال بعد هزال، وتخريف بعد تخريف، إن قُدر له البقاء، فالأكثرون يرجون موته، حتى من يحبونه فإنهم يرجون موته لما يجدونه معه من العناء والمشقة، ولما يرونه فيه من التعب والمصائب والشدائد.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم ولم تكونوا شيئا، لا الآلهة التي تعبدون من دونه، فاعبدوا الذي خلقكم دون غيره ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ﴾ يقول: ثم يقبضكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ يقول: ومنكم من يهرم فيصير إلى أرذل العمر، وهو أردؤه، يقال منه: رذل الرجل وفسل، يرذل رذالة ورذولة ورذلته أنا. وقيل: إنه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة.

وقوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ يقول: إنما نردّه إلى أرذل العمر ليعود جاهلًا كما كان في حال طفولته وصباه، بعد علم شيئا: يقول: لئلا يعلم شيئا بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلم منه شيئا، وانسلخ من عقله، فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير علمه، عليم بكلّ ما كان ويكون، قدير على ما شاء لا يجهل شيئا، ولا يُعجزه شيء أراده.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم -وهو الضعف في الخلقة- كما قال الله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

وأورد ما أخرجه البخاري من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَدْعُو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»[1].

(١) البخاري (٤٧٠٧).

وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:

سَئِمتُ تَكَالِيفَ الحيَاة ومَنْ يعشْ ثمانينَ عاما -لا أبالك- يَسْأم

رَأيتُ المَنَايا خَبط عَشْواء مَنْ تصِبْ تمتْه ومَنْ تُخْطئ يُعَمَّرْ فَيهْرَمِ

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من الناس من يموت قبل بلوغ أرذل العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر، وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرذيلة؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في سورة الحج: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥]، وقوله في الروم: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ الآية [الروم: ٥٤]، وأشار إلى ذلك أيضًا بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

وقال:

وقوله ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ ، أي: يرد إلى أرذل العمر لأجل أن يزول ماكان يعلم من العلم أيام الشباب، ويبقى لايدري شيئا؛ لذهاب إدراكه بسبب الخرف. ولله في ذلك حكمة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي:

أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقًا بعد خلق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: والله ﷻ فضَّل بعضكم أيها البشر على بعض في الرزق، فهذا غنيٌّ وهذا فقيرٌ، وهذا سيدٌ وهذا عبدٌ مملوك، فالغني منكم لا يرضى أن يُعطى الفقير من ماله حتى يستوي معه، والسيد منكم لا يريد أن يعطي مملوكه حتى يصبح سيدًا مثله، بل أنتم تستنكفون أن يكون السيد منكم مستويًا مع العبد، والغني فيكم مستويًا مع الفقير، فكيف تسوون بين الخالق والمخلوق؟؟!!

كيف تسوون بين الله ﷻ وبين أصنامٍ وأحجارٍ صنعتموها بأيديكم.

أفبنعم الله ﷻ التي أنعم بها عليكم تجحدون؟!، أفتنكرون نعم الله ﷻ عليكم وتكفرون بها ولا تشكرونها؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله أيها الناس فضّل بعضكم على بعض في الرزق الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلهم الله على غيرهم بما رزقهم ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يقول: بمشركي مماليكهم فيما رزقهم من

الأموال والأزواج. ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ يقول: حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، يقول تعالى ذكره: فهم لا يرضَون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، وهذا مَثَل ضربه الله تعالى ذكره للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله من النصارى. وقوله ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ يقول تعالى ذكره: أفبنعمة الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزق الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خلقه في سلطانه ومُلكه؟

وأورد بسندٍ صحيح بمجموع طريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ وهذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده، فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحقّ أن ينزه منه من نفسك، ولا تعدل بالله أحدًا من عباده وخلقه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكرا عليهم: إنكم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ الآية [الروم: ٢٨].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من

الحرث والأنعام نصيبا، فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ أي: جعل منكم غنيًّا وفقيرًا وحرًّا وعبدًا. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ أي: في الرزق. ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي: لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوي المملوك والمالك في المال. وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء، فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبد، كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾.

أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة: أن الله ضرب فيها مثلًا للكفار، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله. ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في حقه على خلقه، الذي هو إخلاص العبادة له وحده، أي: إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم، فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ الآية [الروم: ٢٨]، ويؤيده أن «ما» في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ

أَيْمَٰنُهُمْ﴾، نافية، أي: ليسوا برادي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم. اهـ.

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم، فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته! مع اعترافهم بأنها ملكه، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد من الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ الآية [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي معنى هذه الآية الكريمة، قولان آخران:

أحدهما: أن معناها أنه جعلكم متفاوتين في الرزق؛ فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم؛ فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تساووا في الملبس والمطعم؛ كما ثبت عن النَّبي ﷺ: أنه أمر مالكي العبيد أن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، لوم لهم، وتقريع على ذلك.

القول الثاني: أن معنى الآية أنه جلَّ وعلا هو رازق المالكين والمملوكين جميعًا؛ فهم في رزقه سواء، فلا يحسبن المالكون أنهم يردون على مماليكهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزق الله يجريه لهم على أيديهم. والقول الأول هو الأظهر وعليه جمهور العلماء، ويدل له القرآن كما بينا. والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾، إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته؛ لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله، فيستعين بكل ما أنعم به

عليه على معصيته، فإنه يرزقهم ويعافيهم، وهم يعبدون غيره. وجحد: تتعدى بالباء في اللغة العربية؛ كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ الآية [النمل: ١٤]، وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: ٥١]، والجحود بالنعمة هو كفرانها.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلا أنه تعالى: ﴿فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ فجعل منكم أحرارا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!

هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟!! ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها، لما أشركوا به أحدا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: والله ﷻ خالقكم ومعبودكم هو الذي تفضَّل عليكم بأن جعل لكم من أنفسكم أزواجًا فخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخلق منه زوجته حواء ثم بعد ذلك جعل منكم الذَّكر والأنثى، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، وهم أبناء الأبناء، فالبنين هم الأولاد، والحفدة أولاد الأولاد، وقيل: الحفدة هم الخدم، وقيل: الحفدة هم الذين يسعون في الخدمة عمومًا سواء كانوا بنين أو خدم أو أبناء بنين، والله أعلم.

أما قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ فمعناه: أفيصدقون الشيطان فيما أوحاه إليهم من تحريم الحلال وتحليل الحرام، فيتبعون الشيطان فيما حرمه عليهم من نعم الله، فيحرمون نعم الله التي أباحها الله لهم، ويستحلون ما حرَّمه الله عليهم، فيكفرون بنعم الله ويجحدونها، ويقدمون على المحرم فيستبيحونه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الباطل هنا الشيطان كما أسلفت، وذهب آخرون إلى أن الباطل الآلهة المعبودة من دون الله من أوثانٍ وأصنام وغير ذلك.

فيصدق أهل الشرك أن الآلهة الباطلة تنفعهم أو تضرهم ويكذبون بوحدانية الله وإنعامه عليهم بما أنعم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ﴾ الذي ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: أنه خلق من آدم زوجته حوّاء، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أي: والله خلق آدم، ثم خلق زوجته منه ثم جعل لكم بنين وحفدة.

واختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة، فقال بعضهم: هم الأختان، أختان الرجل على بناته.

وقال آخرون: هم أعوان الرجل وخدمه.

وقال آخرون: هم ولد الرجل وولد ولده.

وقال آخرون: هم بنو امرأة الرجل من غيره.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر عباده

معرفهم نعمه عليهم، فيما جعل لهم من الأزواج والبنين، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فأعلمهم أنه جعل لهم من أزواجهم بنين وحفَدة، والحفَدة في كلام العرب: جمع حافد، كما الكذبة: جمع كاذب، والفسَقة: جمع فاسق. والحافد في كلامهم؛ هو المتخفِّف في الخدمة والعمل. والحَفْد: خفة العمل يقال: مرّ البعير يَحفِد حفَدَانًا: إذا مرّ يُسرع في سيره. ومنه قولهم: «إليك نسعى ونحفِد»: أي نسرع إلى العمل بطاعتك... إلى آخر ما قال.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: ورزقكم من حلال المعاش والأرزاق والأقوات، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: يحرّم عليهم أولياء الشيطان من البحائر والسوائب والوصائل، فيصدّق هؤلاء المشركون بالله ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يقول: وبما أحلّ الله لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله، يكفرون، يقول: ينكرون تحليله، ويجحدون أن يكون الله أحله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور. ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ هم الولد وولد الولد.

وأورد أقوالًا أُخر في تفسير الحفدة تقدم ذِكرها ثم قال:

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي: من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهم: الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُمْتَنًّا عليه: ألم أزوجك؟ ألم أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أَسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ ترأس وتَرْبع؟**»[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمر شيئا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!!



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: ويعبد هؤلاء المشركون أصنامًا وأوثانًا وآلهة باطلة أخرى لا تملك هذه الأصنام والأوثان والآلهة لعابديها رزقًا من السموات والأرض، ولا تقدر على ذلك، فلا تقدر على إنزال مطر، ولا على

(١) مسلم (٢٩٦٨).

إنبات ثمرٍ ولا على سوق رزق بأي حالٍ من الأحوال، ولا تستطيع ذلك فلا تضربوا يا أهل الشرك لله الأمثال، لا تشبهوا الله ﷻ بخلقه، ولا تجعلوا له أمثالًا وأندادًا، ولا تعبدون معه آلهة أخرى تجعلونها شريكة له في ملكه وتشبهونها به، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وأما قوله: ﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ يعلم حقيقة كل شيء ويعلم أنه ﷻ ليس له ندٌّ ولا مثيل ولا شريك، ويعلم ما ينفعكم وما يضركم، ويعلم خطأ ما تمتثلونه به وما تشبهونه به وخطأ تلك الأمثال التي تضربونها له.

وكذا يعلم أنه لا إله إلا هو، وأنه لا معبود بحق سواه ولكنكم بجهلكم لا تعلمون ذلك وتشركون في عبادته معه غيره تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانًا لا تملك لهم رزقا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لأنها لا تقدر على إنزال قطر منها لإحياء موتان الأرضين، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: يقول: ولا تملك لهم أيضًا رزقًا من الأرض لأنها لا تقدر على إخراج شيء من نباتها وثمارها لهم، ولا شيئًا مما عدّد تعالى في هذه الآية أنه أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يقول: ولا تملك أوثانهم شيئًا من السموات والأرض، بل هي وجميع ما في السموات والأرض لله ملك، ولا يستطيعون يقول: ولا تقدر على شيء.

وقوله: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ يقول: فلا تمثلوا لِلهِ الأمثال، ولا تشبِّهوا له الأشباه، فإنه لا مِثْل له ولا شِبْه.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ قال: هذه الأوثان التي تُعْبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقًا ولا ضرًّا ولا نفعًا، ولا حياة ولا نشورًا.

قال الطبري:

وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فإنه أحَد صَمَد لم يَلِد ولم يُولَد ولم يكن له كُفُوًا أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يقول: والله أيها الناس يعلم خطأ ما تمثلون وتضربون من الأمثال وصوابه، وغير ذلك من سائر الأشياء، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.



(٢٠٠) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا
حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا
يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ
يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ وَلِلَّهِ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا
تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
٧٨ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا
وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ
وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ
سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢

(٢٠١) أحمر
أسود

يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

[النحل: ٧٥-٨٣]

(٢٠٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَبْكَمُ - كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ - وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ - مُسَخَّرَٰتٍ - ظَعْنِكُمْ - إِقَامَتِكُمْ - أَثَٰثًا - أَكْنَٰنًا - سَرَٰبِيلَ - تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ - بَأْسَكُمْ - تُسْلِمُونَ -نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَبْكَمُ﴾	أخرس لا يتكلم.
﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾	عالةٌ على سيده.
﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾	وما أمر الله بقيام الساعة إذا أرد أن تقوم الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب.
﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾	مُذللات.
﴿ظَعْنِكُمْ﴾	سفركم.
﴿إِقَامَتِكُمْ﴾	استقراركم في بلادكم.
﴿أَثَٰثًا﴾	أثاث البيوت من فراشٍ وقرب وقدور وغير ذلك.
﴿أَكْنَٰنًا﴾	أماكن تسكنونها تستكنون فيها، كالمغارات والغيران (جمع غار) والكهوف وغير ذلك.
﴿سَرَٰبِيلَ﴾	ثياب.
﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾	تحفظكم من الحر.
﴿بَأْسَكُمْ﴾	بأس غيركم، سهام غيركم.
﴿تُسْلِمُونَ﴾	تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾	نعمته بإرسال الرسول محمد ﷺ إليك وعموم نعمه عليكم.

❁ ❁ ❁

أمثلة مضروبة للكافر والمؤمن

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾.

ج: لأهل العلم قولان في المثل المضروب، ضُرب لمن؟

أحدهما: ضرب للكافر والمُؤمن فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء المراد به: الكافر لا يعمل بطاعة الله ولا يأتي منه خيرٌ والمرزوق رزقًا حسنًا هو المؤمن موفق للطاعة موفقٌ للإحسان والبرِّ، مباركٌ أينما كان وأينما حلَّ ونزل.

فالكافر كالعبد المملوك الذي لا يقدر على فعل شيء نافع وأما المؤمن فهو كالذي آتاه الله مالًا حلالًا طيبًا ينفق منه سرًّا وجهرًا، فهو نفاعٌ أينما كان.

الثاني: أنه مثلٌ مضروبٌ للوثن الذي لا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا يعي ولا يعقل ولا يملك دفع ضرٍّ عن نفسه ولا لغيره ولا جلب خير لنفسه ولا لغيره.

الآخر الله ﷻ الذي يفعل ما يريد ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ويدفع الضر عمن يشاء ويجلب الخير لمن يشاء هل يستوي الخلاق العليم الرزاق الكريم العزيز الحكيم مع صنم مخلوق جماد لا يعي ولا ينطق ولا يتكلم ولا يمنع نفسه ممن يُريده بسوء أو مكروه.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ أي: قل يا رسول الله الحمد لله، بل أكثر هؤلاء لا يعلمون، أي: بل أكثرهم جهلة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وشَبَّه لكم شَبها أيها الناس للكافر من عبيده، والمؤمن به منهم. فأما مثَل الكافر: فإنه لا يعمل بطاعة الله، ولا يأتي خيرا، ولا ينفق من شيء في سبيل الله ماله لغلبة خذلان الله عليه، كالعبد المملوك، الذي لا يقدر على شيء فينفقه. وأما المؤمن بالله فإنه يعمل بطاعة الله، وينفق في سبيله ماله كالحر الذي آتاه الله مالا فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، يقول: بعلم من الناس وغير علم ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ يقول هل يستوي العبد الذي لا يملك شيئا ولا يقدر عليه، وهذا الحرّ الذي قد رزقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفق كما وَصَف، فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته.

وأورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ هذا مثل ضربه الله للكافر، رزقه مالا فلم يقدم فيه خيرا ولم يعمل فيه بطاعة الله، قال الله تعالى ذكره ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا﴾ فهذا المؤمن أعطاه الله مالا فعمل فيه بطاعة الله وأخذ بالشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة، قال الله تعالى ذكره ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ والله ما يستويان ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٩﴾ [الزمر: ٢٩].

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ يقول: الحمد الكامل لله خالصًا دون ما تَدْعُون أيها القوم من دونه من الأوثان فإياه فاحمدوا دونها.

وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ يقول: ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتُحْمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ نبه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم. ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: بين شبهًا، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ أي: كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رزق رزقًا حسنًا فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخر بإرادة سيده. ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة، فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحدا، فإذا كانت بعد أمر أو نهي أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي، كقوله: أعتق رجلا ولا تهن رجلًا، والمصدر كإعتاق رقبة، فأي رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء. وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر، فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر، لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل العلم والتأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه أسرًا وأنضر وجهًا، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه، فقال الله تعالى ضربًا للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارًا مواتًا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع.



(٢٠٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم هذا مثل أيضًا مضروب للوثن مع الله ﷻ فالوثن ضُرب له مثل برجل أبكم، أخرس لا يتكلم، وضعيف لا يستطيع أن يفعل أيَّ شيءٍ، وهو عالة على مولاه وثقل وبلاء على أهله كلما ذهب إلى مكان أتاهم بمشكلة وبليةٍ ومصيبة ولا يستطيع أن يفصح عن السبب ولا يبينه، فهل يستوي هذا مع شخصٍ عاقلٍ رشيد يأمر بالعدل والقسط وهو على طريق سويٍّ مستقيم، فبلا شك لا يستوي هذا مع ذاك بحالٍ من الأحوال، وكما أن هذا لا يستوي مع ذاك.

فلا يستوي الصنم الجماد الذي لا يملك شيئًا ولا يدفع ضرًّا، بل كل ما يتأتى من ورائه شرٌّ.

لا يستوي هذا الوثن مع الله ﷻ الفعال لما يريد الذي يأمر بالعدل ويرشد إليه ويدل على الصراط المستقيم ويهدي إليه.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تُعبد من دونه، فقال تعالى ذكره ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ يعني بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئًا، ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرّ عنه وهو كَلٌّ على مولاه، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كَلّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا

يقدر على شيء، فهو كَلّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير، لأنه لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفْهَم عنه، فكذلك الصنم،لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهى، يقول الله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحقّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجّ عن الحقّ ولا يزول عنه.

وقد اختلف أهل التأويل في المضروب له هذا المثل، فقال بعضهم في ذلك بنحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: بل كلا المثلين للمؤمن والكافر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في المثل الأوّل لأنه تعالى ذكره مثَّل مثَل الكافر بالعبد الذي وصف صفته، ومثَّل مثل المؤمن بالذي رزقه رزقًا حسنًا، فهو ينفق مما رزقه سرًّا وجهرًا، فلم يجز أن يكون ذلك لله مثلا إذ كان الله إنما مثل الكافر الذي لا يقدر على شيء بأنه لم يرزقه رزقا ينفق منه سرًّا؛ ومثَّل المؤمن الذي وفَّقه الله لطاعته فهداه لرشده، فهو يعمل بما يرضاه الله، كالحرّ الذي بسط له في الرزق فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، والله تعالى ذكره هو الرازق غير المرزوق، فغير جائز أن يمثل إفضاله وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن، وأما المثل الثاني، فإنه تمثيل منه تعالى ذكره مَنْ مثله الأبكم الذي لا يقدر على شيء والكفار

لا شكّ أن منهم من له الأموال الكثيرة، ومن يضرّ أحيانا الضرّ العظيم بفساده، فغير كائن ما لا يقدر على شيء، كما قال تعالى ذكره مثلا لمن يقدر على أشياء كثيرة. فإذا كان ذلك كذلك كان أولى المعاني به تمثيل ما لا يقدر على شيء كما قال تعالى ذكره بمثله ما لا يقدر على شيء، وذلك الوثن الذي لا يقدر على شيء، بالأبكم الكَلّ على مولاه الذي لا يقدر على شيء كما قال ووصف.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ هو المتفرد بعلم الغيب، غيب ما في السموات والأرض، ولا يعلم الغيب أحدٌ سواه، وما أمر الساعة، أي: وما القيامة وقيامها إذا أرادها الله ﷻ إلا كلمح البصر بل أقرب من لمح البصر، فإن الله ﷻ إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شيء عزَّ جاهه وتقدست أسماؤه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولله أيها الناس مِلك ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه، ودون كلّ ما سواه، لا يملك ذلك أحد سواه. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ يقول: وما أمر قيام القيامة والساعة التي تنشر فيها الخلق للوقوف في موقف القيامة، إلا كنظرة من البصر، لأن ذلك إنما هو أن يقال له كن فيكون.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ يقول: إن الله على إقامة الساعة في أقرب من لمح البصر قادر، وعلى ما يشاء من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه شيء أراده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ كما قال: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني: القيامة ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ واللمح: النظر بسرعة، والمعنى: إن القيامة في سرعة قيامها وبعث الخلائق، كلمح العين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ قال مقاتل: بل هو أسرع. وقال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله أخرجكم يا بني آدم من بطون أمهاتكم ضعفاء، ضعفاء في أبدانكم وأسماعكم وأبصاركم وعقولكم ثم قواكم شيئًا بعد شيء، وعلمكم شيئًا بعد شيء، فبعدما كنتم صغارًا لا تعلمون شيئًا علمكم وقوّى أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم وأمهاتكم لعلكم تقدمون شكرًا لله ﷻ.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئًا ولا تعلمون، فرزقكم عقولًا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرّ وبصّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضًا من بعض. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ كلام متناه، ثم ابتدئ الخبر، فقيل: وجعل الله لكم السمع والأبصار والأفئدة. وإنما قلنا ذلك كذلك، لأن الله تعالى ذكره جعل العبادة والسمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم من بطون أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم.

قال الحافظ ابن كثير:

ثـم ذكـر تعـالى منته على عبـاده، في إخراجه إيـاهم مـن بطـون أمهـاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول-التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالًا لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها- لا تعلمون شيئًا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم. الثاني- لا تعلمون شيئًا مما قضي عليكم من السعادة والشقاء. الثالث- لا تعلمون شيئًا من منافعكم، وتم الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أي: التي تعلمون بها وتدركون، لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم، أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته. ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة. وقد قيل في ضمن قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ إثبات النطق؛ لأن من لم يسمع لم يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: تشكرون نعمه.

الثاني: يعني تبصرون آثار صنعته، لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا تقدرون على شيء ثم إنه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم، فلا يصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المعاملة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أو لم ير هؤلاء المعرضون عن طاعة الله ﷻ المنكرون لنعمه الجاحدون لوحدانيته، أولم يروا إلى الطير، وهي مذللةٌ مسخرةٌ في جو السماء لا يستطيع أحدٌ إمساكها إلا الله ﷻ، وما يستطيع أحدٌ صيدها إلا بإذن الله، إن في ذلك لدلالات على وحدانية الله ﷻ لقوم يصدقون بوحدانيته ويصدقون بكتابه ويصدقون رسله فهم المنتفعون بهذه الآيات.

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين: ألم تَرَوا أَيُّها المشركون بالله إلى الطير مسخرات في جوّ السماء، يعني: في هواء السماء بينها وبين الأرض، كما قال

إبراهيم بن عمران الأنصاريّ:

وَيْـلُ أُمِّهـا مِـنْ هَـوَاءِ الجَـوِّ طَالِبَـةً وَلا كَهـذا الَّـذِي في الأَرْضِ مَطْلُـوبُ

يعني: في هواء السماء. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ يقول: ما طيرانها في الجوّ إلا بالله، وبتسخيره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعًا. وقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يقول: إن في تسخير الله الطير، وتمكينه لها الطيران في جوّ السماء، لعلامات ودلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه لا حظ للأصنام والأوثان في الألوهة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني: لقوم يقرّون بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسه حواسهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها وسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: ١٩]. وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾.



(٢١٤) أحمر
أسود

مزيدٌ من نعم الله على العباد

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ومن نعم الله عليكم أن جعل لكم من بيوتكم مساكن تسكنونها فيحصل لكم السكون بسكناها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا، وهي الخيام تحملونها خفيفة في أسفاركم، وتصنعون منها خيامًا في بلادكم، ومن أصواف هذه الأنعام التي منها الغنم، وكذا الوبر من الإبل، وكذا الشعر من الماعز أثاثًا لبيوتكم كالآنية والأوعية والفُرش والملابس، ومتاعًا تستمتعون به إلى حين الوفاة إلى حين أن تبلى هذه الأشياء.

والله أعلم، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الناس، ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي هي من الحجر والمدر، ﴿سَكَنٗا﴾ تسكنون أيام مقامكم في دوركم وبلادكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ وهي البيوت من الأنطاع والفساطيط من الشَّعر والصوف والوبر. ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ يقول: تستخفون حملها ونقلها، ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ من بلادكم وأمصاركم لأسفاركم، ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ في بلادكم وأمصاركم. ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾. وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ فإنه يعني: أنه جعل ذلك لهم بلاغا، يتبلَّغون ويكتفون به إلى حين آجالهم للموت.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع،

وجعل لهم أيضًا ﴿مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر؛ ولهذا قال: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوۡبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشۡعَارِهَآ﴾ أي: المعز -والضمير عائد على الأنعام- ﴿أَثَٰثٗا﴾ أي: تتخذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالًا وتجارة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ معناه صير. وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله: ﴿سَكَنٗا﴾ أي: تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره، إلا أن القول خرج على الغالب. وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، لو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، ورده كيف وأين. والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: من الأنطاع والأدم. ﴿بُيُوتٗا﴾ يعني الخيام والقباب يخف عليكم حملها في الأسفار. ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ الظعن: سير البادية في الانتجاع والتحول من موضع إلى موضع، ومنه قول عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى ببينهم الغراب الأبقع

(٢١٦) أحمر
أسود

والظعن الهودج أيضًا، قال:

ألا هـل هاجـك الأظعـان إذ بـانوا وإذ جـادت بوشـك البـين غربـان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشعر والشعر. وقيل: يحتمل أن يعم بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام. وهو احتمال حسن، ويكون قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ ابتداء كلام، كأنه قال جعل أثاثا، يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك، قال الشاعر:

أهاجتـك الظعـائن يـوم بـانوا بـذي الـزي الجميـل مـن الأثـاث

ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولًا. ويكون قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ عطفًا على قوله: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: جعل بيوتًا أيضًا.

ثم قال:

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان؛ لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] فخاطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرًا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي ﷺ معًا في التطهير فقال: «**اللهم اغسلني بماء وثلج وبرد**».

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها تكنكم من الحر والبرد

وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر. ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تجدونها خفيفة الحمل تكون لكم ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون به، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: موضعًا تسكنون فيه، وهي المساكن المتَّخَذة من الحجر والمدر تستر العورات والحُرَم، وذلك أن الله تعالى خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناء البيت وتسقيفه، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ ... قال: والمعنى: إذا سافرتم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: لا تثقل عليكم في الحالين. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ يعني: الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ يعني: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ يعني: المعز ﴿أَثَٰثًا﴾ قال الفراء: الأثاث: المتاع، لا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له. والعرب تقول: جمع المتاع أمتعه، ولو جمعت الأثاث، لقلت: ثلاثة أَإِثَّةٍ، وأُثُث: مثل أعثة وعُثث لا غير. وقال ابن قتيبة: الأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثاثة. وقال الزجاج: يقال: قد أثَّ يأَث أثًّا: إذا صار ذا

أثاث. وروي عن الخليل أنه قال: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إِلى بعض، ومنه: شَعَر أثيث. فأما قوله: ﴿وَمَتَٰعًا﴾ فقيل: إِنما جمع بينة وبين الأثاث، لاختلاف اللفظين.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنه الموت، والمعنى: ينتفعون به إِلى حين الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: أنه إِلى حين البلى، فالمعنى: إِلى أن يَبلى ذلك الشيء، قاله مقاتل.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله جعل لكم مما خلق من الأشجار والجبال وغيرها ظلالًا تستظلون بها، وجعل لكم من الجبال مساكن تُكنُّكم كالغار الذي في الجبل والمغارة وغير ذلك، وجعل لكم سرابيل، أي: ملابس من القطن والصوف والكتان وغير ذلك تقيكم الحرَّ، وكذا تقيكم البرد، وسرابيل من الحديد، أي ودروع من الحديد وقمصان حديدية تقيكم بأسكم، أي: تقي بعضكم بأس بعض أي: تصد السهام عن أجسامكم فلا تصل السهام إلى قلوبكم، وكما أعطاكم ربكم هذه الأشياء فإنه ﷻ يعطيكم ما تحتاجون إليه لعلكم تسلمون، تدخلوا الإسلام.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم مما خلق

من الأشجار وغيرها ظلالًا تستظلون بها من شدة الحرّ، وهي جمع ظلّ.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يقول: وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها، وهي جمع كنّ.

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يقول: غيرانا من الجبال يسكن فيها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يعني ثياب القطن والكتان والصوف وقمصها.

وقوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يقول: ودروعًا تقيكم بأسكم، والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم، فكذا يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيده النفوس، وتخلصوا له العبادة. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ (**لعلكم تَسلمون**) بفتح التاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي: حصونا ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون - عونًا لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي: من الإسلام.

(٢٢٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: فإن أعرض هؤلاء يا رسول الله عن الإسلام والإيمان فما عليك من أمر هدايتهم من شيء إنما أمر هدايتهم موكولٌ إلى الله سبحانه وتعالى، وما عليك إلا إبلاغهم بلاغًا واضحًا مُظهرًا ما يريده الله منهم، وما الذي ينهاهم عنه ربُّهم ﷻ، أمّا هُم فإنهم يعرفون نعمة الله التي أنعم بها عليهم من النعم المذكورة وغيرها، وينسون أنها فضلٌ من الله عليهم فيجحدونها، وكذا يجحدون نعمة الله عليهم بإرسال النبي محمد ﷺ إليهم فينكرون نبوته مع علمهم به صلوات الله وسلامه عليه وعلمهم بصدقه، وأكثرهم الجاحدون لنبوة رسول الله ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عما أرسلتك به إليهم من الحقّ، فلم يستجيبوا لك وأعرضوا عنه، فما عليك من لوم ولا عذل؛ لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أرسلت به. ويعني بقوله: ﴿الْمُبِينُ﴾ الذي يبين لمن سمعه حتى يفهمه.

وأما قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة التي أخبر الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها مع معرفتهم بها، فقال بعضهم: هو النبيّ ﷺ عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذبوه.

وأورد بسندٍ صحيح عن السديّ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال: محمد ﷺ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم بذلك عليهم، ولكنهم

يُنْكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقرّوا بأن الله هو الذي رزقهم، ثم يُنْكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: عني بالنعمة التي ذكرها الله في قوله ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعيًا إلى ما بعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله ﷺ وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنى يدلّ على انصرافه عما قبله وعما بعده فالذي قبل هذه الآية قوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ وما بعده ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ﴾ وهو رسولها. فإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية: يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يا محمد بك، ثم ينكرونك ويجحدون نبوّتك ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يقول: وأكثر قومك الجاحدون نبوّتك، لا المقرّون بها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ وقد أديته إليهم.

﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره، ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ
يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ
ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا
عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾

[النحل: ٨٤-٨٩]

(٢٢٣) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿يُسْتَعْتَبُونَ - يُنظَرُونَ - شُرَكَآءَهُمْ - نَدْعُواْ مِن دُونِكَ - فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ - ٱلسَّلَمَ - وَضَلَّ عَنْهُم - يَفْتَرُونَ - تِبْيَـٰنًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾	يُطلب منهم الرجوع إلى الدنيا للاستقامة.
﴿يُنظَرُونَ﴾	يؤخرون - يمهلون - يؤجلون.
﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾	آلهتهم التي جعلوها شريكة لله ﷻ.
﴿نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾	نعبد معك - نعبد غيرك.
﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾	فردوا عليهم قولهم.
﴿ٱلسَّلَمَ﴾	الاستسلام والخضوع والانقياد.
﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾	غاب عنهم، ففقدوا نصرهم.
﴿يَفْتَرُونَ﴾	يكذبون- يدَّعونها آلهة كذبًا وزورًا.
﴿تِبْيَـٰنًا﴾	بيانًا.



من مشاهد القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يوم القيامة، يوم نبعث من كل أمةٍ شهيدًا يشهد عليها بما صنعته معه وبما أجابته به، وهؤلاء الشهداء هم خيرة خلق الله من البشر، وهم رسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وقد قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يُطلب منهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوه وللتصديق بما كذبوا به، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يعرفون نعمة الله ثم يُنْكرونها اليوم ويستنكرون ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو الشاهد عليها بما أجابت داعي الله، وهو رسولهم الذي أرسل إليهم ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيتركوا الرجوع إلى الدنيا فينيبوا ويتوبوا وذلك كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وشاهدها نبيها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث

من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: يوم القيامة، وشاهد كلِّ أُمةٍ نبيُّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به، لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾، ولكنه بين في «المرسلات» أن متعلق الإذن الاعتذار؛ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار، لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله، وذلك في قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم؛ كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات.

فالجواب: من أوجه:

منها: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم: ﴿اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق؛ كما قال تعالى:

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾ [النمل: ٨٥].

ومنها: أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، اعلم أولًا، أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبى؛ أي: الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره. وتستعمل أيضًا في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبى؛ أي: رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، وجهين من التفسير متقاربي المعنى.

قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: لا تطلب منهم العتبى، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

وقال بعض العلماء: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: يعتبون، بمعنى يزال عنهم العتب، ويعطون العتبى وهي الرضا؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين. وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت: ٢٤]، أي: وإن يطلبوا العتبى - وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين؛ بصيغة اسم المفعول، أي: المعطين العتبى وهي الرضا عنهم؛ لأن العرب تقول: أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار لأن اعتذارهم بعد ما علموا يقينًا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى

الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وإذا رأى أهل الشرك، الذين ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل بشركهم بالله ﷻ، وكان من حق أنفسهم عليهم أن يجلبوا لها الأمان، إذا رأى هؤلاء العذاب يوم القيامة، ودخلوا جهنم لا يُفتَّر عنهم، لا يتوقف عنهم ولا يخفف عنهم، ولا هم يمهلون، بل يَصْلَونه ويذوقونه ولا يؤخرون عنه ولا يمهلون.

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أي: آلهتهم التي عبدوها من دون الله وجعلوها شريكة لله ﷻ، قال أهل الشرك: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ آلهتنا ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ التي كنا نعبدها معك، فكذبتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله وردوا عليهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أقررناكم على ذلك، فحينئذٍ أظهر أهل الكفر الاستسلام والانقياد لله ﷻ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٦] وكما قال: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١]. أما آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويكذبون ويزعمون أنها شريكة لله ففقدوها وفقدوا نصرتها لهم وهم أحوج ما يكون إلى ناصرٍ ينصرهم فغابت عنهم تلك الآلهة الباطلة التي عبدوها مع

الله ولم تدفع عنهم عذابًا ولم تجلب لهم خيرًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا عاين الذين كذّبوك يا محمد، وجَحَدُوا نُبوّتك والأمم الذين كانوا على منهاج مشركي قومك عذاب الله، فلا ينجيهم من عذاب الله شيء، لأنهم لا يؤذن لهم، فيعتذرون، فيخفَّف عنهم العذاب بالعذر الذي يدعونه، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ يقول: ولا يُرْجَئُون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، فليس ذلك وقتا لهما، وإنما هو وقت للجزاء على الأعمال، فلا ينظر بالعتاب ليعتب بالتوبة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك، قال الله تعالى ذكره ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ يعني: شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله تعالى يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركين، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وألقى المشركون إلى الله يومئذ السلم يقول: استسلموا يومئذ وذَلُّوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون في الدنيا من دون الله، وتبرأت منهم، ولا قومهم، ولا عشائرهُم الذين كانوا في الدنيا يدافعون عنهم، والعرب تقول: ألقيت إليه كذا تعني بذلك قلت له. وقوله

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يقول: وأخطأهم من آلهتهم ما كانوا يأملون من الشفاعة عند الله بالنجاة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يقول: ذلوا واستسلموا يومئذ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: الذين أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: ولا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام[(١)]، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلها آخر[(٢)]، وبكذا وكذا وتذكر أصنافا من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتتلقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٢ -١٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا

(١) الحديث بذلك في صحيح مسلم وقد أعلَّه بعض أهل العلم.
(٢) سنده معلول والراجح ضعفه، والله أعلم.

هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الآية. [القصص: ٦٤] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم، ولا ينظرون، أي: لا يمهلون، وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر، وبين أنهم يرون النار، وأنها تراهم، وأنها تكاد تتقطع من شدة الغيظ عليهم؛

كقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠]، وقوله: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣]، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢]، وقوله: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾، وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك، فيقولون لهم: كذبتم! ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨].

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل: كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم، مع أن الواقع خلاف ما

قالوا، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله!

فالجواب: أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وأن عبادتهم حق، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب وأشنع الافتراء، ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون، ومراد الكفار بقولهم لربهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾، قيل: ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم، وقيل: ليكونوا شركاءهم في العذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعًا في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]، وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيرًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾...﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١]؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم، بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده جلَّ وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، إلقاؤهم إلى الله السلم: هو انقيادهم له، وخضوعهم؛ حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النحل: ٢٨]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦]، وقوله: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ [طه: ١١١]، ونحو ذلك من الآيات، وقد قدمنا طرفًا من ذلك في الكلام على قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النحل: ٢٨].

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: غاب عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه: من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ....﴾ الآية [يونس: ١٨]، وكقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات

كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس: ٣٠]، وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥﴾ [القصص: ٧٥]، وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن وفي اللغة بشواهدها.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ ليس عندها نفع ولا شفيع، فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، عبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧﴾ فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني: النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخَّرون، ولا يمهلون. ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾ أي: نعبد من دونك. فإن قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنهم لما كتموا الشرك في قولهم: واللهِ ما كنا مشركين، عاقبهم الله

تعالى بإصمات ألسنتهم، وإنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أي: قد أقررنا بعد الجحد، وصدَّقنا بعد الكذب، التماسًا للرحمة، وفرارًا من الغضب، وكأنَّ هذا القول منهم على وجه الاعتراف بالذنْب، لا على وجه إعلام من لا يعلم.

والثاني: أنهم لما عاينوا عِظَم غضب الله تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤنا، تقديرَ أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إِجرامهم، أو بعض ذنوبهم إِذْ كانوا يدَّعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أجابوهم وقالوا لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قال الفراء: ردت عليهم آلهتهم قولهم. وقال أبو عبيدة: ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ أي: قالوا لهم. يقال: ألقيت إلى فلان كذا. أي: قلت له. قال العلماء: كذَّبوهم في عبادتهم إياهم، وذلك أن الأصنام كانت جمادًا لا تعرف عابديها، فظهرت فضيحتهم يومئذٍ إِذْ عبدوا مَن لم يعلم بعبادتهم، وذلك كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: ٨٣]. قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ المعنى: أنهم استسلموا له. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله الأكثرون. ثم في معنى استسلامهم. قولان: أحدهما: أنهم استسلموا له بالإِقرار بتوحيده وربوبيته. والثاني: أنهم استسلموا لعذابه.

والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلُّهم. قال الكلبي: والمعنى: أنهم استسلموا لله منقادين لحُكمه.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بَطَل قولهم أنها تشفع لهم.

والثاني: ذهب عنهم ما زيَّن لهم الشيطان أن لله شريكًا وولدًا.



(٢٣٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وكفروا به وكذبوا رسله وأنكروا كتبه، وسعوا في صرف الناس عن طريق الحق وصدِّهم عنه زدناهم عذابًا لصرف الناس عن الحق، وصدهم الناس عن الطريق الموصل إلى الله فوق العذاب الذي استحقوه لكفرهم، وذلك بإفسادهم في الأرض، فعليه إفسادهم له وصورتان:

إحداهما: أنهم كفروا واستباحوا ما حرَّمه الله.

والثاني: أنهم صرفوا الناس عن الحق وصدوهم عنه، الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

وكقوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مثلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا**» والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا يا محمد نبوّتك وكذّبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصَدُّوا عن الإيمان بالله وبرسوله، ومن أراده زدناهم عذابًا يوم القيامة في جهنم فوق العذاب الذي هم فيه قبل أن يزادوه. وقيل: تلك الزيادة التي وعدهم الله أن يزيدهموها عقارب وحيات.

وأورد بسندٍ صحيح عن عبد الله[1]: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: عقارب لها أنياب كالنخل.

(١) هو ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ يقول: زدناهم ذلك العذاب على ما بهم من العذاب بما كانوا يفسدون، بما كانوا في الدنيا يعصُون الله، ويأمرون عباده بمعصيته، فذلك كان إفسادهم، اللهم إنا نسألك العافية يا مالك الدنيا والآخرة الباقية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: ينهون الناس، عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضًا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾. [الأنعام: ٢٦]

وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].



تفاوت أهل النار في العذاب، عياذًا بالله

س: أهل الكفر يتفاوتون في العذاب، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

[غافر: ٤٦]

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

[المائدة: ١١٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

مع قوله ﷺ في شأن عمه أبي طالب: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَغلي مِنْهمَا دِمَاغه ولَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**». إلى غير ذلك من الأدلة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يا رسول الله يوم نبعث في كل أمةٍ شهيدًا عليهم من أنفسهم، وهو الرسول الذي أرسله الله إليهم، وجئنا بك يا رسول الله شهيدًا على قومك هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ أي: بيانًا لكل شيء مما أحلَّه الله ﷻ وحرَّمه،

﴿وَهُدًى﴾ هداية ودلالة ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ بجنات النعيم ورضوان رب العالمين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: نسأل نبيهم الذي بعثناه إليهم للدعاء إلى طاعتنا، وقال: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنه تعالى ذكره كان يبعث إلى أمم أنبياءها منها: ماذا أجابوكم، وما ردّوا عليكم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وجئنا بك يا محمد شاهدًا على قومك وأمتك الذين أرسلتك إليهم بما أجابوك، وماذا عملوا فيما أرسلتك به إليهم. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن صدّق به، وعمل بما فيه من حدود الله، وأمره ونهيه، فأحل حلاله، وحرّم حرامه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة، وعظيم كرامته.

وأورد بسندٍ يصحح بطرقه عن مجاهد: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما أحلّ لهم وحرّم عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني أمته.

أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك اللّه فيه من الشّرف العظيم والمقام الرّفيع. وهذه الآية شبيهةٌ بالآية الّتي انتهى إليها عبد اللّه بن مسعودٍ حين قرأ على رسول اللّه ﷺ صدر سورة «النّساء» فلمّا وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ

إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ [النِّسَاءِ: ٤١]. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَسْبُكَ». قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام.

وقول ابن مسعود أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أن المراد -والله أعلم-: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يوم القيامة يبعث في كل أمة

شهيدًا عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأنه يأتي بنبينا ﷺ شاهدًا علينا، وبين هذا في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ...﴾ الآية [النساء: ٤١، ٤٢]، وكقوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وكقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي**»، قال: فقلت: يا رسول الله! أأقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «**نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأت «سورة النساء»، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١]، فقال: «**حسبك الآن**»، فإذا عيناه تذرفان اهـ.

وقال رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبيانًا لكل شيء، وبين ذلك في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن. أما على القول بأنه اللوح المحفوظ - فلا بيان بالآية. وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء. والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].



(٢٤١) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ
ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٩٠)
وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ
جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
(٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ
بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٩٤) وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ
ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمۡ
يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ (٩٦) مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ
حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٧)﴾

[النحل: ٩٠-٩٧]

(٢٤٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿بِٱلۡعَدۡلِ - وَٱلۡإِحۡسَٰنِ - وَإِيتَآيِٕ - ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ - ٱلۡفَحۡشَآءِ - وَٱلۡمُنكَرِ - وَٱلۡبَغۡيِۚ - يَعِظُكُمۡ - بِعَهۡدِ ٱللَّهِ - وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ - تَوۡكِيدِهَا - كَفِيلًاۚ - نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا - مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا - دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ - أُمَّةٌ وَٰحِدَةٗ - فَتَزِلَّ قَدَمُۢ - بَعۡدَ ثُبُوتِهَا - يَنفَدُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾	الإنصاف، إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.
﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾	قيل: المراد العفو، وقيل: الفضل، وقيل: المراد إحسان عبادة الله بحسن مراقبته.
﴿وَإِيتَآيِٕ﴾	إعطاء.
﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾	الأرحام - القرابات.
﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾	ما فحش من الأقوال والأعمال، ويدخل فيه الزنا.
﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾	قيل: إنها المحرمات الظاهرة، وقيل: إنها الشرك وعموم المعاصي.
﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾	التعدي على الآخرين وظلمهم.
﴿يَعِظُكُمۡ﴾	يُذكِّركم بطيب القول وبلينٍ من الخطاب.
﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾	العهود التي تعاهدتم عليها مع الناس وأقسمتم لهم بالله على الوفاء بها وقيل: عموم العهود.
﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾	لا تخالفوا العهود التي عاهدتم الناس عليها.
﴿تَوۡكِيدِهَا﴾	تأكيدها.

(٢٤٣) أحمر
أسود

﴿كَفِيلًا﴾	المراد هنا: الشاهد والرقيب والمُحاسب.
﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾	بعد أن صنعت الخيوط والحبال ولفت بعضها على بعض متقنةً لذلك حلَّتها وأرجعتها كما كانت مرةً أخرى.
﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾	من بعد ما بذلت جهدًا في الغزل.
﴿أَنكَاثًا﴾	أنقاضًا (أي: نقضتها نقضًا نقضًا).
﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾	غشًّا – خديعةً – مكرًا.
﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةً﴾	جماعة على رأي واحد – مؤمنين كلكم، أو كفار كلكم.
﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾	المراد فيرتد قومٌ بعد أن اقتربوا من الإيمان.
﴿يَنفَدُ﴾	ينتهي.



س: ما مدى صحة الوارد في أن هذه الآية أجمع آية في كتاب الله ﷻ؟

ج: أما عن رسول الله ﷺ فلا يصح في هذا خبرٌ عن النبي ﷺ.

أما عن غير رسول الله ﷺ فقد أخرج الطبري من طريقيه[1] عن الشعبي عن شتَير بن شَكَل، قال: سمعت عبد الله يقول: إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر آية في سورة النحل ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ إلى آخر الآية.



(١) صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

من محاسن الشريعة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن الله ﷻ يأمر عباده بالعدل الذي هو الإنصاف والحق، وهذا يكون في حق الله ﷻ، وفي حق العباد فالعدل في حق الله أن تقول ما هو حق في شأنه، وذلك بقولك: لا إله إلا الله، وأن تنفي عنه الشريك والولد والنِّد والصاحبة، وأن تقول فيه ما قاله عن نفسه وقاله عنه رسوله ﷺ.

ومن العدل القصاص كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وكما قال: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الحج: ٦٠]. ومن العدل الإنصاف في الحكم بين الناس وهذا يشمل الحاكم والكافي والأمير وكل من يقضي بين الناس ومن العدل أن تؤدي ما عليك كاملًا مستوفًى غير ناقص إلا إذا رضي صاحبه بأقل من حقه.

... فهذه بعض صور العدل.

أما الإحسان فله صور:

منها: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومنها: الصبر والعفو كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وكما قال بعد أن أمر بالعدل في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ أرشد بقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وكما قال بعد أن قال: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ [المائدة: ٤٥] أرشد إلى العفو قائلًا: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٥]

ولما حث على العدل في قوله: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ أرشد إلى العفو بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠﴾.

[الحج: ٦٠]

فالحاصل أن الله أمر بالعدل وأرشد إلى الفضل، الذي هو الإحسان.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: وإعطاء القرابات والأرحام حقوقهم كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، وهو كل ما فحش من الأقوال والأفعال، والتي منها الزنى وفحش القول والعمل ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ قيل: إنه عموم ما حرم الله، وقيل: إنه الشرك، وقيل: إنه المنكرات الظاهرة، أما ﴿وَٱلْبَغْيِ ۚ﴾ فهو التعدي على العباد وظلمهم، وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ أي: يُذكركم لعلكم تتذكرون، والوعظ التذكير بما يلين القلوب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله. وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحقّ الحمد عليها، كان جهلًا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعِم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع شهادة أن لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، فإن الإحسان الذي أمر به تعالى ذكره مع العدل الذي وصفنا صفته: الصبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، في الشدّة والرخاء، والمَكْرَه والمَنْشَط، وذلك هو أداء فرائضه.

وقوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يقول: وإعطاء ذي القربى الحقّ الذي

أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ قال: الفحشاء في هذا الموضع: الزنا.

وقوله: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ قيل: عُنِيَ بالبغي في هذا الموضع: الكبر والظلم.

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ يقول: يذكركم أيها الناس ربكم لتذكروا فتنيبوا إلى أمره ونهيه، وتعرفوا الحقّ لأهله.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾... الآية، إنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلق سيِّئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذامِّها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قيل في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث:

« مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدَّخَرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(١).

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يحسن إحسانًا. ويقال على معنيين: أحدهما: متعد بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، أي حسنته وكلمته، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء. وثانيهما: متعد بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى فلان، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معًا، فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سجنك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك، وهو تعالى غني عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن. وهو في حديث جبريل بالمعنى الأول لا بالثاني، فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين:

أحدهما: غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقوله: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

وثانيهما: لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي

(١) صحيح: وقد تقدم.

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] وقوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: وإيتاء ذي القربى أي القرابة، يقول: يعطيهم المال كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدل الشافعي في إيجاب إيتاء المكاتب، على ما يأتي بيانه. وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب، لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: «**أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك**». ولا سيما إذا كانوا فقراء.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل هو الشرك. والبغي: هو الكبر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًّا ولا تغشهم ولا

تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ لأجل أن يتَّعظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، وحذف مفعول ﴿يَأۡمُرُ﴾، ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾ ، لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان، قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: ٩١].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى، قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾ [البلد: ١٤، ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي، قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾ الآية [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان، قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾...﴾ الآية [الشورى: ٤١]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣]، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور، وأصله التوسط بين المرتبتين؛ أي: الإفراط والتفريط، فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحو: أحسن إلى والديك؛ ومنه قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ...﴾ الآية [يوسف: ١٠٠]، وتستعمل متعدية بنفسها؛ كقولك: أحسن العامل عمله، أي: أجاده وجاء به حسنًا. والله جل وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة، لأن الإحسان

إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النَّبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، وقد قدمنا إيضاح ذلك «في سورة هود». فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا؛ كقول ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط. ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن؛ ولذا قال النَّبي ﷺ في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: «**أفلح إن صدق**». وكقول سفيان: العدل: استواء العلانية والسريرة. والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، إلى غير ذلك من أقوال السلف، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾، الوعظ: الكلام الذي تلين له القلوب.



الوفاء بالعهود والتحذير من نقضها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وأوفوا يا أهل الإسلام بعهد الله ﷻ إذا عاهدتم، وهذا يشمل العهود التي بين العبد وبين ربِّه تبارك وتعالى – على ما قدمته في مطلع سورة المائدة وغيرها – فقد عاهدتم ربكم بقولكم سمعنا وأطعنا، ويشمل العهود التي بين العباد وبعضهم كالمعاهدات التي بين المسلمين وغيرهم والمعاهدات التي بين المسلمين وبعضهم، وكذلك العقود، ويشمل التحالفات التي كانت تجري بين بعض الناس وبعضهم فهو أمرٌ عامٌ بالوفاء بكل العهود.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فهي الأيمان المصاحبة للعقود، فكانوا يتعاقدون ويقسمون أيمانًا على الوفاء بالعهود، فنهاهم الله ﷻ عن نقض هذه العهود وتلك الأيمان.

أما قوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد تأكيدها سواء كان هذا التأكيد بتغليظ اليمين أو بتكريره، وهذا لا يشمل من أقسم يمينًا على شيء ثم بدا له أن يفعل خلافه، فإن هذا يكفر كفارة يمين ويفعل الخير، أما العهود التي بين الناس فلا تندرج تحت هذا، بل يلزم الوفاء بها أو التحلل منها.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ أي: قلتم عند العهود – أي: أثناء كتابتها والاتفاق عليها– كفى بالله وكيلًا، وكفى بالله كفيلًا، أي: أشهدتم ربكم على الوفاء بها، وأقسمتم بالله على الوفاء بها.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ فحاصله: أنه يعلمه وسيجازيكم على ما صنعتم من نقض العهود إذا نقضتموها ويجازيكم كذلك خيرًا على وفائكم بها.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا ...﴾ فحاصل معناه: أن ناقض العهد شبِّه بامرأة خرقاء طائشة حمقاء تغزل الغزل وتُحكمه وتؤكد إحكامه ثم وبعد أن تتقن الغزل أشد الإتقان إذا بها تنقضه نقضًا، تنقضه أنقاضًا، فتعبت في أول أمرها عند إتقان غزلها، ثم تعبت تعبًا آخر أثناء نقض الغزل، وهكذا ناقض العهد يُشدد على الوفاء به ويؤكد أنه سيفي به ثم ينقض ما قاله.

أما قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: تتسترون بالأيمان وتتخذون الأيمان للغش والغدر والخيانة والخديعة، تخدعون بها بعضكم وتغشونه بها، تفعلون ذلك لكون جماعة من الناس أقوى من الجماعة التي تحالفتم معها، فكان القوم يتحالفون مع قوم فإذا جاء قوم أكثر منهم عددًا نقضوا التحالف الأول والعهد الأول، ودخلوا مع الأكثر عددًا في تحالف آخر غير التحالف الأول، فقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ معناه: أنكم تنقضون العهد من أجل أمةٍ أكثر عددًا من أمةٍ أخرى.

ألا فاعلموا أن الله ﷻ يبلوكم بذلك، يختبركم بأن يسوق إليكم بعدما تعاقدتم التعاقد الأول، يسوق إليكم قبيلة أُخرى هي أقوى وأكثر اختبارًا هل تفون بالعهد الأول أم أنكم تنقضون العهد وتدخلون مع القوم الأكثر عَددًا وعُددًا.

وليظهرن الله لكم يوم القيامة حقيقة الأمور التي كنتم تتنازعون فيها في دنياكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه به وواثقتموه عليه ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: ولا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه الأيمان، يعني بعد ما شددتم الأيمان على أنفسكم، فتحنثوا في أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها، يقال منه: وكَّد فلان يمينه يوكدها توكيدًا: إذا شددها وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد، فإنهم يقولون: أكدتها أؤكدها تأكيدًا. وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يقول: وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الناس يعلم ما تفعلون في العهود التي تعاهدون الله من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرّون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم، محصٍ ذلك كله عليكم، وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها، يقول: فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا قِبَل لكم به من أليم عقابه.

ويقول تعالى ذكره ناهيًا عباده عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وآمرًا بوفاء العهود، وممثلا ناقض ذلك بناقضة غزلها من بعد إبرامه وناكثته من بعد إحكامه: ولا تكونوا أيها الناس في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها وإعطائكم الله بالوفاء بذلك العهود والمواثيق ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ يعني: من بعد إبرام. وكان بعض أهل العربية يقول: القوّة: ما غُزِل على طاقة واحدة ولم يثن. وقيل: إن التي كانت تفعل ذلك امرأة حمقاء معروفة بمكة.

وقال آخرون: إنما هذا مثل ضربه الله لمن نقض العهد، فشبهه بامرأة تفعل هذا الفعل. وقالوا في معنى نقضت غزلها من بعد قوة، نحوًا مما قلنا.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لمن نقض العهد الذي يعطيه، ضرب الله هذا له مثلًا بمثل التي غزلت ثم نقضت غزلها، فقد أعطاهم ثم رجع، فنكث العهد الذي أعطاهم.

وقوله: ﴿أَنكَاثًا﴾ يعني: أنقاضا، وكلّ شيء نُقِض بعد الفتل فهو أنكاث، واحدها: نكْث حبلا كان ذلك أو غزلا يقال منه: نَكَث فلان هذا الحبل فهو ينكُثُه نكثا، والحبل منتكِث: إذا انتقضت قُواه. وإنما عني به في هذا الموضع نكث العهد والعقد. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ يقول تعالى ذكره: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتموه ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ يقول: خديعة وغرورًا ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد والنُّقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أن غيرهم أكثر عددًا منهم. والدَّخَل في كلام العرب: كلّ أمر لم يكن صحيحًا، يقال منه: أنا أعلم دَخَل فلان ودُخْلُلَه وداخلة أمره ودخلته ودخيلته.

وأما قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ فإن قوله أربى: أفعل من الربا، يقال: هذا أربى من هذا وأربأ منه، إذا كان أكثر منه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ يغرّ بها، يعطيه العهد يؤمنه وينزله من مأمنه، فتزلّ قدمه وهو في مأمن، ثم يعود

يريد الغدر، قال: فأوّل بدو هذا قوم كانوا حلفاء لقوم تحالفوا، وأعطى بعضهم بعضا العهد، فجاءهم قوم قالوا: نحن أكثر وأعزّ وأمنع، فانقضوا عهد هؤلاء وارجعوا إلينا، ففعلوا، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي أربى: أكثر من أجل أن كانوا هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء، فكان هذا في هذا، وكان الأمر الآخر في الذي يعاهده فينزله من حِصْنه ثم ينكث عليه، الآية الأولى في هؤلاء القوم وهي مبدؤه، والأخرى في هذا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: إنما يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بعهد الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمره ونهيه من العاصي المخالف أمره ونهيه ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أن المؤمن بالله كان يقرّ بوحدانية الله ونبوّة نبيه، ويصدق بما ابتعث به أنبياءه، وكان يكذّب بذلك كله الكافر فذلك كان اختلافهم في الدنيا الذي وعد الله تعالى ذكره عباده أن يبينه لهم عند ورودهم عليه بما وصفنا من البيان.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان. ﴿أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر، من ربى الشيء يربو إذا كثر. والضمير في« به» يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء، أي: أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على

بعض، واختبرهم بذلك من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ من البعث وغيره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْۚ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيما ثبت عنه في الصحيحين(١): «**إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا**». وفي رواية: «**وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي**» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع.

... ثم قال:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ قال عبد الله بن كثير، والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه.

(١) البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩).

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنكَٰثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أي: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرًا، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾، أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا في مواضع أُخر؛ كقوله في «الأنعام»: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥٢]، وقوله في «الإسراء»: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقد قدمنا هذا «في الأنعام». وبين في مواضع أخر: أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك؛ وذلك في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]، وبين في مواضع آخر: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن؛ وذلك في قوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ...﴾ الآية [المائدة: ١٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه

فقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدون ﴿كَفِيلًاۚ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَٱلَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًا فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه.

س: في قولــه تعــالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى نوعٍ من أنواع الابتلاءات، وهي الابتلاءات بتيسير أسباب المعاصي وضح ذلك.

ج: إيضاحه - كما تقدم- أن القوم كانوا يعاهدون قومًا فإذا جاء آخرون أقوى وأكثر نقضوا العهد الأول، فالذي ساق القوم الآخرين هو الله ﷻ، ساقهم الله ابتلاءً واختبارًا ينظر ماذا سيصنع هؤلاء الذين عاهدوا هل يفون بالعهد أم لا؟ ولذلك صور فمنها: أن يبيع الشخص بيتًا بمائة ألف ويتمم البيع لكنه لم يكتبه فيأتي مشترٍ آخر يعرض مائتي ألف فينقض البائع البيع الأول ظُلمًا وعدوانًا من أجل السِّعر الجديد المعروض له.وكذا فتاة مخطوبة معلومٌ أنها مخطوبة لفلان فيسوق الله شخصًا آخر يعرض نفسه فينقض أهل المخطوبة الخطبة الأولى طمعًا في ثراء الخاطب الجديد، وهكذا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ج: المعنى- والله تعالى أعلم-: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة متفقين في كل شيء على قلب رجل واحد، فلا تختلفون، ولكن الله ﷻ شاء أن يجعل منكم الوفيَّ ويجعل منكم الخائن، وكذا يجعل منكم المؤمن ويجعل منكم الكافر فيضل من يشاء عن طريق الحق، ويوفق من يشاء لطريق الحق والصواب، ولتُسألن يوم القيامة عن أعمالكم التي عملتوها.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده،

فصرتم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفَّق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملة واحدة. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بخذلانه إياهم، عدلًا منه فيهم. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إياهم، فضلا منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم. والآية ترد على أهل القدر كما تقدم. واللام في «وليبينن ولتسئلن» مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أي والله ليبينن لكم ولتسئلن.



التحذير من أن تتسبب في إغواء شخص

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولا تتخذوا أيمانكم التي أقسمتموها عند العهود، لا تتخذوها لغش الناس وخديعتهم والمكر بهم فتتسببوا في ردة قومٍ بعد أن اقتربوا من طريق الهداية وتذوقوا العذاب بما أحدثتموه للناس من ردةٍ عن طريق الخير وانحرافٍ عن طريق الصواب، ولكم عذاب عظيم يوم القيامة وبإيضاح آخر، فالشخص المسلم ذو السمت الطيب والمظهر الحسن الموافق للكتاب والسنة يقبل عليه الناس ويحبونه ويوشكوا - لما يرونه من كريم أخلاقه - أن يدخلوا في الإسلام، فإذا رأوه عاهد وغدر، أو وعد فأخلف أو غش ودلَّس انصرفوا عن الدين بسببه، فيعاقبه الله ﷻ لما تسبب في انصراف من انصرف عن الدين، يعاقبه ربه في الدنيا وفي الآخرة بما تسبب فيه للناس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم دَخَلا وخديعة بينكم، تغرون بها الناس ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ يقول: فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين. وإنما هذا مثل لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطة بعد سلامة، وما أشبه ذلك: (زلَّت قدمه)، كما قال الشاعر:

سَيَمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سابِقا ... وتُلْطَعُ إنْ زَلَّتْ بِكَ النَّعْلانِ

وقوله: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ يقول: وتذوقوا أنتم السوء وذلك السوء: هو عذاب الله الذي يعذّب به أهل معاصيه في الدنيا، وذلك بعض ما عذّب به أهل الكفر ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ يقول: بما فَتنتم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن الإيمان ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ في الآخرة، وذلك نار جهنم،

وهذه الآية تدلّ على أن تأويل بُرَيْدة الذي ذكرنا عنه، في قوله: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ والآيات التي بعدها، أنه عُنِيَ بذلك: الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، عن مفارقة الإسلام لقلة أهله، وكثرة أهل الشرك هو الصواب، دون الذي قال مجاهد أنهم عنوا به، لأنه ليس في انتقال قوم تحالفوا عن حلفائهم إلى آخرين غيرهم، صدّ عن سبيل الله ولا ضلال عن الهدى، وقد وصف تعالى ذكره في هذه الآية فاعِلِي ذلك، أنهم باتخاذهم الأيمان دَخَلا بينهم، ونقضهم الأيمان بعد توكيدها، صادّون عن سبيل الله، وأنهم أهل ضلال في التي قبلها، وهذه صفة أهل الكفر بالله لا صفة أهل النُّقْلة بالحلف عن قوم إلى قوم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم حذر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلًا أي: خديعة ومكرًا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كرر ذلك تأكيدًا. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس، أي: لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي: عن الأيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه، لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى

حال شر، ومن هذا المعنى قول كثير:

فلمـــا توافينـــا ثبـــت وزلـــت

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زلت قدمه، كقول الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقا وتقتل إن زلت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء: زل فيه ثم توعد تعالى بعد، بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ، فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج من الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بصدكم. وذوق السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعًا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث ضللتم وأضللتم غيركم ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ مضاعف.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولا تعتاضوا عن الوفاء بالعهود والمواثيق

والأيمان بأعراض دنيوية زائلة فانية فالوفاء بالعهود أولى من أعراض دنيوية زائلة، وما عند الله من النعيم الذي أعدَّه الله لمن أوفى بالعهد خير من هذا العرض الزائل المتأتي من وراء نقض العهود إن كنتم تعلمون ذلك.

ثم بيَّن الله ﷻ أنكم مهما جمعتم من حطام الدنيا فإنه سينفذ ويزول، وما عند الله باق، كما قال تعالى في النعيم المعدُّ لأهل الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ على الوفاء بالعهود فلم ينقضوها وصبروا على أوامر الله ﷻ فامتثلوها، وصبروا عن المحارم فلم يقترفوها، لنجزينهم أجرهم أحسن الجزاء وأتمه وأوفره على صبرهم الذين صبروا وعملهم الصالح الذي عملوا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا تنقضوا عهودكم أيها الناس، وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكِّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بعهد الله الذي أمركم بالوفاء به، يثبكم الله على الوفاء به، فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون، فضل ما بين العِوَضين اللذين أحدهما الثمن القليل، الذي تشترون بنقض عهد الله في الدنيا، والآخر الثواب الجزيل في الآخرة على الوفاء به، ثم بين تعالى ذكره فرْق ما بين العِوَضين وفضل ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم أيها الناس مما تتملكونه في الدنيا، وإن كَثُر فنافدٌ فان، وما عند الله لمن أوفى بعهده وأطاعه من الخيرات باق غير فانٍ، فلما عنده فاعملوا وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا. وقوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وليثيبنّ الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في السّراء والضرّاء، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في

رضاه، بأحسن ما كانوا يعملُون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرنّ الله لهم سيئها بفضله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾.

أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ قسم من الرب ﷻ مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن ما عنده من نعيم الجنة باق لا يفنى، وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ [ص:٥٤]، وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٢-٣]،إلى غير ذلك من الآيات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد، أي: لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. وإنما كان

قليلا وإن كثر لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وثبت على العقد.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ أي: على الإسلام والطاعات وعن المعاصي. أي: من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مؤمنٍ رجلًا كان أو امرأة يعمل عملًا صالحًا موافقًا للكتاب وللسنة مُخلصًا في ذلك لله ﷻ فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بأن نمن عليه بالسعادة والرزق الحلال الطيب الحسن، والقناعة بما آتيناه ورضى القلب والنفس بذلك وراحة البال، فكل هذا يدخل في الحياة الطيبة في الدنيا، ولنجزينهم يوم القيامة أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ففيها ما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن: يقول: وهو مصدّق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

واختلف أهل التأويل في الذي عَنى الله بالحياة الطيبة التي وعد هؤلاء القوم أن يُحْيِيهموها، فقال بعضهم: عنى أنه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها

(٢٧٠) أحمر
أسود

بالرزق الحلال.

وأورد نحو ذلك من وجوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال آخرون: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ بأن نرزقه القناعة.

وقال آخرون: بل يعني بالحياة الطيبة الحياة مؤمنًا بالله عاملًا بطاعته.

وقال آخرون: الحياة الطيبة السعادة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن قال: لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة.

ونحوه بسندٍ حسن عن قتادة قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وهي الجنة.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: الحياة الطيبة في الآخرة: هي الجنة، تلك الحياة الطيبة، قال ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وقال: ألا تراه يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤]، قال: هذه آخرته. وقرأ أيضًا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، قال: الآخرة دار حياة لأهل النار وأهل الجنة، ليس فيها موت لأحد من الفريقين.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نَصَبه ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.

وإنما قلت ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية، لأن الله تعالى ذكره أوعد قوما قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟

ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أتبع ذلك لمَن أوفى بعهد الله وأطاعه فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باق، فالذي هذه السيئة بحكمته أن يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحسان في الدنيا، والغفران في الآخرة، وكذلك فَعَلَ تعالى ذكره.

وأما القول الذي رُوي عن ابن عباس أنه الرزق الحلال، فهو مُحْتَمَل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال، وإن قلّ فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حله. لا أنه يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أن أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رُزِقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة.

وقوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ فذلك لا شك أنه في الآخرة. وكذلك قال أهل التأويل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: أقوال العلماء في تفسير الحياة الطيبة، على نحو مما ذكره الطبري، وقال: والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل

هذا كله، وأورد ما أخرجه أحمد ومسلم[1]، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمرو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ورُزق كَفَافًا، وقَنَّعه اللهُ بِمَا آتَاهُ**».

وما أخرجه أحمد ومسلم[2] أيضًا من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إن اللهَ لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُعْطِيهِ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا**».

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان والإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.



(١) أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (١٠٥٤).
(٢) أحمد (٣/ ١٢٣)، ومسلم (٢٨٠٨).

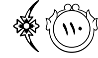
(٢٧٣) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً
مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا
يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ
صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ

(٢٧٤) أحمر

أسود

هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ
مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ


[النحل: ٩٨-١١٠]

(٢٧٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ - سُلۡطَٰنٌ - يَتَوَكَّلُونَ - يَتَوَلَّوۡنَهُۥ - هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ - مُفۡتَرٍۢ - رُوحُ ٱلۡقُدُسِ - يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ - أَعۡجَمِيٌّ - لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ - شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا - ٱلۡغَٰفِلُونَ - لَا جَرَمَ - فُتِنُواْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾	اطلب من الله أن يعيذك ويحفظك.
﴿سُلۡطَٰنٌ﴾	حجة - تسلّط.
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون.
﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾	يتخذونه وليًّا ويطيعونه ويتبعونه.
﴿هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾	هم بالله مشركون، وقيل: هم بالشيطان مشركون، ويجعلونه شريكًا لله فيطيعوه ويتبعوه.
﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾	جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.
﴿يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾	يميلون إليه في نسبة القرآن إليه.
﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾	لا يتكلم العربية ولا يستطيع الإفصاح للعرب بما يريد
﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾	لا يوفقهم الله.
﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا﴾	وسع صدره للكفر وقَبِلَهُ.
﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾	الساهون (عن الحق وعما أُعِدَّ لهم من العذاب).
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا.
﴿فُتِنُواْ﴾	عُذِّبوا - صرفوا عن دينهم وأشركوا وهم مكرهون.

(٢٧٦) أحمر
أسود

التعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند التلاوة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: فإذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله قبل القراءة من الشيطان الرجيم، أي: اطلب من الله ﷻ أن يعيذك من الشيطان المرجوم حتى لا يُلبس عليك قراءتك، وحتى لا يفقدك التدبر والتأمل والتفكر، وحتى لا يحول بينك وبين الاستفادة من القرآن الكريم، ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الشيطان ليس له تسلطٌ بالحجة على أهل الإيمان المخلصين الذين آمنوا وأحسنوا الاعتماد على ربهم ﷻ، فهؤلاء ليس للشيطان عليهم تسلط بالحجة، وليس عليهم تسلط بإيقاعهم في الشرك أو بإيقاعهم في ذنب لا يتوبون منه، إنما تسلُّطه على الذين يتخذونه وليًّا لهم فيسمعوا له ويطيعوا، وتسلطه أيضًا على الذين هم بالله مشركون، أي: على أهل الشرك بالله.

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ﴾ قيل: أي بالله ﴿مُشْرِكُونَ﴾، وقال: ﴿بِهِ﴾ أي: بالشيطان، أي: جعلوا الشيطان شريكًا لله بطاعتهم له، وباتباعه فيما حلل وحرَّم، وبجعلهم نصيبًا من الحرث والأنعام للشيطان وللآلهة المعبودة من دون الله. فهؤلاء هم الذين يتسلط عليهم الشيطان ويوقعهم في الكفر والعصيان والفواحش والكبائر وغير ذلك من المحرمات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا كنت يا محمد قارئًا القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم قال:

وليس قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع، أن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم. قبل قرأته أو بعدها أنه لم يضيع فرضًا واجبًا.

ثم قال:

وأما قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فإنه يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهاهم الله عنه ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يقول: وعلى ربهم يتوكلون فيما نابهم من مهمات أمورهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يقول: إنما حجته على الذين يعبدونه، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ يقول: والذين هم بالله مشركون.

ثم قال:

وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم فيه بما قلنا إن معناه: والذين هم بالله مشركون.

وقال آخرون: معنى ذلك: والذين هم به مشركون، أشركوا الشيطان في أعمالهم.

واختار الطبري القول الأول: الذي حاصله أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ﴾ عائدة على الرب في قوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة.

ثم قال:

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

ثم قال:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ أي: أشركوا في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

وأظهر الأقوال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾، أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله. ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: ٦٠]، وقوله عن إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له على أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة، بغير موجب يستوجب ذلك.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى: فاذا أردتَ القراءة فاستعذ، ومثله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب ٥٣]، وقوله: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾.

[المجادلة: ١٢]

ومثله في الكلام: إِذا أكلت فقل: باسم الله، هذا قول عامة العلماء واللغويين.

والثاني: أنه على ظاهره، وأن الاستعاذة بعد القراءة. روي عن أبي هريرة، وداود.

والثالث: أنه من المقدَّم والمؤخَّر، فالمعنى: فإذا استعذت بالله فاقرأ، قاله أبو حاتم السجستاني، والأول أصح.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » متدبرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدًا في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة مجتهدًا، على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبق له عليهم سبيل.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي: تسلطه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يجعلونه لهم وليًّا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزَّهم إلى المعاصي أزًّا وقادهم إلى النار قَوْدًا.



دفع إشكال

س: ذكر الله ﷻ ما يفهم منه أن الشيطان له تسلط على الغواة من العباد إذ قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. ونفى الله في آية أخرى سلطان الشيطان عليهم (كما يفهم من الآيات) إذ قال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [سبأ: ٢١]، وقال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فكيف الجمع بين الآيات التي أثبتت سلطانه على الغواة، والآيات التي نفت ذلك؟

ج: أجاب العلماء على ذلك بجوابين:

أحدهما: أن السلطان المثبت غير السلطان المنفي فالسلطان المثبت هو تزيينه المعاصي وتحسينه لها، أما السلطان المنفي فهو سلطان الحجة والغلبة، فليس له حجة، وليست له غلبة.

الثاني: أن الله لم يجعل للشيطان حجة على العباد ابتداء، بل هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعتهم له.



س: ما وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ مع أن أهل الإيمان قد تصدر منهم معاصي؟

ج: في هذا والله أعلم وجوهٌ:

أحدها: لا يستطيع الشيطان أن يحمل المتوكلين على الله المؤمنين بالله لا يستطيع أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، بل إن أذنبوا تابوا وأقلعوا ورجعوا.

الثاني: لا يستطيع الشيطان أن يوقعهم في الشرك كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا

تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣].

الثالث: أنه لا حجة له عليهم، بل وإن عملوا ذنبًا فهم مقرون أنه ذنب.



س: هل الاستعاذة قبل القراءة أم بعدها؟

ج: بل قبل القراءة قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن تدبره والعمل بما فيه، وليس يريد استعذ بعد القراءة، بل هو كقولك إذا أكلت فقل بسم الله، أي إذا أردت أن تأكل. وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين افتتح الصلاة قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه**». وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة. قال الكيا الطبري: ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقًا، احتجاجًا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣]. إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم. ومثله قول القائل: إذا قلت فاصدق، وإذا أحرمت فاغتسل، يعني قبل الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردت ذلك، فكذلك الاستعاذة.



(٢٨٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإذا نسخنا آية وجئنا مكانها بآية أُخرى، أو رفعنا آية من الصدور وأتينا مكانها بآية أخرى، أو أبقينا آية ولكن نسخنا العمل بها بآية أُخرى، كما قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فإذا نسخنا آية وبدلناها بآية أخرى، والله أعلم بالذي نسخ وبالذي نزل، وبالذي رُفع من الصدور، لو بدلنا آية مكان آية لقال أهل الكفر إنما أنت مفتر لهذا القول من عند نفسك، ولم يُنزل الله عليك كتابًا، قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لا يعلمون أن الله الذي أنزل القرآن وبدل آية مكان آية، فقل لهؤلاء المنكرون الجاحدون، قل لهم نزَّل هذا القرآنَ روحُ القدس، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، نزل به من عند الله بالحق حاملًا الحق مشتملًا على الحق، ونزوله أيضًا بالحق، نزل به ليثبت الذين آمنوا على إيمانهم، ونزل به هداية، وتوفيقًا وإرشادًا لأهل الإيمان، نزل به بشارةً لأهل الإسلام بجنات النعيم، ورضوان رب العالمين.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبو رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ

(٢٨٣) أحمر
أسود

الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للقائلين لك إنما أنت مفتر فيما تتلو عليهم من آي كتابنا، أنزله روح القُدُس: يقول: قل جاء به جَبرئيل من عند ربي بالحقّ.

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول تعالى ذكره: قل نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه، روح القدس عليّ من ربي، تثبيتا للمؤمنين، وتقوية لإيمانهم، ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيمانًا لإيمانهم، وهدى لهم من الضلالة، وبُشرى للمسلمين الذين استسلموا لأمر الله، وانقادوا لأمره ونهيه، وما أنزله في آي كتابه، فأقرّوا بكل ذلك،وصدقوا به قولًا وعملًا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦].

فقال تعالى مجيبا لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل، ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولًا وثانيًا وتخبت له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: وجعله هاديا مهديًا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

ج: هذه مواساة لرسول الله ﷺ وتصبيرٌ له فيقسم الله ﷻ أنه يعلم ما يقوله أهل الكفر في شأن رسول الله ﷺ والقرآن الذي يتلوه، إنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ يعلمه هذا القرآن بشرٌ، وقصدوا بذلك رجلًا أعجميًّا، لا يتكلم اللغة العربية، على اختلاف بين العلماء في تسمية هذا الأعجمي، فالحاصل أنهم نسبوا القرآن إلى رجل، وقالوا إن هذا الرجل اقتبسه من أساطير الأولين، وحكاياتهم وعلمه رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، فقل يا رسول الله لهؤلاء الذين قالوا إن بشرًا يعلمك، قل لهم هذا الذي تميلون إليه وتتركون قولة الحق، فتقولون إنه علمني وتعدلون عن القول بأن الله أوحى إليَّ هذا القرآن، هذا الرجل الذي تزعمون أنه علمني رجل أعجمي لا يجيد اللغة العربية ولا يتقنها، فكيف تزعمون أنه علمني والقرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلًا منهم: إنما يعلم محمدًا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم، وما هو من عند الله، يقول الله تعالى ذكره مكذّبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون، إن لسان الذي تلحدون إليه: يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمدًا أعجميّ، وذلك أنهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أن الذي يعلِّم محمدًا هذا القرآن عبد روميّ، فلذلك قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ يقول: وهذا القرآن لسان عربيّ مبين.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف منهم في اسم الذي كان المشركون يزعمون أنه يعلِّم محمدًا ﷺ هذا القرآن من البشر، فقال بعضهم: كان اسمه بَلْعام، وكان قَينا بمكة نصرانيًّا.

وقال آخرون: اسمه يعيش.

وقال آخرون: بل كان اسمه جَبْر.

وقال آخرون: بل كانا غلامين اسم أحدهما يسار والآخر جَبْر.

وقال آخرون: بل كان ذلك سَلْمان الفارسي.

... إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تستند إلى دليل صحيح.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: أن محمدًا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعًا يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، أقسم جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به

النَّبي ﷺ ليس وحيًا من الله، وإنما تعلمه من بشر من الناس.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: ٥]، وقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾ [المدثر: ٢٤]، أي: يرويه محمد ﷺ عن غيره، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٠٥]، كما تقدم في «الأنعام».

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾، أي: يميلون عن الحق. والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي: يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه؛ أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي: ذو بيان وفصاحة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن الذين لا يصدقون بحجج الله ﷻ، بل يكذبونها ويصرفون الناس عليها، فهؤلاء لا يوفقهم الله ﷻ للإيمان، بل وأعد الله لهم أليم العذاب، وهو جهنم والعياذ بالله، والآية كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]. ثم بين الله ﷻ أن الكذبة والمفترين ليسوا هم الأنبياء والرسل وأهل الإيمان والصلاح إنما الذين يفترون الكذب على الله هم المكذبون بآياته فأولئك هم أهل الكذب، وهم أولى به وهم أحق بأن يكونوا له أهلًا.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: إن الذين لا يؤمنون بحجج الله وأدلته، فيصدّقون بما دلَّت

عليه ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: لا يوفقهم الله لإصابة الحقّ، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع. ثم أخبر تعالى ذكره المشركين الذين قالوا للنبيّ ﷺ: إنما أنت مفتر، أنهم هم أهل الفرية والكذب، لا نبيّ الله ﷺ، والمؤمنون به، وبرأ من ذلك نبيه ﷺ وأصحابه، فقال: إنما يتخرّص الكذب، ويتقوّل الباطل، الذين لا يصدّقون بحجج الله وإعلامه، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابًا، ولا يخافون على الكذب عقابًا، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب، لا من كان راجيًا من الله على الصدق الثواب الجزيل، وخائفًا على الكذب العقاب الأليم. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ يقول: والذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب لا المؤمنون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانَ فِيمَا قال له: أو كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ

(٢٨٨) أحمر
أسود

مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ: هِرَقْلُ فَمَا كَانَ لِيَدع الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ ﷻ[١].



س: هـل صـح لقولـه تعـالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ سـبب نزول؟

ج: أورد الطبري عدة آثار في سبب نزول الآية، وذلك أنها في عمار بن ياسر رضي الله عنهما حين أكره وتلفظ بكلمة الكفر وهو مكرهٌ.

وهذه الآثار التي أوردها الطبري لا يخلو إسناد أثرٍ منها من مقال، لكنها بمجموع طُرقها تُحسَّن، والله أعلم، هذا ومن هذه الآثار أثر أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟** قال: مطمئنًا بالإيمان. قال النبيّ ﷺ: **فإِنْ عادُوا فَعُدْ**».

وكما أسلفت فإنه ضعيف الإسناد ولكن له شواهد يُحسَّن بها، والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: من كفر بالله ﷻ بعد أن آمن به، وهذه تشمل المرتد عن دينه، وقد يحمل الإيمان على بعض معانيه، أي: من جحد وحدانية

(١) بنحوه أخرجه البخاري (حديث ٦، وفي غير موطن من صحيحه)، ومسلم (١٧٧٣) وغيرهما.

الله ﷻ، بعد أن أقرَّ بان الله خالقه ورزاقه، فهذا الذي شرح بالكفر صدره، وسع صدره لقبول الكفر وللجحود بوحدانية الله ﷻ وتكذيب رسله فهؤلاء عليهم غضب من الله ولهم يوم القيامة عذاب عظيم، لكن من أكره على كلمة الكفر وأُجبر عليها، وعذِّب وقلبه مطمئن بالإيمان فهؤلاء وإن تكلموا بالكفر وهم مكرهون عليه فالله ﷻ يعفو عنهم، فهو رحيم ولا يكلف نفسًا إلى وسعها، وقد قال كثيرون من أهل العلم إن الآية الكريمة نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنهما أُكره على أن يتكلم بكلمة الكفر فمثله معفو عنه للإكراه، أما الذين رضوا بالكفر وانشرحت له صدورهم فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك العذاب؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا ففضلوها على الآخرة، وأقبلوا على دنياهم ونسوا أُخراهم، فاستحقوا العذاب لذلك؛ ولأن الله ﷻ لا يوفق القوم الجاحدين لوحدانيته المنكرين لآياته المكذبين رسله، فأولئك أهل الكفر الذين لا يهديهم الله هم الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلا يعقلون شيئًا من الخير والإيمان ولا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا يبصرون ما ينفعهم وأولئك هم الغافلون، الساهون عما أُعد لهم من العذاب الأليم، فحقًّا أنهم في الآخرة هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم يوم القيامة.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

أورد الطبري رحمه الله آثارًا في كون الآية الكريمة نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنهما ثم قال:

فتأويل الكلام إذن: من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره على الكفر، فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئنّ بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعًا، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم.

(٢٩٠) أحمر
أسود

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: حلّ بهؤلاء المشركين غضب الله، ووجب لهم العذاب العظيم، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء المشركون الذين وصفت لكم صفتهم في هذه الآيات أيها الناس، هم القوم الذين طبع الله على قلوبهم، فختم عليها بطابعه، فلا يؤمنون ولا يهتدون، وأصمّ أسماعهم فلا يسمعون داعي الله إلى الهدى، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر ومتعظ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ يقول: وهؤلاء الذين جعل الله فيهم هذه الأفعال هم الساهون، عما أعدّ الله لأمثالهم من أهل الكفر وعما يراد بهم.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ الهالكون، الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها من كرامة الله تعالى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما

يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: في غاية الشدة مع أنه دائم أبدًا. و﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدًا في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه

عليها. ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ...﴾ سبب نزول؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثنا أحمد بن منصور، قال: ثنا أبو أحمد الزبيري، قال: ثنا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، وقُتِل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]... إلى آخر الآية؛ قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]... إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كلّ خير، ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجًا، فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، ثم نجا من نجا، وقُتِل من قُتِل(١).



(١) وله شاهد عند الطبري من مرسل قتادة.

وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ج: هؤلاء - والله أعلم-: قوم كانوا بمكة لم يهاجروا ففتنهم قومهم، وللفتنة صورتان:

إحداهما: أنهم عذبوهم وآذوهم حتى اضطروهم إلى الهجرة.

والثانية: أنهم صرفوهم عن إيمانهم إلى الشرك بالله، فقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي: من بعد ما عذبوا أو من بعد ما صرفوا عن دينهم وأكرهوا على ذلك، ثم هاجروا من بلادهم وآثروا مرضاة ربهم ﷻ على ملذات الدنيا، ثم اتبعوا الهجرة بالجهاد في سبيل الله لنصرة دين الله ﷻ، وصبروا على أقدار الله وعلى ما أصابهم وصبروا على أوامر الله ﷻ، وامتنعوا عما نهاهم عنه إن ربك من بعد هذه الفتنة التي وقعوا فيها وتوبتهم منها لغفور رحيم على ما بدر منهم وصدر، وقيل: من بعدها، أي: من بعد الهجرة والتوبة والجهاد والصبر، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ يقول: إن ربك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور، يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان

معتقدون، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبًا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ
يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا
حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ
أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩ ﴾

[النحل: ١١١-١١٩]

(٢٩٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿تُجَـٰدِلُ - لَا يُظْلَمُونَ - رَغَدًا - فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ - حَلَٰلًا - ٱضْطُرَّ - غَيْرَ بَاغٍ - وَلَا عَادٍ -يَفْتَرُونَ - ٱلَّذِينَ هَادُواْ - ٱلسُّوٓءَ -بِجَهَٰلَةٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تُجَـٰدِلُ﴾	تخاصم - تدافع - تحاجج.
﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾	لا يبخسون شيئًا من حقوقهم.
﴿رَغَدًا﴾	واسعًا.
﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾	فجحدت نعم الله، ولم تقدم لها شكرًا.
﴿حَلَٰلًا﴾	في حال كونه حلالًا أحلَّه الله ولم يكن مُحرمًا أو مغصوبًا.
﴿ٱضْطُرَّ﴾	ألجأته الضرورة.
﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾	غير راغب في أكل الحرام.
﴿وَلَا عَادٍ﴾	ليس بآكل أكثر من حاجته.
﴿يَفْتَرُونَ﴾	ينسبون إلى الله ما لم يقله.
﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾	اليهود.
﴿ٱلسُّوٓءَ﴾	السيئات - المحرمات.
﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾	جهلهم هو فعلهم المعاصي واستخفافهم بحق الله، فكل من عصى الله فهو جاهل.

من مشاهد القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يوم تأتي كل نفس تدافع عن نفسها وتخاصم عن نفسها وتحاجج عن نفسها، فهي مشغولةٌ بنفسها، وعندها تأخذ كلُّ نفس حقها مستوفى كاملًا من خير أو شرٍّ وهم لا يبخسون شيئًا من حقوقهم، لا ينقصون شيئًا من حقوقهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ تخاصم عن نفسها، وتحتجّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خير أو شرّ أو إيمان أو كفر، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾: يقول: وهم لا يفعل بهم إلا ما يستحقونه ويستوجبونه بما قدّموه من خير أو شرّ، فلا يجزى المحسن إلا بالإحسان ولا المسيء إلا بالذي أسلف من الإساءة، لا يعاقب محسن ولا يبخس جزاء إحسانه، ولا يثاب مسيء إلا ثواب عمله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾ أي: تحاج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيرًا.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوى

نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٤].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وضرب الله مثلًا لزوال النعم بالمعاصي، ضرب حال أهل مكة مثلًا لذلك، فمكة كانت آمنة مطمئنة، وأهلها آمنون مطمئنون تأتيهم الأرزاق والسعة طيبة من كل مكان، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة قريش]، وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] فكفر أهل هذه القرية بنعم الله وجحدوها وأنكروا نبوة الرسول الأمين الذي أنعم الله عليهم ببعثته إليهم، فبدل الله أمنهم خوفًا، ورزقهم جوعًا بسبب صنيعهم الذي صنعوا، وكفرهم الذي كفروا وجحدهم الذي جحدوا. ولقد جاءهم رسول منهم يعرفونه ويعرفون نسبه وصدقه فكذبوه فأخذهم الله بالعذاب وهم على شركهم وضلالهم، فعذِّبوا يوم بدر بقتل سادتهم وكبراءهم، وعذبوا بجوع تسلط عليهم حتى رأوا الدخان في السماء من شدة الجوع، وأكلوا الميتة والجيف والجلود، عياذًا بالله فليحذر المؤمن من مقابلة نعم الله بالجحود والنكران.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول الله تعالى ذكره: ومثل الله مثلًا لمكة التي سكنها أهل الشرك بالله هي القرية التي كانت آمنة مطمئنة، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى، ويقتل بعضها بعضا، ويَسْبي بعضها بعضًا، وأهل مكة لا يغار عليهم، ولا يحارَبون في بلدهم، فذلك كان أمنها. وقوله: ﴿مُّطۡمَئِنَّةً﴾ يعني: قارّة بأهلها، لا يحتاج أهلها إلى النَّجْع، كما كان سكان البوادي يحتاجون إليها ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا﴾ يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة. وقوله ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يعني: من كلّ فجّ من فِجاج هذه القرية، ومن كلّ ناحية فيها.

وقال آخرون: بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ يقول تعالى ذكره: فأذاق الله أهل هذه القرية لباس الجوع، وذلك جوع خالط أذاه أجسامهم، فجعل الله تعالى ذكره ذلك لمخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لها. وذلك أنهم سلط عليهم الجوع سنين متوالية بدعاء رسول الله ﷺ، حتى أكلوا العلهز والجِيَف. قال أبو جعفر: والعلهز: الوبر يعجن بالدم والقُراد يأكلونه؛ وأما الخوف فإن ذلك كان خوفهم من سرايا رسول الله ﷺ التي كانت تطيف بهم. وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ يقول: بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله، ويجحدون آياته، ويكذّبون رسوله، وقال: بما كانوا يصنعون، وقد جرى الكلام من ابتداء الآية إلى هذا الموضع على وجه الخبر عن القرية، لأن الخبر وإن كان جرى في الكلام عن القرية، استغناء بذكرها عن ذكر أهلها لمعرفة السامعين بالمراد منها، فإن المراد أهلها فلذلك قيل ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ فردّ الخبر إلى أهل القرية، وذلك نظير قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: ٤]،

ولم يقل قائلة، وقد قال قبله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾، لأنه رجع بالخبر إلى الإخبار عن أهل القرية، ونظائر ذلك في القرآن كثيرة.

يقول تعالى ذكره: ولقد جاء أهل هذه القرية التي وصف الله صفتها في هذه الآية التي قبل هذه الآية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يقول: رسول الله ﷺ منهم، يقول: من أنفسهم يعرفونه، ويعرفون نسبه وصدق لهجته، يدعوهم إلى الحقّ، وإلى طريق مستقيم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وذلك لباس الجوع والخوف مكان الأمن والطمأنينة والرزق الواسع الذي كان قبل ذلك يرزقونه، وقتل بالسيف ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝١١٣﴾ يقول: وهم مشركون، وذلك أنه قتل عظماؤهم يوم بدر بالسيف على الشرك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: والله، يعرفون نسبه وأمره، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝١١٣﴾، فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئًا سهلًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا

من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز- وهو: وبر البعير، يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَٱلۡخَوۡفِ﴾ وذلك بأنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سفال ودمار، حتى فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية، وقوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ هذا متصل بذكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**». فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعامًا ففرق فيهم. ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ لا يهاج أهلها. ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من البر والبحر، نظيره ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: ٥٧] الآية. ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنعم: جمع النعمة، كالأشد جمع

الشدة. وقيل: جمع نعمى، مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد ﷺ ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلها. ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سماه لباسًا؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: من الكفر والمعاصي.

ثم قال:

وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي ﷺ سراياه التي كانت تطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلًا لغيرها من البلاد، أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ قيل: إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية فحصل لها في مكة من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا

ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن، فقوله عن هذه القرية ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾، قال نظيره عن أهل مكة؛ كقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا...﴾ الآية [القصص: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ..﴾ الآية [العنكبوت: ٦٧] وقوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤]، وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا...﴾ الآية [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾، قال نظيره عن أهل مكة أيضًا؛ كقوله: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١-٤]، فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق؛ ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم: بأن أطعمهم من جوع؛ وقوله في دعوة إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ...﴾ الآية [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ...﴾ الآية [إبراهيم: ٣٧].

وقوله: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾، ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

[إبراهيم: ٢٨]

وقد قدمنا طرفًا من ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا...﴾ الآية [النحل: ٨٣].

وقوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾، وقع

(٣٠٤) أحمر
أسود

نظيره قطعًا لأهل مكة؛ لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلهز، وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن؛ وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ، وغزواته وبعوثه وسراياه. وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات؛ فقد فسر ابن مسعود آية «الدخان»، بما يدل على ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله حلالًا، أي: مما أحلَّه الله ولا يكون مغصوبًا ولا مسروقًا وكذا في حال كونه مُستساغًا مستلذًّا واشكروا الله على هذه النعمة، إن كنتم مفردين له بالعبادة والطاعة مُقرين بأنه المنعم المتفضل ﷻ، واعلموا أن الذي حرَّمه عليكم إنما هو الميتة والدم ولحم الخنزير، وكذا حرَّم عليكم ما ذُبح على غير اسم الله، وما توجه الذابح به إلى الأصنام وتقرب بذبحه لها أو لأي معبود غير الله ﷻ، أما ما يتقوله أهل الجاهلية من أن الله حرَّم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فهذا كله قول بالكذب، فقد قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾.

[المائدة: ١٠٣]

ثم إن هذه المحرمات التي حرمها الله عليكم ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ تباح لكم، ويباح لكم أكلها عند الاضطرار، الذي هو خشية

الموت أو التلف، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى الأكل ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير مريد أكل الحرام، أي: أنه لا يريد أكل ما حرمه الله عليه إلا أن الضرورة ألجأته لذلك ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متعد في أكله بأكل أكثر مما يحتاج إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ له إذا أكل، غير مؤاخذ له على أكله من المحرمات حال الضرورة، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ به إذا أحلَّ له عند الاضطرار الأكل من المحرمات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿فَكُلُواْ﴾ أيها الناس ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من بهائم الأنعام التي أحلها لكم ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ مُذَكَّاة غير محرّمة عليكم ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يقول: واشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم في تحليله ما أحلّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ يقول: إن كنتم تعبدون الله، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم. وكان بعضهم يقول: إنما عنى بقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ طعامًا كان بعث به رسول الله ﷺ إلى المشركين من قومه في سِنِي الجدب والقحط رقة عليهم، فقال الله تعالى للمشركين: فكلوا مما رزقكم الله من هذا الذي بعث به إليكم حلالًا طيبًا، وذلك تأويل بعيد مما يدلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى قد أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾... الآية والتي بعدها، فبين بذلك أن قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ إعلام من الله عباده أن ما كان المشركون يحرّمونه من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك مما قد بيَّنا قبل فيما مضى لا معنى له، إذ كان ذلك من خطوات الشيطان، فإن كلّ ذلك حلال لم يحرم الله منه شيئًا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

(٣٠٦) أحمر
أسود

يقول تعالى ذكره مكذِّبًا المشركين الذين كانوا يحرّمون ما ذكرنا من البحائر وغير ذلك: ما حرّم الله عليكم أيها الناس إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح للأنصاب، فسمي عليه غير الله؛ لأن ذلك من ذبائح مَنْ لا يحلّ أكل ذبيحته، فمن اضطرّ إلى ذلك أو إلى شيء منه لمجاعة حلَّت فأكله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة، رحيم به أن يعاقبه عليه.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾... الآية قال: وإن الإسلام دين يطهره الله من كلّ سوء، وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطرت إلى شيء من ذلك. قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ غير باغ في أكله ولا عاد أن يتعدّى حلالًا إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: احتاج من غير بغي ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرًا عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ. ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب والثناء على

الله بهــا وصــرفها في طاعــة الله. ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝١١٤﴾ أي: إن كنــتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى منه ذلك ميتة الجراد والسمك.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر.

﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى شيء من المحرمات -بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك- فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيًا أو عاديًا، أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١٧﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولا تقولوا كذبًا عن الأشياء هذا حلال وهذا حرام بمجرد وصف ألسنتكم لها بأنها حلال وحرام، إنما الحرام ما حرَّمه الله والحلال ما أحله الله، فإذا تقولتم على الأشياء وحللتم وحرَّمتم فقد افتريتم على الله الكذب، ونسبتم إليه ما لم يقله كذبًا عليه، وحينئذٍ فاحذروا فإن الذين يفترون على الله الكذب، ينسبون إليه ما لم يقله ﴿لَا يُفۡلِحُونَ ۝١١٦﴾ لا يفوزون

بمطلوبهم ولا ينجون من مرهوبهم، وأعظم مطلوب هو الجنة ورضوان الله، وأعظم مرهوب هو النار – عياذًا بالله –وسخط الله ﷻ.

فالحاصل أن المفترين على الله الكذب لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون من مرهوب، بل ما ينالونه متاعٌ قليل ولهم عذاب مؤلم موجع.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري بعد أن اختار بعض القراءات في الآية الكريمة:

ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبَ فيما رزق الله عباده من المطاعم: هذا حلال، وهذا حرام، كي تفتروا على الله بقيلكم ذلك الكذبَ، فإن الله لم يحرم من ذلك ما تُحرِّمون، ولا أحلّ كثيرًا مما تُحِلون، ثم تقدّم إليهم بالوعيد على كذبهم عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ يقول: إن الذين يتخرّصون على الله الكذب ويختلقونه، لا يخلَّدون في الدنيا، ولا يبقون فيها، إنما يتمتعون فيها قليلًا. وقال: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ فرفع، لأن المعنى الذي هم فيه من هذه الدنيا متاع قليل، أو لهم متاع قليل في الدنيا. وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ يقول: ثم إلينا مرجعهم ومعادهم، ولهم على كذبهم وافترائهم على الله بما كانوا يفترون عذاب عند مصيرهم إليه أليم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه.

(٣٠٩) أحمر
أسود

و «ما» في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

[يونس: ٦٩، ٧٠]

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبًا وافتراء على الله وتقولًا عليه.

﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا فإنه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلًا منه، وصيانة عن كل مستقذر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وعلى اليهود حرمنا ما قصصنا عليك من قبل هذه السورة، وذلك في سورة الأنعام، إذ الله قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وَمَا

ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ لما حرمنا عليهم ذلك، بل هم الذين ظلموا فلما ظلموا حرمنا ذلك عليهم كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]، فهم الذين ظلموا أنفسهم، ومن ثم حرموا أنفسهم من طيبات كانت لهم حلال، فمن تعدى وأكل منها عذَّبه الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وحرّمنا من قبلك يا محمد على اليهود، ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام، وذاك كلّ ذي ظفر، ومن البقر والغنم، حرمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظُهورهما أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريمنا ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فجزيناهم ذلك ببغيهم على ربهم، وظُلمِهم أنفسهم بمعصية الله، فأورثهم ذلك عقوبة الله.

وأورد عن عددٍ من أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ قالوا: المراد ما قصَّه الله في سورة الأنعام، إذ قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ...﴾ الآية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر -ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: في «سورة الأنعام» في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا

ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

ج: هذا -والله أعلم-: فيه فتحٌ لباب التوبة أمام مريد التوبة فالذين عملوا السيئات، وكل من أساء فهو جاهل- ثم تابوا من بعد عملهم هذا، أي: رجعوا إلى الله بعد أن كانوا بعيدين عنه، وأصلحوا أي: عملوا أعمالًا صالحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة والإنابة والإصلاح ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم إذ شرع له ما ييسر به عليهم وفتح باب التوبة لرجوعهم إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربك للذين عصوا الله فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية الله، وسَفُهوا بذلك ثم راجعوا طاعة الله والندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، من بعد ما سلف منهم ما سلف من ركوب المعصية، وأصلح فعمل بما يحبّ الله ويرضاه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ يقول: إن ربك يا محمد من بعد توبتهم له ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى تكرما وامتنانا في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة والذلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءًا بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠
شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا
حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ
إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ
فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ
وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ
أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن
صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ
وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

[النحل: ١٢٠-١٢٨]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿أُمَّةً - قَانِتًا لِّلَّهِ - حَنِيفًا - لِّأَنْعُمِهِ - ٱجْتَبَٰهُ - مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ - جُعِلَ ٱلسَّبْتُ - بِٱلْحِكْمَةِ - وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ - بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ - وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ - ضَيْقٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أُمَّةً﴾	إمامًا يقتدى به - مُعلما الناس الخير.
﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾	مُطيعًا لله - مُخبتًا له خاشعًا.
﴿حَنِيفًا﴾	مائلًا عن الشرك إلى التوحيد.
﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾	لنعمه.
﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾	اختاره - اصطفاه.
﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾	دين إبراهيم.
﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾	جُعل يوم السبت مُحرمًا فيه العمل.
﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾	قيل: بالكتاب والسنة، وقيل: المراد بالحكمة وضع الشيء في موضعه.
﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾	الكلام الطيب اللين.
﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	بالطريقة التي هي أحسن الطرق.
﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾	لن تستطيع أن تصبر إلا إذا صبرك الله، وما صبرك إلا من الله.
﴿ضَيْقٍ﴾	حرج - غمٍّ - همٍّ.



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن خليل الله إبراهيم عليه السلام كان إمامًا يُقتدى به في الخير، وكان أيضًا مُعلمًا الناس الخير، مُطيعًا لله عز وجل خاشعًا مُخبتًا له تبارك وتعالى، مَائلًا عن الشرك حَائدًا عنه ولم يكن أبدًا مشركًا عليه الصلاة والسلام، ولم يكن مشركًا كما يدعي مشركو العرب، أي نوع من أنواع الشرك، بل كان حنيفًا مسلمًا شاكرًا لنعم الله عليه، فمن ثَمَّ فلتوحيده وطاعته لله وإخباته وشركه اصطفيناه واخترناه من بين خلقنا في زمانه، بل واتخذناه خليلًا، وكذا وقضاه لسلوك الطريق المستقيم المقرب من الله عز وجل، الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وآتيناه في الدنيا حسنة، وهذه الحسنة تشمل الرزق الحسن والزوجة الصالحة الحسناء، والذرية الصالحة والثناء الحسن عليه بعد موته، ومن ذلك كوننا نصلي عليه وندعو له بالبركة في كل صلاة نصليها، ومن ذلك أخلاقه الكريمة المرضية المحمودة، ثم هو يوم القيامة له كذلك المنازل العلية في الجنان الفسيحة الرحيبة، له منازل المقربين من الصالحين الذين صلحت أحوالهم وشؤونهم مع ربهم عز وجل وصلحت قلوبهم ونواياهم فجوزوا بذلك أفضل الجزاء وأحسن الجزاء، ثم أمرناك يا محمد أن تتبع ملة إبراهيم التي كان عليها، وهي التوحيد الخالص لله عز وجل، تتبع دينه دين الإسلام مستقيمًا عليه، مائلًا مبتعدًا عن طريق المشركين فقد كان إبراهيم عليه السلام كذلك، كان حنيفًا مُسلمًا ولم يك من المشركين.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم خليل الله كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمّ به أهل الهدى قانتا، يقول: مطيعًا لله حنيفًا: يقول: مستقيمًا على دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ يقول: ولم يك يُشرك بالله شيئًا، فيكون من أولياء أهل الشرك به، وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء وأنهم منه براء ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ يقول: كان يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكًا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ يقول: اصطفاه واختاره لخُلته ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ يقول: وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: إن مُعاذا كان أُمَّة قانتًا لله، قال: فقال رجل من أشجع يُقال له فروة بن نوفل: نسي إنما ذاك إبراهيم، قال: فقال عبد الله: من نسي إنما كنا نشبهه بإبراهيم، قال: وسُئِل عبد الله عن الأمَّة، فقال: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله[1].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: وآتينا إبراهيم على قنوته لله، وشكره له على نعمه، وإخلاصه العبادة له في هذه الدنيا ذكرًا حسنا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيام ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢﴾ يقول: وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة لمن صلح أمره وشأنه عند الله، وحَسُنت فيها منزلته وكرامته.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ثم أوحينا إليك يا محمد وقلنا لك:

---

(١) وقد روي ذلك من وجوه متعددة عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة ﴿حَنِيفًا﴾ يقول: مسلمًا على الدين الذي كان عليه إبراهيم، بريئًا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرأ منها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما «الأمة»، فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم قال:

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائما بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ كما قال: في «الأنعام»: ﴿قُلْ

إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

[الأنعام: ١٦١]

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا. ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ أي: مديمًا لطاعة ربه مخلصًا له الدين، ﴿حَنِيفٗا﴾ مقبلًا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضًا عمن سواه. ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾﴾ في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقًا مرضية ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أثنى الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام: بأنه أمة؛ أي إمام مقتدى به،

يعلم الناس الخير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وأنه قانت لله، أي: مطيع له، وأنه لم يكن من المشركين، وأنه شاكر لأنعم الله، وأن الله اجتباه، أي: اختاره واصطفاه، وأنه هداه إلى صراط مستقيم.

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقوله عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه.

وقد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية، قال بعض العلماء: الحسنة التي آتاه الله في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن، ويستأنس لهذا بأن الله بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك: الذرية الطيبة. وأشار أيضًا لأنه جعل له ثناءً حسنًا باقيًا في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٣٢٠) أحمر
أسود

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أوحى إلى نبيِّنا ﷺ الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

وبين هذا أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ - إلى قوله - ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ ...﴾ الآية [الحج: ٧٧-٧٨]، وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ..﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات. والملة: الشريعة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق.



تحريم العمل يوم السبت على بني إسرائيل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إنما جُعل تعظيم يوم السبت وعدم الاعتداء فيه وتحريم الصيد وعدم العمل فيه، وكما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤] على بني إسرائيل فقط، كلُّ هذا ليس له تعلقٌ بكم يا أمة محمد ﷺ، وكذا لم يكن له تعلق بمن هم قبل بني إسرائيل الذين كانوا في زمن نبي الله موسى عليه السلام، فلم يُحرم العمل في السبت في شرعة إبراهيم عليه السلام، إنما جعل تعظيمه وتحريم العمل فيه على بني إسرائيل الذين اختلفوا فيه أما صورة اختلافهم فيه، فمن العلماء من قال إنهم عُرض عليهم تعظيم يوم الجمعة فرفضوه وصرفهم الله عنه، فاختاروا السبت فَشُدِّد عليهم فيه، كما قال النبي ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانُوا قَبْلَنَا»، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٤].

وثمَّ أقوال أُخر - تأتي في ثنايا أقوال العلماء، وما ذكرته عن بعضهم هو الظاهر لي، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في كل الأشياء التي اختلفوا فيها في دنياهم فيجازي الصادق المحسن المؤمن بإحسانه وصدقه وإيمانه، ويعاقب الكافر المسيئ الكاذب لكذبه وافترائه وإساءته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ما فرض الله أيها الناس تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو أعظم الأيام، لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة، ثم سَبَتَ يوم السبت.

وقال آخرون: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأنه اليوم الذي ابتدأ فيه خلق الأشياء، فاختاروه وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فَرَض الله عليهم تعظيمه واستحلوه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد ليحكم بين هؤلاء المختلفين بينهم في استحلال السبت وتحريمه عند مصيرهم إليه يوم القيامة، فيقضي بينهم في ذلك وفي غيره مما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بالحق، ويفصل بالعدل بمجازاة المصيب فيه جزاءه والمخطئ فيه منهم ما هو أهله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لم يكن في شرع إبراهيم ولا في دينه، بل كان سمحًا لا تغليظ فيه، وكان السبت تغليظًا على اليهود

في رفض الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدًا. فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاختاروا الأحد. وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف، فقالت طائفة: إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أن السبت أفضل، فقال الله له: « **دعهم وما اختاروا لأنفسهم**». وقيل: إن الله تعالى لم يعينه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه، فعينت اليهود السبت، لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق. وعينت النصارى يوم الأحد، لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعين الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة، فكانت خير الأمم أمة. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له**- قال يوم **الجمعة- فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى**» فقوله: «**فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه**» يقوي قول من قال: إنه لم يعين لهم، فإنه لو عين لهم وعاندوا لما قيل «**اختلفوا**». وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا. ومما يقويه أيضًا قوله عليه السلام: «**أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا**». وهذا نص في المعنى. وقد جاء في بعض طرقه «**فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه**». وهو حجة للقول الأول. وقد روي: «**إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا تبع**». قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يريد في يوم الجمعة كما بيناه، اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى. ووجه الاتصال بما قبله أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود.

(٣٢٣) أحمر
أسود

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت الناس فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظًا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة، والله أعلم.

وأورد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**». لَفْظُ الْبُخَارِيِّ[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحُذَيْفَةَ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ**

(١) البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ ليوم الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي معنى اختلافهم فيه قولان:

أحدهما: أن موسى قال لهم: تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا، فاعبدوه في يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئًا من صنيعكم، فأبَوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نبتغي إلاَّ اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل ذلك عليهم، وشدِّد عليهم فيه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: لما أمرهم موسى بيوم الجمعة، قالوا: نتفرغ يوم السبت، فإن الله لم يخلق فيه شيئًا، فقال: إنما أُمرت بيوم الجمعة، فقال أحبارهم: انتهوا إلى أمر نبيِّكم، فأبَوا، فذلك اختلافهم، فلما رأى موسى حرصهم على السبت، أمرهم به، فاستحلوا فيه المعاصي.

والثاني: أنه بعضهم استحلَّه، وبعضهم حرَّمه، قاله قتادة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: فرضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة وهم اليهود فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العقاب.



(١) مسلم (٨٥٦).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ادع إلى طريق الله سبحانه وتعالى وإلى اتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ بالحكمة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسول الله، وبالطريقة الطيبة السهلة اللينة المحببة إلى القلوب، ليست المنفرة، ادع بالكلمة الطيبة كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]، وكما قال: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وكما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وكما قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣] إلى غير ذلك من الآيات.

أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ الواردة في هذا الصدد فمنها:

قول النبي ﷺ: «أَطِبِ الكَلَامَ وأَفْشِ السَّلَامَ»(١).

وقوله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشقِّ تَمْرَة، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلمَةٍ طَيِّبَة»(٢).

وقال ﷺ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَة»(٣).

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ أي: والموعظة المؤثرة في القلوب، الموعظة التي هي الكلام الطيب اللين المؤثر الحسن.

أما قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: وناقشهم لإقامة الحجة عليهم بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأسلم الطرق، وكل ذلك يُستقى من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسوله ﷺ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ

(١) أحمد (٢/ ٤٩٣) بإسنادٍ حسن لشواهده.
(٢) البخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (٧٠٤).
(٣) البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ حاصل معناه: عليك يا رسول الله أن تدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن تجادلهم بالتي هي أحسن، وربك سبحانه وتعالى هو أعلم بالذين سبقت لهم منه الحسنى، وأنهم سيُسلموا ويؤمنوا، وكذلك فهو أعلم بمن كتبت عليهم الشقاوة، الذين حادوا عن طريق الحق والصواب.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ٱدْعُ ﴾ يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكّرهم بها في تنزيله، كالتي عدّد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكّرهم فيها ما ذكرهم من آلائه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره من خلقه، وحادّ الله، وهو أعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومَحَجة الحقّ، وهو مُجازٍ جميعهم جزاءهم عند ورودهم عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾

أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب

إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أعلم بالسبب الذي أداه إلى الضلال، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة: من إيضاح الحق بالرفق واللين. وعن مجاهد ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، قال: أعرض عن أذاهم، وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ

ﭐلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، أي: إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن قوله لموسى وهارون في شأن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤]، ومن ذلك القول اللين، قول موسى له: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾.

[النازعات: ١٨-١٩]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أعلم بمن ضل عن سبيله؛ أي زاغ عن طريق الصواب والحق، إلى طريق الكفر والضلال.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في أول «القلم»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٧-٨]، وقوله في «الأنعام»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: ١١٧]، وقوله في «النجم»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم: ٣٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وإن أحدٌ ظلمكم وأردتم أن تعاقبوه على ظُلمه الذي ظلمكم، فعاقبوه بالقدر الذي ظلمكم لا تزيدوا على ذلك، فهذا قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال ﷺ: «**المُسْتَبَّان مَا قَالَا مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوم**»، أما قوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فحاصل معناه: أنكم إذا صبرتم ولم تعاقبوا من عاقبكم بل عفوتم عنه وصفحتم ابتغاء مرضاة الله فصبركم خيرٌ لكم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه، حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتسابًا، وابتغاء ثواب الله، لأن الله يعوّضه مِنَ الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار، وهو من قوله: ﴿لَهُوَ﴾ كناية عن الصبر، وحسن ذلك، وإن لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عليه.

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية. وقيل: هي منسوخة أو محكمة، فقال بعضهم: نزلت من أجل أن رسول الله ﷺ وأصحابه أقسموا حين فعل المُشركون يوم أُحد ما فعلوا بقتلى المسلمين من التمثيل بهم أن يجاوزوا فعلهم في المُثْلة بهم إن رزقوا الظفر عليهم يومًا، فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية وأمرهم أن يقتصروا في التمثيل بهم إن هم ظفروا على مثل الذي كان منهم، ثم أمرهم بعد ذلك بترك التمثيل، وإيثار الصبر عنه بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فنسخ بذلك عندهم ما كان أذن

لهم فيه من المُثلة.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن عامر[(١)]، قال: لما رأى المسلمون ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد، من تبقير البطون، وقطع المذاكير، والمُثلة السيئة، قالوا: لئن أظفرنا الله بهم، لنفعلنّ ولنفعلنّ، فأنزل الله فيهم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: نسخ ذلك بقوله في براءة: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: وإنما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ خبراً من الله للمؤمنين أن لا يبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوهم به، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال آخرون: بل عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، نبيّ الله خاصة دون سائر أصحابه، فكان الأمر بالصبر له عزيمة من الله دونهم.

وقال آخرون: لم يُعْنَ بهاتين الآيتين شيء مما ذكر هؤلاء، وإنما عُنِيَ بهما أن من ظُلِم بظُلامة، فلا يحلّ له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه، وقالوا: الآية محكمة غير منسوخة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته، على ما كان منه إليه خير وعزم

(١) وهو الشعبي، وهو تابعي فالسند إليه صحيح، ولكنه مرسل، وأورد الطبري نحوه عن غير واحد من التابعين وفي أسانيدها مقال.

على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، والتأويلات التي ذكرناها عمن ذكروها عنه، محتملها الآية كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أيّ ذلك عنى بها من خبر ولا عقل كان الواجب علينا الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه؛ وأن يقال: هي آية محكمة أمر الله تعالى ذكره عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قِبَل غيرهم من حقّ من مال أو نفس، الحقّ الذي جعله الله لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة، إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهومًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ثم قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: ٤٥] ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى - مبيحًا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان-: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم.

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].



الحث على الصبر والاستعانة بالله في ذلك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واصبر يا رسول الله على ما لحقك من أذى قومك، واسأل الله أن يُصبِّرك فلن تستطيع أن تصبر إلا إذا صبَّرك الله ﷻ ولا تحزن على قومك إذا أعرضوا عن الإيمان، والمراد بالحزن الحزن الشديد المهلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وكما قال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦].

أما الحزن المعتاد فهذا لا ينفك عنه بشرٌ، ومعلوم أن الشخص يحزن إذا كفر شخصٌ عزيز عليه، فالمنهي عنه من الحزن، الحزن المُهلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: ولا تكن في غمٍّ وهمٍّ وحرجٍ وضيق صدر من تكذيبهم لك ومكرهم بك ومحاولتهم إلحاق الأذى بك، فالله حافظك فإن الله معك، مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأنت بفضل الله إمامهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك من أذى في الله. ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصّد عن سبيل الله، من

(٣٣٤) أحمر
أسود

أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: غم ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

ج: هذه الآية – والله أعلم–: لها تعلقٌ بما قبلها فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ له تعلق بما بعده، أي: فلا تك في ضيق من مكرهم وكيدهم فالله معك، فأنت يا رسول الله تقيٌّ ومحسنٌ، بل أنت إمام المتقين، وإمام المحسنين من البشر، فمن ثَمَّ فالله معك، معك بنصره وتأييده وحفظه معك أيضًا يراك ويسمعك ويعلم ما بك من همّ ومن غمٍّ ولن يُضيعك.

وعمومًا فإن الله ﷻ مع أهل التقوى وأهل الإحسان جعلنا الله منهم وحفظنا الله والمسلمين بحفظه ونصرنا بنصره وأيدنا بتأييده.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدّم عليها ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُوا۟ۖ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُوا۟ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]. ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم

(٣٣٦) أحمر
أسود

يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه مع عباده المتقين المحسنين، وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان. وهذه المعية خاصة بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنَّصر والتوفيق، وكرر هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته جل وعلا؛ فالكائنات في يده جل وعلا أصغر من حبّة خردل، وهذه هي المذكورة أيضًا في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ...﴾ الآية [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الآية [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ..﴾ الآية [يونس: ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهو جل وعلا مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة النحل.

تفسير سورة الإسراء

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١
وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي
وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣
وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا
كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ
فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ
عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ
أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ
وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ
تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء: ١-٨].

(٣٣٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿سُبْحَٰنَ - أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ - بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ - ءَايَٰتِنَآ - وَكِيلًا - ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ - شَكُورًا - وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ - أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ - فَجَاسُوا۟ - ٱلْكَرَّةَ - أَكْثَرَ نَفِيرًا - لِيَسُۥٓـُٔوا۟ - وُجُوهَكُمْ - وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا - حَصِيرًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿سُبْحَٰنَ﴾	تنزَّه عن كل نقص وعيب – تنزه عن الشريك والمثيل والصاحبة والولد – وتنزه عن الضعف.
﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾	سيَّر عبده ليلًا.
﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾	أكثرنا حوله من الثمرات والزروع – أكثرنا من الأنبياء الذين أرسلناهم هنالك.
﴿ءَايَٰتِنَآ﴾	معجزاتنا – دلالاتنا على قدرتنا ووحدانيتنا.
﴿وَكِيلًا﴾	حفيظًا يحفظكم – كفيلًا يتكفل بأموركم مُعتمدًا تعتمدون عليه – كافيًا يكفيكم ما أهمكم وما أغمكم.
﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾	يا أبناء الصالحين المؤمنين الذين كانوا في الفلك مع نوح، فما حُمل مع نوح إلا مؤمن.
﴿شَكُورًا﴾	كثير الشكر لله ﷻ.
﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	قدرنا على بني إسرائيل – أعلمنا بني إسرائيل.
﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾	أقوياء أشداء في الحروب.

(٣٣٩) أحمر
أسود

﴿فَجَاسُواْ﴾	تخللوا ومشوا وسط الديار وخلالها.
﴿ٱلْكَرَّةَ﴾	الغلبة مرة ثانية.
﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾	أكثر عددًا.
﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾	ليقتلونكم ويأسرونكم ويسلبونكم أموالكم فيظهر الاستياء على وجوهكم.
﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ﴾	وليدمروا ما رفعوه من الأبنية.
﴿تَتْبِيرًا﴾	تدميرًا.
﴿حَصِيرًا﴾	سجنًا- فراشًا يفترشونها كالحصر.



س: ما مدى صحة هذا الحديث: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطر، ويُفطرُ حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر، وأثر ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العِتَاق الأول، وهُنَّ من تِلادي.

ج: أما الحديث الأول فهو ضعيف معلول، وقد بيَّنت علته في تفسير سورة الزمر، أما أثر ابن مسعود فهو صحيح وهو في البخاري[١].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: تنزَّه عن الشريك والمثيل والنِّد والصاحبة والولد، تنزَّه عن كل عيب وكل نقص ربنا ﷻ الذي سيَّر عبده محمدًا ﷺ ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وقيل: المعنى تعجبوا من قدرة الله الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وسمي الأقصى لكونه كان أبعد المساجد إليهم في زمانهم، كذا قيل، أسرى به إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله بكثرة الأنبياء الذين كانوا هنالك، فقد أُرسل عددٌ من الأنبياء وكان هذا موطنهم وموطن دعوتهم فالبركة على هذا، لكثرة الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: البركة لكثرة الزروع والثمار حوله.

أما قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: لنطلع رسول الله ﷺ على معجزاتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ولنسري عنه ولنثبته إنه (أي: رب العباد الله ﷻ) هو السميع لأقوال عباده، ولكل شيء البصير بكل شيء.

(١) البخاري (٤٧٠٨).

ولا يخفى عليه شيء، وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ تنزيها للذي أسرى بعبده وتبرئة له مما يقول فيه المشركون من أنَّ له من خلقه شريكا: وأن له صاحبة وولدا، وعلوًّا له وتعظيما عما أضافوه إليه، ونسبوه من جهالاتهم وخطأ أقوالهم.

وأما قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فإنه اختُلف فيه وفي معناه، فقال بعضهم: يعني من الحرم، وقال: الحرم كله مسجد.

وقد ذُكر لنا أن النبيّ ﷺ كان ليلة أُسري به إلى المسجد الأقصى كان نائما في بيت أمّ هانئ ابنة أبي طالب.

وأورد الطبري الأثر بذلك وهو ضعيف جدًّا.

وقال آخرون: بل أُسري به من المسجد، وفيه كان حين أسري به.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله ﷻ أخبر أنه أسرى بعبده من المسجد الحرام والمسجد الحرام هو الذي يتعارفه الناس بينهم إذا ذكروه، وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: مسجد بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويُبتغَى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام. فتأويل الكلام تنزيها لله، وتبرئة له مما نحله المشركون من الإشراك والأنداد والصاحبة، وما يجلّ عنه جلّ جلاله، الذي سار بعبده ليلا من بيته الحرام إلى بيته الأقصى.

قال الطبري:

وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم. وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾

يقول تعالى ذكره: كي نري عبدنا محمدا من آياتنا، يقول: من عبرنا وأدلتنا وحججنا، وذلك هو ما قد ذكرت في الأخبار التي رويتها آنفا، أن رسول الله ﷺ أريه في طريقه إلى بيت المقدس، وبعد مصيره إليه من عجائب العبر والمواعظ.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ ما أراه الله من الآيات والعبر في طريق بيت المقدس.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ يقول تعالى ذكره: إن الذي أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة في مسرى محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ولغير ذلك من قولهم وقول غيرهم، البصير بما يعملون من الأعمال، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يعزب عنه علم شيء منه، بل هو محيط بجميعه علما، ومحصيه عددا، وهو لهم بالمرصاد، ليجزي جميعهم بما هم أهله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ يعني محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَيۡلٗا﴾ أي: في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأمّهم في مَحِلّتهم، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمدًا ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أي: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: ١٨]

(٣٤٣) أحمر
أسود

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلا ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة **العلية** وفي معناه أنشدوا:

يا قوم قلبي عند زهراء ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وقد تقدم. قال القشيري: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية وأرقاه فوق الكواكب العلوية ألزمه اسم العبودية تواضعا للأمة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ سمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ثم قال: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار وقيل: بمن دفن حوله من الأنبياء والصالحين وبهذا جعله مقدسا وروي معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي**» ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾. تقدم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم.

ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد

المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه وأن الله اختصه محلا لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي معنى التسبيح هاهنا قولان:

أحدهما: أن العرب تسبِّح عند الأمر المعجب، فكأن الله تعالى عجَّب العباد مما أسدى إِلى رسوله من النعمة.

والثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه لما حدَّثهم بالإسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابًا. ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا: محمد ﷺ.

وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قولان:

أحدهما: أنه أُسري به من نفس المسجد، قاله الحسن، وقتادة، ويسنده حديث مالك بن صعصعة، وهو في «الصحيحين» «**بينا أنا في الحطيم**» وربما قال بعض الرواة: في «الحِجر».

والثاني: أنه أُسري به من بيت أم هانئ، وهو قول أكثر المفسرين، فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام: الحرم. والحرم كلُّه مسجد، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره.

فأما ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ فهو بيت المقدس، وقيل له: الأقصى، لبُعد المسافة بين المسجدَين. ومعنى ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾: أن الله أجرى حوله الأنهار، وأنبت الثِّمار. وقيل: لأنه مَقَرُّ الأنبياء، ومَهْبِطُ الملائكة.

واختلف العلماء، هل دخل بيتَ المقدس، أم لا؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس، وصلّى فيه بالأنبياء، ثم عُرِج به إِلى السماء. وقال حُذيفة ابن اليمان: لم يدخل بيت المقدس ولم يصلِّ فيه، ولا نزل عن البُراق حتى عُرج به.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وأنتم تقولون: صعِد إِلى السماء؟

فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك.

وقيل: إن الحكمة في ذِكْر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إِلى السماء في بَدْءِ الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبان لهم صدقُه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، أخبر بمعراجه.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يعني: ما رأى، أي: تلك الليلة من العجائب التي أَخبر بها الناس. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالة قريش، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بها.



معنى الإسراء والمعراج

س: وضح معنى الإسراء والمعراج.

ج: أما كلمة أسرى فمعناه: أنه سار ليلًا، فالإسراء المسير ليلًا.

وفصَّل البعض فقالوا: أسرى أي: سار من أول الليل، وسرى أي سار من آخر الليل.

أما الإسراء برسول الله ﷺ فالمراد به الرحلة برسول الله ﷺ ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

أما المعراج: فالعروج الصعود، ويعرجون يصعدون، والمعراج: الآلة التي يُصعد فيها.

لكن المراد بالمعراج برسول الله ﷺ، هو الصعود به والارتفاع به من الأرض إلى السموات وتجاوزه سماءً بعد سماءٍ حتى جاوز السماء السابعة على ما ورد في الأحاديث التي تأتي إن شاء الله، والله أعلم.



س: إذا كان المراد بالإسراء المسير ليلًا، فلماذا إذن قيل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ أي: فلماذا قيل ﴿لَيْلًا﴾؟

ج: ذلك – والله أعلم – للتأكيد، لتأكيد أن الإسراء كان ليلًا، ومن العلماء من أخذ من ذلك أن الإسراء كان في بعض الليل ليس في كله. والله أعلم.

هذا، وفي التنزيل قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣]. وفيه كذلك قوله تعالى للوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١].



ذِكر بعض المرويات الصحيحة في قصة الإسراء والمعراج

س: اذكر بعض المرويات الصحيحة الواردة في الإسراء والمعراج؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: هذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أَوَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: هذَا آدَمُ، وَهذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ،

---
(١) البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٤).

وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ؛ فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ؛ فَفَتَحَ».

قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّموَاتِ آدَمَ، وَإِدْرِيسَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ؛ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ[1].

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ: مَنْ هذَا؟! قَالَ: هذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: هذَا مُوسَى ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى[2]، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: هذَا عِيسَى بن مَريم – عند مسلم– ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ؛ قُلْتُ: مَنْ هذَا؟! قَالَ: هذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولاَنِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ □: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ»، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ □: «فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ

---

(١) الروايات الصحيحة تفيد أن إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة.

(٢) الروايات الصحيحة دالة على أن النبي ﷺ رأى عيسى قبل موسى عليهما السلام (فثم) ليست على بابها.

أعني أن (ثمَّ) لا تفيد الترتيب هنا، وقول أنس في الحديث: وقد تقدم قريبًا: (...ولم يثبت كيف منازلهم) يوهن القول بأنه عليه السلام رأى موسى قبل عيسى، والصواب أنه رأى عيسى قبل موسى عليهما السلام، وانظر فتح الباري (١/ ٥٥٠).

أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعَنِي فَوَضَعَ شَطْرَهَا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا؛ فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

وما أخرجه مسلم[(١)] من حديث:

أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ – قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ[(٢)] فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا. فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ

(١) مسلم (١٦٢).

(٢) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: قال البيهقي: «وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسري به - عليه الصلاة والسلام- من مكة إلى بيت المقدس». وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية.

أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام قِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قيل: مَنْ هذا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟! قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَى اللهُ عز وجل إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قال: قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. - قَالَ - فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ

صَلاَةً. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً - قَالَ - فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّى حَتَّى لَقَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

أخرج مسلم[١] من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِي قَبْرِهِ».

وأخرج الإمام أحمد[٢] بسند صحيح: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي ﷻ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

وأخرج البخاري ومسلم[٣] من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى عليه السلام». قال: فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِذَا رَجُلٌ - حَسِبْتُهُ قَالَ - مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ - قَالَ - وَلَقِيتُ عِيسَى». فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ فقال: «رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» - يَعْنِي: حَمَّامًا - قَالَ: «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ - قَالَ - فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ. فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ. فَقَالَ: هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ».

وفي رواية عند مسلم[٤] عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا.

---

(١) مسلم (٢٣٧٥).
(٢) أحمد (٣/ ٢٢٤).
(٣) البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨).
(٤) مسلم (١٧٢).

فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ – يَعْنِي نَفْسَهُ – فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ».

وأخرج البخاري ومسلم[(١)] من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلاَ اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وأخرج مسلم[(٢)] من حديث عَبْدِ اللهِ ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦] قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاَثًا أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ».

وأخرج البخاري[(٣)] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أُرِيَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قَالَ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قَالَ: هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ.

(١) البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).
(٢) مسلم (١٧٣).
(٣) البخاري (٣٨٨٨).

(٣٥٢) أحمر
أسود

وأخرج البخاري ومسلم(١) من طريق أَبِي الْعَالِيَةِ حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ، ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣]».

وأخرج أحمد(٢) بسندٍ صحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ»، فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «مَا هُوَ؟!» قَالَ: «إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ» قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟! قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ». فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ» قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ - زَعَمَ - قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ» فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، قَالَ: فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ - أَوْ

(١) البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥).
(٢) أحمد (١/ ٣٠٩).

عُقَيْل - فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ، قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ».

وأخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أنس بن مالك عن مالِكِ بْنِ صَعْصَعَة رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ[٢] بَيْنَ النَّائم وَالْيَقْظَانِ، وَذَكَرَ يعني رجلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ، ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، الْبُرَاقُ، يقع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه[٣]، فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيل حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ؛ قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ؛ فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مَحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ؛ فَفُتِحَ فَلَمَّا خلصت فَإِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَة، قَالاَ: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فَأيتيت على عِيسَآ ويَحْيَى فَقَالاَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟! قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ، قَالَ: هَذَا يُوسُف فَسَلِّمَ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلام، وقال: قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلِيْهِ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيس فَسَلِّمَ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) وفي رواية: «**عند الكعبة**»، وفي أخرى: «**في الحطيم**»، وربما قال قتادة: «**في الحجر مضطجع**».

(٣) وفي رواية: «**ثم انطلقنا حتى أتينا إلى بيت المقدس فصليت فيه بالنبيين والمرسلين إمامًا**».

السَّلَام، فَقَالَ: مَرْحَبًا مِن أَخٍ وَنَبِيٍّ فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، قِيلَ: مَنْ هذَا قَالَ: جِبْرِيلُ؟، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْنَا عَلَى هَارُونَ، قَالَ: هَذَا هَارُون فَسَلِّمَ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَام،، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمَ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَام، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ؟! فَقَالَ: يَا رَبِّ هذَا الْغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخلُ مِنْ أُمَّتِي فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيم فَسَلِّمَ عليه، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ[١]، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ، وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرٍ وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاةً، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلاةً، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) أشار الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ وغيره من أهل العلم إلى أن قوله: «فرفع لي البيت المعمور»، أدرج على السند، وإنما هو من طريق قتادة عن الحسن عن أبي هريرة، وإلى هذا أشار البخاري بعد رواية هذا الحديث وانظر فتح الباري (٧/ ٢٥٥)، (٦/ ٣١٨).

(٣٥٥) أحمر
أسود

أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ، فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أَربَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلاَثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، فَجَعَلَ عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، فَجَعَلَ عَشرًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقَالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ، فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (بعد أن أورد جملة من الروايات في الباب):

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب.

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عَلَيْهِ السَّلَامُ أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرر.

قال موسى بن عقبة، عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهرًا.

والحق أنه، عَلَيْهِ السَّلَامُ أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس، راكبًا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته

تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج -وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها- فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء عليهم السلام الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عز وجل عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفًا بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولا مطلوبًا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٣٥٧) أحمر
أسود

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع -فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون هاهنا وهاهنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

تنبيهٌ على عدة أخطاء في حديث أخرجه البخاري في شأن الإسراء والمعراج.

هذا، ويجدر التنبيه على هذه الرواية التي رواها البخاري في صحيحه[١] من طريق شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت أنس ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ «أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهْوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ: أَوْسَطُهُمْ هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ فَتَوَلاَّهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ -يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ- ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: مَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلاً. فَوَجَدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ وَرَدَّ عَلَيْهِ آدَمُ وَقَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلاً بِابْنِي، نِعْمَ الاِبْنُ أَنْتَ. فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ فَقَالَ: مَا هَذَانِ النَّهَرَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا. ثُمَّ مَضَى بِهِ فِي السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ بِنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ فَضَرَبَ بِيَدَهُ فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ قَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِى خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ. ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ لَهُ مِثْلَ مَا

(١) البخاري (٧٥١٧)، وأشار إليه مسلم ولم يورده بطوله بل قال... وقدَّم فيه شيئًا وأخر وزاد ونقص.

قَالَتْ لَهُ الأُولَى: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قَالُوا: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا مَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلًا. ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالَتِ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى الرَّابِعَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، كُلُّ سَمَاءٍ أَنْبِيَاءُ قَدْ سَمَّاهُمْ مِنْهُمْ إِدْرِيسَ فِي الثَّانِيَةِ، وَهَارُونَ فِي الرَّابِعَةِ، وَآخَرَ فِي الْخَامِسَةِ وَلَمْ أَحْفَظِ اسْمَهُ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّادِسَةِ، وَمُوسَى فِي السَّابِعَةِ بِتَفْضِيلِ كَلاَمِ اللهِ، فَقَالَ مُوسَى رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ تَرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدٌ. ثُمَّ عَلاَ بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى اللهُ فِيمَا أُوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلاَةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ. فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. فَعَلاَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ فَقَالَ وَهْوَ مَكَانَهُ يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا، فَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ. فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُوسَى وَاحْتَبَسَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْدَ الْخَمْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا وَتَرَكُوهُ فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ، كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ وَلاَ يَكْرَهُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَرَفَعَهُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا فَقَالَ الْجَبَّارُ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ إِنَّهُ لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَهِيَ

خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَهْيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ. فَرَجَعَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: خَفَّفَ عَنَّا أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. فَقَالَ مُوسَى: قَدْ وَاللهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مُوسَى قَدْ وَاللهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ. قَالَ: فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللهِ. وَاسْتَيْقَظَ وَهْوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ».

قلت: وهذا الحديث به جملة من الأخطاء، وقد أشار إليها عددٌ من العلماء، منهم الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فقد قال رَحِمَهُ اللهُ[(١)]:

ومجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره من المشهورين عشرة أشياء بل تزيد على ذلك:

الأول: أمكنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السموات وقد أفصح بأنه لم يضبط منازلهم وقد وافقه الزهري في بعض ما ذكر كما سبق في أول «كتاب الصلاة».

والثاني: كون المعراج قبل البعثة وقد سبق الجواب عن ذلك، وأجاب بعضهم عن قوله: قبل أن يوحي، بأن القبلية هنا في أمر مخصوص ليست مطلقة واحتمل أن يكون المعنى قبل أن يوحي إليه في شأن الإسراء والمعراج مثلًا أي أن ذلك وقع بغتة قبل أن ينذر به، ويؤيده قوله في حديث الزهري: «**فرج سقف بيتي**».

الثالث: كونه منامًا وقد سبق الجواب عنه أيضًا بما فيه غنية.

الرابع: مخالفته في محل سدرة المنتهى وأنها فوق السماء السابعة بما لا يعلمه إلا الله، والمشهور أنها في السابعة أو السادسة كما تقدم.

الخامس: مخالفته في النهرين وهما النيل والفرات وأن عنصرهما في

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٨٥-٤٨٦) شرح حديث (٧٥١٧).

السماء الدنيا والمشهور في غير روايته أنهما في السماء السابعة وأنهما من تحت سدرة المنتهى.

السادس: شق الصدر عند الإسراء وقد وافقته رواية غيره كما بينت ذلك في شرح رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة، وقد أشرت إليه أيضا هنا.

السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا، والمشهور في الحديث أنه في الجنة كما تقدم التنبيه عليه.

الثامن: نسبة الدنو والتدلي إلى الله ﷻ والمشهور في الحديث أنه جبريل كما تقدم التنبيه عليه.

التاسع: تصريحه بأن امتناعه ﷺ من الرجوع إلى سؤال ربه التخفيف كان عند الخامسة، ومقتضى رواية ثابت عن أنس أنه كان بعد التاسعة.

العاشر: قوله: «فعلا به الجبار فقال وهو مكانه» وقد تقدم ما فيه.

الحادي عشر: رجوعه بعد الخمس، والمشهور في الأحاديث أن موسى عليه الصلاة والسلام أمره بالرجوع بعد أن انتهى التخفيف إلى الخمس فامتنع كما سأبينه.

الثاني عشر: زيادة ذكر التور في الطست، وقد تقدم ما فيه فهذه أكثر من عشرة مواضع في هذا الحديث لم أرها مجموعة في كلام أحد ممن تقدم، وقد بينت في كل واحد إشكال من استشكله والجواب عنه إن أمكن وبالله التوفيق، وقد جزم ابن القيم في الهدى بأن في رواية شريك عشرة أوهام لكن عد مخالفته لمحال الأنبياء أربعة منها وأنا جعلتها واحدة فعلى طريقته تزيد العدة ثلاثة وبالله التوفيق.

هذا، وقد ورد في هذا الباب ما أخرجه الإمام أحمد[1] وغيره من طريق حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،

(١) أحمد (١/ ٣٠٩).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّت بِي رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَقَالَ: مَاشِطَةُ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. كَانَت تمشطها فسقط المِشْط مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: بَلْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ. قَالَتْ: أَولَكِ رَبٌّ غير أَبِي؟ قَالتْ: نَعَمْ، قَالتْ: فَأُخْبِرُ بِذَلِكَ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: أَلَكِ رَبٌّ غَيرِي؟ قَالَت: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللهُ الذي في السَّمَاء. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا لِتُلْقَى فِيهَا وَأَوْلادُهَا، قَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَتْ: تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فَتَدْفِنَهُ جَمِيعًا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ لِمَا لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتى بَلَغَ رَضِيعًا فيهم، قَال: أسرِعِي يَا أُمَّه وَلا تَقَاعَسِي فَإِنَّكِ عَلَى الحقِّ، فَأُلْقِيت هِي وولدها. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وتَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: هَذَا، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ».

والإشكال في هذا الحديث أنه من طريق حماد بن سلمة عن عطاء، وعطاء مختلط، ولكن هل حماد روى عنه قبل الاختلاط أم بعده، فالظاهر أنه روى عنه قبل الاختلاط، وهذا قول الجمهور فعليه فالحديث حسن الإسناد، والله أعلم.



مكان بداية الإسراء

س: من أين أُسري برسول الله ﷺ؟

ج: أُسري به من المسجد الحرام كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقد تقدم أنه ﷺ قال: بينما أنا في الحطيم، وربَّما قال: في الحجر مضطجعًا إذ أتاني آتٍ...فذكر الحديث، وقد تقدم من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. أما ما ورد من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي قال:..، **فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة**..، فالجمع بينه وبين ما سبق ممكنٌ بأن

يقال أنه ﷺ انتقل من بيته إلى الحجر (الحطيم).. والله أعلم.

أما حديث أم هانئ الذي فيه أنها قالت: «ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة»، فهذا الخبر لا يصح سنده إلى أم هانئ ﵁ ففي سنده أبو صالح باذام وهو ضعيف[1].

وكذا ما ذكره الواقدي من أنه ﷺ أُسري به من شعب أبي طالب، فالواقدي ضعيف أيضًا.

وكذا ما رواه أنس من طريق شريك عنه، وفيه أنه ﷺ جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه...، فهذا من المأخوذ على شريك، والله أعلم.



هل يحتفل بليلة الإسراء والمعراج؟

س: هل يشرع الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج؟

ج: لم يرد هذا عن رسول الله ﷺ ولا علمته عن أحدٍ من الصحابة أو التابعين أو غيرهم من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب رحمهم الله أجمعين.

ثم إنه قد اختلف أصلًا في تحديد ليلة الإسراء.

فهذا وذاك كافيان للجواب على السؤال والله أعلم.

هذا، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2]:

ولم يشرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره. ثم قال: ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولا يذكرونها، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت. اهـ.

---

(١) وقد أخرج الطبري (٢٢٠١٣) أثر أم هانئ بسندٍ واهٍ.

(٢) انظر زاد المعاد (١/ ٢٠).

(٣٦٣) أحمر
أسود

بعض الفوائد والحكم من الإسراء والمعراج

س: ما الحكمة من الإسراء برسول الله ﷺ؟

ج: من ذلك ما يلي:

إطلاع رسول الله ﷺ على بعض آيات الله ﷻ وبعض المعجزات كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾.

وهذا من ثَمَّ يحمل تثبيتًا لرسول الله ﷺ في وقت اشتد فيه برسول الله ﷺ البلاء.

* **ومنها:** اختبار أهل الإيمان، فالمؤمن قوي الإيمان إذا أُخبر بأمر الإسراء صدَّق، فهو يعلم أن الله على كل شيء قدير، والمنافق المرتاب وكذا الكافر المكذب إذا أُخبر بذلك يزداد ارتيابًا وتكذيبًا وكذبًا وضلالًا، كالشأن في سائر الآيات ينتفع بها المؤمنون ويزدادوا إيمانًا، ويزداد الكافرون كفرًا إلى كفرهم ورجسًا إلى رجسهم، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

هذا، ومما يدل على أن الإسراء كان أيضًا فتنة، أي: اختبارًا وابتلاءً للناس، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ ..﴾ [الإسراء: ٦٠].

فرض الصلوات، فقد فرضت الصلوات في هذه الرحلة المباركة الميمونة.

شيءٌ من الأخبار عن الأنبياء والمرسلين وأخبار عن البيت المعمور وسدرة المنتهى وخازن النار وبعض العقوبات وغير ذلك.



الإسراء كان بالروح والجسد

س: هل كان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن الإسراء كان بالروح والجسد معًا، نقل ذلك عنهم الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري[1] ونقله غيره أيضًا عن الجمهور، والأحاديث تشهد لذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الأسراء: ٦٠] قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ. رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضًا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة،

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٧٥).

وأنه ركب البراق بمكة ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أسري بجسده، وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية وليس في الإسراء بجسده، وحال يقظته استحالة ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ولو كان منامًا لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧] يدل على ذلك.

إلى آخر ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



بعض الشبهات التي تمسك بها القائلون بأن الإسراء والمعراج كان منامًا أو بالروح فقط وتفنيدها

س: ما مدى صحة قول عائشة ڤ: ما فقد جسد رسول الله ﷺ جسدي ولكن الله أسرى بروحه؟

ج: هذا لا يصح سنده عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وقد أورده ابن إسحاق فقال: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة... فذكره.

وفيه جهالة الواسطة بين ابن إسحاق وعائشة ويضاف إليها أيضًا الانقطاع فالغالب على روايات ابن إسحاق أنه بينه وبين عائشة راويان، والله أعلم.



س: ما مدى صحة ما روي عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة؟

ج: هذا أيضًا لا يصح عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لانقطاعه فهو من طريق يعقوب بن عتبة عن معاوية ولم يدركه[١].

(١) والأثر عند ابن إسحاق أيضًا (انظر السيرة لابن هشام).

س: كيف يُجاب على استدلال من استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ على أن الإسراء والمعراج كان منامًا أو كان بالروح؟

ج: أجاب على ذلك بعض العلماء بأجوبة:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ...﴾ ليس بصريح في أنها رؤيا منامية.

الثاني: أنها لو كانت رؤيا منامية لم يكن فيها وجه إعجاز.

الثالث: أنها إذا كانت رؤيا منامية فلا مانع أن تكون هناك رؤيا منامية حدثت قبل الإسراء بالروح والجسد ثم حدث الإسراء.

الرابع: ما ورد عن عدد من أهل العلم أنها كانت رؤيا عين والله أعلم.



س: كيف يُجاب على استدلال من استدل بما ورد في بعض الطرق عند البخاري من طريق شريك عن أنس قال ﷺ: «... ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر»[1] كيف يجاب على من استدل بذلك على أن الإسراء والمعراج كان منامًا؟

ج: الجواب أن هذه الرواية مأخوذة على شريك وقد وقعت له أخطاء كثيرة – كما سيأتي بيانه – خالف بها الجماهير من الرواة.

وثمَّ جواب آخر تقدم، وهو أنه لا مانع – إن ثبت الخبر – أن يكون النبي ﷺ رأى رؤيا ثم تحققت، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

ثم اختلف أهل العلم في صفة إسراء الله تبارك وتعالى بنبيه ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال بعضهم: أسرى الله بجسده، فسار به ليلًا

(١) البخاري (٧٥١٧).

على البُراق من بيته الحرام إلى بيته الأقصى حتى أتاه، فأراه ما شاء أن يريه من عجائب أمره وعبره وعظيم سُلطانه، فجمعت له به الأنبياء، فصلى بهم هُنالك، وعَرج به إلى السماء حتى صعد به فوق السماوات السبع، وأوحى إليه هنالك ما شاء أن يوحي ثم رجع إلى المسجد الحرام من ليلته، فصلى به صلاة الصبح.

وقال آخرون ممن قال: أسري بالنبيّ ﷺ إلى المسجد الأقصى بنفسه وجسمه أسرى به عليه السلام، غير أنه لم يدخل بيت المقدس، ولم يصلّ فيه، ولم ينزل عن البراق حتى رجع إلى مكة.

وأورد من طريق عاصم بن بهدلة عن زرّ بن حبيش، عن حُذيفة بن اليمان، أنه قال في هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ قال: لم يصلّ فيه رسول الله ﷺ، ولو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه، كما كتب عليكم الصلاة عند الكعبة.

قلت (مصطفى): وعاصم وإن كان يُحسَّن حديثه إلا أنه لا يقاوم في هذه الحال من هو أقوى منه والروايات الثوابت أثبتت خلاف ما يقول.

قال الطبري: وقال آخرون: بل أسرى بروحه، ولم يسر بجسده.

* وأورد أثرًا ضعيف الإسناد عن معاوية أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

وكذا أثرًا عن عائشة بسندٍ ضعيف.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات؛ ولا معنى

لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلًا على نبوّته، ولا حجة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكرًا عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟ وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزًا لأحد أن يتعدّى ما قال الله إلى غيره. فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز، إذ كانت العرب تفعل ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

حَسِبْتُ بُغامَ رَاحِلَتِي عنَاقًا ... ومَا هِيَ وَيْبَ غيرِكِ بالعْنَاقِ

يعني: حسبت بغام راحلتي صوت عناق، فحذف الصوت واكتفى منه بالعناق، فإن العرب تفعل ذلك فيما كان مفهومًا مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره، ولا يوصل إلى معرفة مراد المتكلِّم إلا ببيانه، فإنها لا تحذف ذلك؛ ولا دلالة تدلّ على أن مراد الله من قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدوابّ لا تحمل إلا الأجسام. إلا أن يقول قائل: إن معنى قولنا: أسرى بروحه: رأى في المنام أنه أسرى بجسده على البراق، فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التي رُويت عن رسول الله ﷺ، أن جبرائيل حمله على البراق؛ لأن ذلك إذا كان منامًا على قول قائل هذا القول، ولم تكن الروح عنده مما تركب الدوابّ، ولم يحمل على البراق جسم النبيّ ﷺ، لم يكن النبيّ ﷺ على قوله حُمل على البراق لا جسمه، ولا شيء منه، وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين، وذلك دفع

لظاهر التنزيل، وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومذهب جمهور السلف والخلف أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه كما دل عليه ظاهر السياقات من ركوبه وصعوده في المعراج وغير ذلك ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة، فدل على أنه بالروح والجسد والعبد عبارة عنهما[١].



س: هل تعدد الإسراء برسول الله ﷺ أم أنه كان مرة واحدة؟

ج: جماهير العلماء على أن الإسراء كان مرةً واحدةً ولم يتكرر[٢].



س: هل كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة؟

ج: نعم كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة وهذا ما أفادته الروايات الصحيحة كرواية ثابت عن أنس الذي تقدم ذِكره عند مسلم.



---

(١) البداية والنهاية (٣/ ١١٩).

(٢) وانظر ما قاله ابن القيم (زاد المعاد ٢/ ٧٠).

متى كان الإسراء والمعراج؟

س: هل صح للإسراء والمعراج تأريخ معين، أي: هل ثبت أن الإسراء والمعراج كان في تاريخ معين؟

ج: لم أقف على أي سندٍ ثابت دال على تأريخ الإسراء والمعراج بالضبط، إلا أنه يستفاد من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن ذلك كان بمكة.

وكما قال ابن القيم[1] في زاد المعاد نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

«لم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وكما أسرينا بعبدنا ورسولنا محمد ﷺ، فقد مننا على موسى عليه السلام بأننا آتيناه الكتاب الذي هو التوراة، وجعلنا هذه التوراة هداية لبني إسرائيل وإرشادًا لهم يسترشدون بها، وعهدنا إليهم ألا يتخذوا من دون الله وكيلًا يعتمدون عليه ويفوضون أمرهم إليه ويطلبون منه حاجاتهم، ويسألونه كشف الضرِّ عنهم، وكذا عهدنا إليهم ألا يتخذوا ربًّا سوى الله عز وجل.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا وآتى موسى الكتاب، وردّ الكلام إلى ﴿وَآتَيْنَا﴾ وقد ابتدأ بقوله أسرى لما قد ذكرنا قبل فيما مضى

(١) وانظر ما قاله الحافظ في الفتح (٧/ ٢٤٢)، وانظر البداية (٣/ ١١٣).

من فعل العرب في نظائر ذلك من ابتداء الخبر بالخبر عن الغائب، ثم الرجوع إلى الخطاب وأشباهه. وعنى بالكتاب الذي أوتي موسى: التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول: وجعلنا الكتاب الذي هو التوراة بيانًا للحقّ، ودليلًا لهم على محجة الصواب فيما افترض عليهم، وأمرهم به، ونهاهم عنه.

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والكوفة ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ بالتاء بمعنى: وآتينا موسى الكتاب بأن لا تتخذوا يا بني إسرائيل ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾. وقرأ ذلك بعض قرّاء البصرة **(ألا يَتَّخِذُوا)** بالياء على الخبر عن بني إسرائيل، بمعنى: وجعلناه هدى لبني إسرائيل، ألا يتَّخذ بنو إسرائيل من دوني وكيلًا وهما قراءتان صحيحتا المعنى، متفقتان غير مختلفتين، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب، غير أني أوثر القراءة بالتاء؛ لأنها أشهر في القراءة وأشد استفاضة فيهم من القراءة بالياء. ومعنى الكلام: وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا حفيظًا لكم سواي. وقد بينا معنى الوكيل فيما مضى. وكان مجاهد يقول: معناه في هذا الموضع: الشريك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات الله وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضًا، فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي: هاديًا ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ أي: وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

(٣٧٢) أحمر
أسود

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

كثيرًا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين.

ولهذا قال هنا: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ أي: وقلنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا الله وحده وينيبوا إليه ويتخذوه وحده وكيلًا ومدبرًا لهم في أمر دينهم ودنياهم ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا ولا ينفعونهم بشيء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: يا ذرية القوم الصالحين الذين حملناهم مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الفلك لما أنجيناه وأنجيناهم معه، يا ذرية هؤلاء الصالحين كونوا صالحين كآبائكم، واذكروا أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عبدًا شكورًا، فقدموا شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ شكرًا متمثلًا في توحيده عَزَّ وَجَلَّ وإفراده بالعبودية، شكرًا متمثلًا في حمد الله عَزَّ وَجَلَّ على نعمه التي لا تحصى، والتي من أجلها وأعظمها إرسال الرسول محمدٍ ﷺ إليكم وإنزاله القرآن على هذا النبي الكريم، كذا شكرًا على عموم ما أنعم الله به عليكم من أمن وأمان وطعام وشراب ومسكنٍ وملبس وكساء، وغير ذلك من النعم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

(٣٧٣) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ذرية من حملنا مع نوح. وعنى بالذرية: جميع من احتجّ عليه جلّ ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم، عربهم وعجمهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أنّ كلّ من على الأرض من بني آدم، فهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ يعني بقوله تعالى ذكره: «إنه» إن نوحًا، والهاء من ذكر نوح كان عبدًا شكورًا لله على نعمه.

وأورد الطبري عن عدد من العلماء: أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمى عبدًا شكورًا لكونه كان يحمد ربه على الأكل والشرب[(١)].

قلت (مصطفى): وهذا وإن كان غير مستبعد فهذا شأن الأنبياء عليهم السلام، لكن الحصر في ذلك أراه خطأ إنما - والله أعلم - لكثرة شكره لعموم نعم الله أطلق عليه عبدًا شكورًا، وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم من الليل حتى ترم قدماه ويقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا، لما قالت له عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر يا رسول الله.

هذا، وحمد الله على الطعام والشراب أمرٌ يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ بلا شك.

فعند أحمد ومسلم[(٢)] وغيرهما من حديث: أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله ليرضى عنِ العَبدِ أنْ يأكل الأكْلَة، أَوْ يَشرب الشّربَةَ، فَيحمد الله عليهَا**».

هذا، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الناس يوم القيامة يقولون لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

---

(١) وقد صح هذا عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال ذلك.
(٢) أحمد (٣/ ١١٧)، ومسلم (٢٧٣٤).

- حينما يذهبون إليه لطلب الشفاعة-.. وسماك الله عبدًا شكورًا[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ٣﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ٣﴾.

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة من حملهم مع نوح تنبيهًا على النعم والتي نجاهم بها من الغرق. ليكون في ذلك تهييج لذرياتهم على طاعة الله. أي من حملنا مع نوح، فنجيناهم من الغرق، تشبهوا بأبيكم، فاشكروا نعمنا. وأشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨] الآية.

وبين في مواضع أخر الذين حملهم مع نوح من هم؟ وبين الشيء الذي حملهم فيه، وبين من بقي له نسل، وعقب منهم، ومن انقطع ولم يبق له نسل ولا عقب.

فبين أن الذين حملهم مع نوح: هم أهله ومن آمن معه من قومه في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾ [هود: ٤٠].

وبين أن الذين آمنوا من قومه قليل بقوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠﴾.

وبين أن ممن سبق عليه القول من أهله بالشقاء امرأته وابنه. قال في امرأته: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ [التحريم: ١٠] إلى قوله: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ

(١) البخاري (٤٧١٢).

مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال في ابنه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود: ٤٣]، وقال فيه أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود: ٤٦] الآية. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ أي: الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] الآية، ونحوها من الآيات.

وبين أن الذي حملهم فيه هو السفينة في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ ﴾ [هود: ٤٠] الآية. أي السّفينة، وقوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ الآية. أي أدخل فيها – أي السفينة – ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾.

وبين أن ذرية من حمل مع نوح لم يبق منها إلا ذرية نوح في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٧]، وكان نوح يحمد الله على طعامه وشرابه، ولباسه وشأنه كله. فسّماه الله عبدًا شكورًا.

وأظهر أوجه الإعراب في قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا ﴾ أنه منادى بحرف محذوف.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ ﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ففيه التنويه بالثناء على نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم.



أدبٌ من آداب التخاطب

س: في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أدب من آداب التخاطب وضحه.

ج: وجه ذلك أن الله ﷻ ذكَّر العباد بصلاح آبائهم، فالذين حُملوا مع نوح عليه السلام كانوا على الإيمان والصلاح كلهم، أعني الذين حملوا في الفلك لما أنجاهم الله ﷻ كانوا كلهم على الإيمان وأغرق الله كلَّ من على وجه الأرض، فكأن المعنى يا ذرية الصالحين المؤمنين البررة، كونوا صالحين كآبائكم وكونوا بررة أتقياء مؤمنين كذلك كما كان آباؤكم، وهذا كما تقول للشخص يا ابن المحسنين تصدق، يا ابن الشجعان بارز الأبطال، يا ابن العلماء تعلَّم، فكلُّ ذلك تهييج بذكر مناقب الآباء، ومن ثَمَّ حملٌ على العمل الصالح. والله أعلم.



س: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: وقدرنا في اللوح المحفوظ أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، وأخبرنا بني إسرائيل بذلك وأعلمناهم به تحذيرًا وتنبيهًا. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد بيَّنا فيما مضى قبل: أن معنى القضاء الفراغ من الشيء، ثم يستعمل في كلّ مفروغ منه، فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفرغ ربك إلى بني إسرائيل فيما أنزل من كتابه على موسى صلوات الله وسلامه عليه بإعلامه إياهم، وإخباره لهم ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ يقول: لتعصنّ الله يا معشر بني إسرائيل ولتخالفنّ أمره في بلاده مرّتين ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ يقول: ولتستكبرنّ على

الله باجترائكم عليه استكبارًا شديدًا.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قول تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: أعلمناهم.

قال الطبري: وقال آخرون: معنى ذلك: وقضينا على بني إسرائيل في أمّ الكتاب، وسابق علمه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أخبرنا.



س: ما المراد بإفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين، ومن الذين أرسلهم الله ﷻ عليهم؟

ج: أولًا: ليُعلم أنه ليس هناك خبرٌ ثابت عن رسول الله ﷺ في بيان ذلك.

والخبر الذي أورده الطبري في تفسيره من حديث حذيفة عن النبي ﷺ في ذلك خبرٌ ضعيف جدًّا، بل حكم عليه بعض العلماء بالوضع والكذب.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولًا، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلاله وقدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

ثانيًا: كذلك ليُعلم أنه ليس هناك اتفاق بين المفسرين على تعيين المرة الأولى للإفساد في الأرض الذي كان من بني إسرائيل، وكذا لا يوجد اتفاقٌ على تعيين الذين سُلِّطوا عليهم في المرتين.

ثالثًا: عن الأقوال في ذلك فمنها ما يلي:

*** القول الأول:** أن إفسادهم في المرة الأولى كان منه قتلهم نبي الله زكريا عليه السلام وأن الذي سُلِّط عليهم، وبعثه الله عذابًا عليهم هو بختنصر البابلي، وقد أورد الطبري إسنادًا بذلك فيه مقال عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، وفيه أن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فكان أوّل الفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يُدعى صحابين فبعث الجنود، وكان أساورته من أهل فارس، فهم أولو بأس شديد، فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيمًا مسكينًا، إنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة فأتى مجالسهم، فسمعهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قُذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم، واشتد القيام على الجيش، فرجعوا، وذلك قول الله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ ثم إن بني إسرائيل تجهَّزوا، فغزوا النبط، فأصابوا منهم واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قول الله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ يقول: عددًا.

أما الإفساد الثاني: فكان منه قتلهم نبي الله يحيى عليه السلام وأما الذين سُلِّطوا عليهم في هذا فمن العلماء من قال: إنهم قومٌ من الفرس، ومنهم من قال إنه جالوت، وثمَّ أقوالٌ أُخر.

**** القول الثاني:**

أن الإفساد الأول بقتل زكريا عليه السلام، والذين سلِّط عليهم هو سابور ذا الأكتاف ملكًا من ملوك الفرس.

وأن الإفساد الثاني هو قتل يحيى عليه السلام، وأن الذين سُلِّطوا على بني إسرائيل بسبب ذلك هو بختنصر البابلي.

وقد أورد الطبري هذا بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال:

كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين: قتل زكريا ويحيى بن زكريا، سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف ملكًا من ملوك فارس، من قتل زكريا، وسلَّط عليهم بختنصر من قتل يحيى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما إفسادهم في الأرض المرّة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا. وقد اختلفوا في الذي سلَّطه الله عليهم منتقمًا به منهم عند ذلك، وأنا ذاكر اختلافهم في ذلك إن شاء الله.

قلت: هذا وهنالك أقوال أخر غير ما ذكر.

وقد أورد الطبري جملة من الآثار ضعيفة الأسانيد إلى قائليها، وأورد بعض الآثار صحيحة الأسانيد إلى قائليها لكن أيضًا ليس منها شيء مرفوع إلى رسول الله ﷺ ولم يتفق قائلوها على شيء واحد، والغالب أنها إسرائيليات منها ما ورد من وجهين يصحان عن قتادة قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ قضاء قضى الله على القوم كما تسمعون، فبعث عليهم في الأولى جالوت الجزري، فسبى وقتل، وجاسوا خلال الديار كما قال الله، ثم رجع القوم على دخن فيهم.

ومن طريق صحيح عن أبي المعلى، قال: سمعت سعيد بن جبير، يقول في قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: بعث الله تبارك وتعالى عليهم في المرّة الأولى سنحاريب من أهل أشور ونينوى، فسألت سعيدًا عنها، فزعم أنها الموصل.

وبإسنادٍ صحيح عن سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق، فوجد بها دمًا يغلي على كبا: أي

كناسة، فسألهم ما هذا الدم؟ قالوا: أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن.

وبإسنادٍ يصح بطريقين عن قتادة، قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ آخر العقوبتين ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما دخله عدوهم قبل ذلك ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾ فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر المجوسي البابلي، أبغض خلق الله إليه، فسبا وقتل وخرّب بيت المقدس، وسامهم سوء العذاب.

وقال الطبري:

حدثنا أبو السائب، قال: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا، في اثني عشر من الحواريين يعلِّمون الناس، قال: فكان فيما نهاهم عنه، نكاح ابنة الأخ، قال: وكانت لملكهم ابنة أخ تعجبه يريد أن يتزوّجها، وكانت لها كل يوم حاجة يقضيها؛ فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا دخلت على الملك فسألك حاجتك، فقولي: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا؛ فلما دخلت عليه سألها حاجتها، فقالت: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا! فقالت: ما أسألك إلا هذا، قال: فلما أبت عليه دعا يحيى ودعا بطست فذبحه، فبدرت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل، فدلَّته على ذلك الدم، قال: فألقى الله في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفًا منهم من سنّ واحد فسكن.

قلت (مصطفى): وكما ترى فهذه موقوفات ومقطوعات ولا يثبت منها شيء عن النبي ﷺ والغالب أنها إسرائيليات، فالله أعلم بوجوه الحق والصواب.

(٣٨١) أحمر
أسود

إفساد بني إسرائيل والعقوبة عليه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وقدرنا على بني إسرائيل في اللوح المحفوظ وأخبرناهم أيضًا بذلك على ألسنة أنبيائهم، تحذيرًا لهم فالكتاب احتمل أن يكون اللوح المحفوظ، واحتمل أن يكون التوراة، والظاهر أن هذا يشمل الاثنين فالمقدر في اللوح المحفوظ، والذي أخبروا به، أُخبروا به في التوراة، أخبرناهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وقد قيل: إن الأرض أرض الشام، وقيل: إنها مصر، وقد تقدم القول في الإفساد الذي ظهر منهم، وأن منه قتل الأنبياء زكريا ويحيى عليهما السلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ قيل: المراد به الجرأة على الله ﷻ والتعالي على أوامره والترفع عن طاعته وامتثال أمره، وكذا لتغلبن أعداءكم ولتظفرن بهم وتنتصرون عليهم انتصارًا كبيرًا.

فإذا جاء وعد أولاهما، أي: إذا حدث ذلك الإفساد منكم في المرة الأولى، والذي كان منه – على حد قول بعض أهل العلم، قتل زكريا عليه السلام- إذا جاء هذا سلطنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد، أشداء في الحروب سفَّاكي دماء بطشهم شديد فتخللوا دياركم يقتلون من شاءوا ويجرحون من شاءوا ويسبون من شاءوا.

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ أي: لا بد من وقوعه ثم بعد ذلك أعناكم عليهم وقويناكم ونصرناكم وكانت لكم الغلبة عليهم، وأمددناكم بأموال كثيرة، رزقناكم رزقًا حسنًا واسعًا، ورزقناكم بالأولاد أيضًا وجعلناكم أكثر عددًا منهم، وأكثر عددًا مما كنتم عليه قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ أي: إن الله غني عنكم وعن طاعتكم، وإن جزاء إحسانكم وطاعتكم عائدٌ عليكم فيثيبكم الله عليه، وإن أسأتم، عملتم أعمالًا سيئة فجزاء ذلك وعقابه عائدٌ عليكم أيضًا، ولستم بضارين الله ﷻ شيئًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: إذا جاء وقت الإفساد في المرة الثانية، وأفسدتم فإن الله ﷻ سيسلط عليكم ثانية أيضًا عبادًا له أولي بأسٍ شديد أيضًا يقتلونكم ويسبون نساءكم ويسلبونكم أموالكم، فيظهر ذلك على وجوهكم، يظهر عليها أثر الاستياء والحزن والهم والغم، وليدخل هؤلاء المسجد الأقصى فيخربونه كما خرَّبوه أول مرة وليدمروا ما شيدتموه من قصور ومبانٍ تدميرًا.

أما قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ أي: بعد تعذيبكم في الدنيا يرحمكم فيها فيكشف عنكم ما أصابكم وما ألـمَّ بكم، وإن عدتم لإفسادكم عدنا لإرسال العذاب عليكم وتسليط العباد عليكم في الدنيا، أما في الآخرة فقد أعددنا جهنم للكافرين وجعلناها لهم حصيدًا، قيل: مهادًا يفترشونها، وقيل: حصيرًا تحاصرهم، عياذًا بالله منها.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ فقد ذكرنا قول من قال: يعني به:

استكبارهم على الله بالجراءة عليه، وخلافهم أمره.

وأما قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني: فإذا جاء وعد أولى المرّتين اللتين يفسدون بهما في الأرض.

وقوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ وجّهنا إليكم، وأرسلنا عليكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ يقول: ذوي بطش في الحروب شديد. وقوله: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾.

يقول: فتردّدوا بين الدور والمساكن، وذهبوا وجاءوا، يقال فيه: جاس القوم بين الديار وحاسوا بمعنى واحد، وجست أنا أجوس جوسًا وجوسانا.

وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول: معنى جاسوا: قتلوا، ويستشهد لقوله ذلك ببيت حسان:

وَمِنَّا الَّذِي لاقى بسَيْفِ مُحَمَّدٍ ... فَجاسَ بِهِ الأعْداءَ عُرْضَ العَساكِرِ

وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار، فقتلوهم ذاهبين وجائين، فيصح التأويلان جميعًا، ويعني بقوله: ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ وكان جوس القوم الذين نبعث عليهم خلال ديارهم وعدًا من الله لهم مفعولًا ذلك، لا محالة، لأنه لا يخلف الميعاد.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ فيما كان من فعلهم في المرّة الأولى في بني إسرائيل حين بعثوا عليهم، ومن الذين بعث عليهم في المرّة الآخرة، وما كان من صنعهم بهم، فقال بعضهم: كان الذي بعث الله عليهم في المرّة الأولى جالوت، وهو من أهل الجزيرة.

وقال في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم أدلناكم يا بني إسرائيل على هؤلاء القوم الذين وصفهم جلّ ثناؤه أنه يبعثهم عليهم، وكانت تلك الإدالة والكرّة لهم عليهم، فيما ذكر السديّ في خبره أن بني إسرائيل غزوهم، وأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم منهم. وفي قول آخرين: إطلاق الملك الذي غزاهم ما في يديه من أسراهم، ورد ما كان أصاب من أموالهم عليهم من غير قتال، وفي قول ابن عباس الذي رواه عطية عنه هي إدالة الله إياهم من عدوّهم جالوت حتى قتلوه، وقد ذكرنا كلّ ذلك بأسانيده فيما مضى ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يقول: وزدنا فيما أعطيناكم من الأموال والبنين.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ يقول: وصيرناكم أكثر عدَدَ نافرٍ منهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

يقول تعالى ذكره لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم، ولزمتم أمره ونهيه ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ وفعلتم ما فعلتم من ذلك ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنّكم إنما تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بغاكم سوءًا، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوّتكم قوّة. وأما في الآخرة فإن الله تعالى يثيبكم به جنانه ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ يقول: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذٍ، فإلى أنفسكم تسيئون، لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوّكم، ويمكّن منكم من بغاكم سوءًا، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين. وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ والمعنى: فإليها كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٥]، والمعنى: أوحى إليها.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يقول: فإذا جاء وعد المرّة الآخرة من مرّتي إفسادكم يا بني إسرائيل في الأرض ﴿لِيَسُـٔۥاْ وُجُوهَكُمۡ﴾ يقول: ليسوء مجيء ذلك الوعد للمرّة الآخرة وجوهكم فيقبِّحها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾.

يقول تعالى ذكره: لعلّ ربكم يا بني إسرائيل أن يرحمكم بعد انتقامه منكم بالقوم الذين يبعثهم الله عليكم ليسوء مبعثه عليكم وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة، فيستنقذكم من أيديهم، وينتشلكم من الذلّ الذي يحله بكم، ويرفعكم من الخمولة التي تصيرون إليها، فيعزّكم بعد ذلك، وعسى من الله: واجب، وفعل الله ذلك بهم، فكثر عددهم بعد ذلك، ورفع خَساستهم، وجعل منهم الملوك والأنبياء، فقال جلّ ثناؤه لهم: وإن عدتم يا معشر بني إسرائيل لمعصيتي وخلاف أمري، وقتل رسلي، عدنا عليكم بالقتل والسِّباء، وإحلال الذلّ والصِّغار بكم، فعادوا، فعاد الله عليهم بعقابه وإحلال سخطه بهم.

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقين عن قتادة، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ فعاد الله عليهم بعائدته ورحمته ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ قال: عاد القوم بشرّ ما يحضرهم، فبعث الله عليهم ما شاء أن يبعث من نقمته وعقوبته، ثم كان ختام ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة؛ قال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] الآية، فبعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: وجعلنا جهنم للكافرين سجنًا يسجنون فيها.

وقال آخرون: معناه: وجعلنا جهنم للكافرين فراشًا ومهادًا.

ثم قال:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى ذلك ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ فراشًا ومهادًا لا يزايله من الحصير الذي بمعنى البساط، لأن ذلك إذا كان كذلك كان جامعًا معنى الحبس والامتهان.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوًّا كبيرًا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطنا عليكم جندًا من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجَزَريّ وجنوده، سلط عليهم أولًا ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضًا، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ أي: مستقرًّا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجنًا.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحي، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

قال الشنقيطي رحمه الله أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ لما بين جلَّ وعلا أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما: بعث عليهم عبادًا له أولي بأس شديد، فاحتلوا بلادهم وعذبوهم. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قومًا ليسوءوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علو تتبيرًا.

وبين أيضًا: أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه جلَّ وعلا يعود

للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم. وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ولم يبين هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أو لا؟ ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول ﷺ، وكتم صفاته ونقض عهوده، ومظاهرة عدوه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد الله جلَّ وعلا للانتقام منهم تصديقًا لقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فسلط عليه نبيه ﷺ، والمسلمين. فجرى على بني قريظة والنضير، وبني قينقاع وخيبر، ما جرى من القتل، والسبي، والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضّرْب الذلة والمسكنة.

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠]، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾ [البقرة: ١٠٠] الآية، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ

وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

وتركنا بسط قصة الذين سُلطوا عليهم في المرتين. لأنها أخبار إسرائيلية. وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ والعلم عند الله تعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله والعلو في الأرض والتكبر فيها وأنه إذا وقع واحدة منهما سلط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم وهذا تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثًا قدريًّا وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًّا جزائيا ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم فقتلوكم وسبوا أولادكم ونهبوا أموالكم، فجاسوا خِلاَلَ دياركم فهتكوا الدور ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرًا من شريعتهم وطغوا في الأرض.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ منهم وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أي: فلأنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: المرة الأخرى التي تفسدون فيها في الأرض سلطنا عليكم الأعداء.

﴿لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ الحرام ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يخربوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ عليه ﴿تَتۡبِيرًا ۝٧﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ فيديل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة. وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عُدۡنَاۚ﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠
وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ
ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ
وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ
أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ
كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥ وَإِذَآ
أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧ مَّن
كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا
مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ
رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ
وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ﴾

[الإسراء: ٩-٢٢]

(٣٩٢) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿يَهۡدِي - لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ - أَعۡتَدۡنَا - وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ - دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ - عَجُولٗا - ءَايَتَيۡنِ - فَمَحَوۡنَآ - مُبۡصِرَةٗ - لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ - وَٱلۡحِسَابَ - فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا - أَلۡزَمۡنَٰهُ - طَٰٓئِرَهُۥ - مَنشُورًا - حَسِيبٗا - وَلَا تَزِرُ - وَازِرَةٞ - وِزۡرَ - أَمَرۡنَا - مُتۡرَفِيهَا - فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ - فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا - وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا - ٱلۡعَاجِلَةَ - عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا - مَذۡمُومٗا - مَّدۡحُورٗا - وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا - سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا - عَطَآءِ رَبِّكَ - مَحۡظُورًا - مَّخۡذُولٗا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَهۡدِي﴾	يرشد – يدل.
﴿لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾	للطريقة التي هي أحسن الطرق وأصوب الطرق وأصح الطرق.
﴿أَعۡتَدۡنَا﴾	أعددنا.
﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾	يدعو على أهله ونفسه وماله وولده بالشر، كالانتقام أو الموت أو الفقر أو غير ذلك، وقيل: يدعو بتيسير المعصية والحرام.
﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾	كدعائه بالخير.
﴿عَجُولٗا﴾	متعجلًا في أموره ومتطلباته.
﴿ءَايَتَيۡنِ﴾	دلالتين على وحدانية الله وقدرته.
﴿فَمَحَوۡنَآ﴾	طمسنا.
﴿مُبۡصِرَةٗ﴾	مضيئةً.

﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾	لتلتمسوا الرزق الحلال من الله ﷻ بسعيكم في الأرض وتنقلكم فيها، وأسفاركم.
﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾	حساب الأشياء والأزمان وغير ذلك.
﴿فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾	بيَّناه تبيينًا.
﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ﴾	جعلناه ملازمًا له.
﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾	عمله الذي عمل وقيل: المقدر له الذي قدره الله عليه، يلازمه ويتحقق فيه.
﴿مَنشُورًا﴾	مفتوحًا.
﴿حَسِيبٗا﴾	محاسبًا.
﴿وَلَا تَزِرُ﴾	ولا تحمل.
﴿وَازِرَةٞ﴾	نفس حامله.
﴿وِزۡرَ﴾	حمل.
﴿أُخۡرَىٰ﴾	نفس أخرى حاملة.
﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾	أمرنا الأثرياء فيها بالطاعة.
﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾	فوجب عليها العذاب وتحقق ما كتبه الله عليها من الشقاء والهلاك. وقيل: حق عليها القلو الذي أخبر الله به، ومفاده أن أهل الفسق يضربون.
﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾	خربناها تخريبًا.

(٣٩٤) أحمر
أسود

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾	كفى بالله ﷻ مطلعًا على عباده خبيرًا بأعمالهم بصيرًا بهم، لا يحتاج إلى نقل ناقل ولا إخبار مخبر، فهو مطلع خبير بصير بذنوب العباد، فإذا عاقبهم عاقبهم وهو غير ظالم لهم.
﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾	الدنيا.
﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾	أعطيناه فيها عاجلًا غير آجل.
﴿مَذۡمُومٗا﴾	مذمومًا تذمه الخلائق، بل ويذمه الله ﷻ.
﴿مَّدۡحُورٗا﴾	مطرودًا مُبعدًا عن الرحمة والخير
﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾	عمل لها أعمالها الصالحة.
﴿سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾	عملهم يشكره الله ﷻ.
﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾	ما يعطيهم الله للعباد من الأرزاق والأفهام وغير ذلك.
﴿مَحۡظُورًا﴾	ممنوعًا – قاصرًا على أحدٍ بعينه.
﴿مَّخۡذُولٗا﴾	لا ناصر لك ينصرك، ولا وليًّا لك يتولاك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: إن هذا القرآن يرشد ويدلُّ على الطريقة الحسنة التي هي أحسن الطرق وأصوب الطرق وأسلم الطرق وأفضلها في كل شيء، تلك الطرق التي تقرب إلى الله ﷻ وتوصل إلى مرضاته وجناته يهدي للتي هي أقوم في باب التوحيد بالإرشاد إلى أسلم طريق وهو طريق (لا إله إلا الله)، وإفراد الله ﷻ بالعبادة وبربوبيته وبتوحيده في أسمائه وصفاته، وللتي هي أقوم في الدلالة على البعث وبيان حقيقته وكذا فيما يتعلق بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

والتي هي أقوم في أبواب العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك.

وكذا التي هي أقوم في الأخلاق والمعاملات وكذا للتي هي أقوم في حفظ الدماء والأعراض والأموال والأبدان والأنفس.

وللتي هي أقوم في الأخبار والقصص.

والتي هي أقوم في المواريث والديات والفرائض والأنكحة والطلاق وغير ذلك.

يهدي للتي أقوم في كل شيء، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ غيرهم بما يسرهم من الأخبار، وبما أعده الله لهم في فسيح الجنان، يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة، أن لهم أجرًا كبيرًا في الآخرة، وهو جنات النعيم، وكذا رضوان الله ﷻ ورؤية وجهه الكريم، وكذا فإنه يحذر أهل الكفر والجحود والنكران للبعث، ويخبر الله ﷻ أنه أعدَّ لهم عذابًا مؤلمًا موجعًا.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جلّ ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ قال: التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحقّ؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ٣] قال: فيها الحقّ ليس فيها عوج. وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا ﴾ [الكهف: ١-٢] يقول: قيما مستقيما.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ويبشر أيضًا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم عنه بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا ﴾ من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات ﴿ كَبِيرًا ۝٩﴾ يعني ثوابًا عظيمًا، وجزاءً جزيلًا وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره: وأن الذين لا يصدّقون بالمعاد إلى الله، ولا يقرّون بالثواب والعقاب في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على ربهم يوم القيامة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ يعني موجعًا، وذلك عذاب جهنم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ قال ابن الأنباري: «التي» وصف للجمع، والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال. قال المفسرون: وهي توحيد الله والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا﴾ وهو الجنة، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشرهم بالعذاب، لأعدائهم، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذىً من المشركين، فعجَّل الله لهم البشرى في الدنيا بعقاب الكافرين.

وقال السعدي في تفسيره:

يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملًا وافرةً في جهاتٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة.

وأورد الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ صورًا من هداية القرآن للتي هي أقوم، منها:

هدايته للتي هي أقوم في باب التوحيد، فقد هدى الله لتوحيده في هذا الكتاب العزيز، بأقسام التوحيد الثلاثة، وذكر الشنقيطي أيضًا من هداية القرآن للتي هي أقوم ما يلي.

* هدايته أن جعل الطلاق بيد الرجل وليس بيد المرأة.
* وهدايته في تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث.
* ومن هدايته للتي هي أقوم ملك الرقيق المبعد عنه بملك اليمين.
* ومن هدايته للتي هي أقوم القصاص وقطع يد السارق ومكارم الأخلاق، والرجم، والجلد، وذكر القرطبي صورًا كثيرةً من هداية القرآن للتي هي أقوم واستفاض في شرحها رَحِمَهُ اللَّهُ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾.

ج: المعنى – والله أعلم: ويدع الإنسان على نفسه بالشر وعلى أمواله

وعلى أولاده، إذا أصابه منهم مكروه أو إذا أصيب ببلاءٍ، فيتعجل ويدعو بأن يهلكه الله أو يهلك أولاده أو أمواله ولا يكاد يصبر على ما حل به، أو على أذى أولاده وأهله وغير ذلك، ويدعو بالشر كما يدعو بالخير، فكما أنه يقول يا رب ارزقني الولد فإنه إذا ضجر يقول لولده انتقم الله منك وفعل الله بك وفعل، وكان من شأن الإنسان أنه عجول غير صبور، إلا من رحم الله ﷻ.

* هذا، ومن العلماء من أورد وجهًا آخر حاصله، أن الإنسان يدعو أن ييسر الله ﷻ المعصية ويسهل له سبلها كما أنه يسأل الرزق، وكان الإنسان عجولًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مذكرًا عباده أياديه عندهم، ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ، فيقول: اللهمّ أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه، كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك.

وأورد بإسناد يصحح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾ يدعو على ماله، فيلعن ماله وولده، ولو استجاب الله له لأهلكه، ونحوه بإسنادٍ فيه مقال عن مجاهد.

قال الطبري:

واختلف في تأويل قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾ فقال مجاهد ومن ذكرت قوله: معناه: وكان الإنسان عَجولًا بالدعاء على ما يكره، أن يُستجاب له فيه.

وقال آخرون: عنى بذلك آدم أنه عجل حين نفخ فيه الروح قبل أن تجري

في جميع جسده، فرام النهوض، فوصف ولده بالاستعجال، لما كان من استعجال أبيهم آدم القيام، قبل أن يتمّ خلقه.

وأورد من طريق إبراهيم، أن سلمان الفارسيّ، قال: أوّل ما خلق الله من آدم رأسه، فجعل ينظر وهو يُخلق، قال: وبقيت رجلاه؛ فلما كان بعد العصر قال: يا ربّ عَجِّل قبل الليل، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾.

وأورد بإسناد فيه ضعف عن ابن عباس، قال: لما نفخ الله في آدم من روحه أتت النفخة من قبَل رأسه، فجعل لا يجرى شيء منها في جسده، إلا صار لحمًا ودمًا؛ فلما انتهت النفخة إلى سرّته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ قال: ضَجِرًا لا صبر له على سرّاء، ولا ضرّاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ الآية [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «**لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابةٍ يستجيب فيها**»[(١)]. وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ قال ابن عباسٍ وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم

(١) مسلم (١٨/ ٣٣) وأبو داود (٢/ ١٨٥).

أهلكه، ونحوه. ﴿ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ أي: كدعائه ربه أن يهب له العافية، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك. نظيره: ﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ ﴾ [يونس: ١١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من جهل الإنسان وعجلته حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله -بلطفه- يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾.

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير للعلماء، وأحدهما يشهد له قرآنٌ.

وهو أن معنى الآية: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾، كأن يدعو على نفسه أو ولده بالهلاك عند الضجر من أمرٍ، فيقول اللهم أهلكني، أو أهلك ولدي، فيدعو بالشر دعاءً لا يحب أن يستجاب له، وقوله: ﴿ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ أي: يدعو بالشر كما يدعو بالخير فيقول عند الضجر: اللهم أهلك ولدي، كما يقول في غير وقت الضجر: اللهم عافه، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب الله دعاءه بالشر لهلك، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ ﴾ [يونس: ١١] أي: لو عجل لهم الإجابة بالشر كما يعجل لهم الإجابة بالخير لقضي إليهم أجلهم ؛ أي لهلكوا وماتوا، فالاستعجال بمعنى التعجيل.

ويدخل في دعاء الإنسان بالشر قول النضر بن الحارث العبدري: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾. [الأنفال: ٣٢]

(٤٠٢) أحمر
أسود

ومن فسر الآية الكريمة بما ذكرنا: ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادة، وهو أصح التفسيرين لدلالة آية يونس عليه.

الوجه الثاني في تفسير الآية: أن الإنسان كما يدعو بالخير فيسأل الله الجنة، والسلامة من النار، ومن عذاب القبر، كذلك قد يدعو بالشر فيسأل الله أن ييسر له الزنى بمعشوقته، أو قتل مسلمٍ هو عدو له ونحو ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وجعلنا الليل والنهار بما فيهما من شمسٍ وقمر وغير ذلك من نورٍ وظلام، جعلنا ذلك دلالتين على وحدانيتنا وقدرتنا، إذ أننا محونا آية الليل، طمسنا الضوء فيها وجعلناها مظلمةً، ولم نجعل للقمر تلك القوة في الإضاءة كقوة الشمس، وذلك حتى يسكن الناس في الليل ويهدءون ويستريحون وينامون، أما النهار فجعلناه بما فيه الشمس، جعلناه مضيئًا واضحًا مبيِّنًا للأشياء، ذلك كي تسعوا فيه وتنتشروا في الأرض وتبحثوا فيها عن أرزاقكم، وكذا فإننا خالفنا بين الليل والنهار لتعلموا الأيام والليالي والشهور والسنين بذلك، فتعلموا بدايات الأمور ونهايتها وكذا لتعلموا حساب الأشياء كعدد المطلقات وأوقات الحمل والرضاع والزروع والثمار وغير ذلك من أنواع الحساب، وكل شيء بيَّناه لكم تبيينًا، ووضحناه لكم إيضاحًا وأظهرناه إظهارًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نعمته عليكم أيها الناس، مخالفته بين علامة الليل

وعلامة النهار، بإظلامه علامة الليل، وإضاءته علامة النهار، لتسكنوا في هذا، وتتصرّفوا في ابتغاء رزق الله الذي قدره لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ يقول: وكلّ شيء بيناه بيانًا شافيًا لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادة، دون الآلهة والأوثان.

وأورد الطبري من طرق متعددة تصح بمجموعها: أن ابن الكوّاء سأل عليًّا ما هذا السواد في القمر؟ فقال عليّ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ هُوَ المَحْو.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ قال: بيَّناه تبيِّنًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيءٌ من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آيةً، أي: علامةً يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامةً، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ...﴾ الآية [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ ﴾ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ ﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويستبين

(٤٠٥) أحمر
أسود

الحق من الباطل كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل الليل والنهار آيتين، أي علامتين دالتين على أنه الرب المستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره، وكرر تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾، وقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾ [يس: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾ [يونس: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ - إلى قوله - لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾ [الزمر: ٥]، وقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)﴾ [الشمس: ١-٤] الآية، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾ [الليل: ١-٢] الآية، وقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾ [الضحى: ١-٢] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً

﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ يعني أنه جعل الليل مظلمًا مناسبًا للهدوء والراحة، والنهار مضيئًا مناسبًا للحركة والاشتغال بالمعاش في الدنيا، فيسعون في معاشهم في النهار، ويستريحون من تعب العمل بالليل، ولو كان الزمن كله ليلًا لصعب عليهم العمل في معاشهم، ولو كان كله نهارًا لأهلكهم التعب من دوام العمل.

فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته جل وعلا، فهما أيضًا نعمتان من نعمه جل وعلا.

وبين هذا المعنى المشار إليه هنا في مواضع أخر، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي في الليل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي في النهار، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٩-١١]، الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، بين فيه نعمةً أخرى على خلقه، وهي معرفتهم عدد السنين والحساب، لأنهم باختلاف الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون

مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجارات ونحو ذلك.

وبين جل وعلا هذه الحكمة في مواضع أخر، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥]. وقوله جل وعلا: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن الكلام على حذف مضافٍ، والتقدير: وجعلنا نيري الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين.

وعلى هذا القول، فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، والمحو: الطمس. وعلى هذا القول: فمحو آية الليل قيل معناه السواد الذي في القمر، وبهذا قال علي رضي الله عنه، ومجاهدٌ، وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وقيل: معنى ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: لم نجعل في القمر شعاعًا كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤيةً بينةً، فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول.

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾، والقول بأن معنى محو آية الليل: السواد الذي في القمر ليس بظاهرٍ عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام، وبعض أجلاء أهل العلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ على التفسير المذكور؛ أي الشمس ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾،

أي: ذات شعاعٍ يبصر في ضوئها كل شيءٍ على حقيقته.



طائرٌ كل إنسان في عنقه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: أما الطائر المراد هنا، فمن العلماء من قال إنَّ الأمر المقدر خيرًا كان أو شرًّا، فالذي قدر للإنسان لا بد وأن يراه ويقع فيه ويعمله، وكذا الشقاوة والسعادة. ومن العلماء من قال إن الطائر هنا العمل الذي عمله ابن آدم يلازمه يوم القيامة، ولا ينفك عنه بل سيراه واضحًا وجليًّا، وسنخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه مفتوحًا فيه أعماله التي عملها في دنياه، وأقواله التي قالها، بلى وتبلى السرائر وتظهر النوايا، وهذا كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]، وكما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

أما قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ فيقرأ كل شخص كتابه، حتى من كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب في الدنيا فإنه يقرأ يوم القيامة ويحاسب نفسه ويعرف ما اجتناه وما ارتكبه فما ربك بظلام للعبيد.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكلّ إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه، وإنما قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها، فأعلمهم جلّ

ثناؤه أن كلّ إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه نحسًا كان ذلك الذي ألزمه من الطائر، وشقاء يورده سعيرًا، أو كان سعدًا يورده جنات عدن.

وأورد عدة آثار مفادها أن طائره المراد به عمله، وعن قتادة بسندٍ حسن قال: إي: والله بسعادته وشقائه بعمله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: وكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل: ألزمناه في يديه ورجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: لأن العنق هو موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة بني آدم وغيرهم من ذلك إلى أعناقهم وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

قال الطبري:

فتأويل الكلام: وكلّ إنسان منكم يا معشر بني آدم، ألزمناه نحسه وسعده، وشقاءه وسعادته، بما سبق له في علمنا أنه صائر إليه، وعامل من الخير والشرّ في عنقه، فلا يجاوز في شيء من أعماله ما قضينا عليه أنه عامله، وما كتبنا له أنه صائر إليه، ونحن نخرج له إذا وافانا كتابًا يصادفه منشورًا بأعماله التي عملها في الدنيا، وبطائره الذي كتبنا له، وألزمناه إياه في عنقه، قد أحصى عليه ربه فيه كلّ ما سلف في الدنيا.

وقال الطبري أيضًا:

وقد كان بعض أهل العربية يتأوّل قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾:

أي حظه من قولهم: طار سهم فلان بكذا: إذا خرج سهمه على نصيب من الأنصباء، وذلك وإن كان قولًا له وجه، فإن تأويل أهل التأويل على ما قد بينت، وغير جائز أن يتجاوز في تأويل القرآن ما قالوه إلى غيره، على أن ما قاله هذا القائل، إن كان عنى بقوله حظه من العمل والشقاء والسعادة، فلم يبعد معنى قوله من معنى قولهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ فيقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ فترك ذكر قوله: فنقول له، اكتفاء بدلالة الكلام عليه. وعنى بقوله ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾: اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتبان يكتبانه، ونحصيه عليك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسبًا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهدًا غيرها، ولا نطلب عليك محصيًا سواها.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئًا في الدنيا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى بعد ذكر الزّمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ وغير واحدٍ: من خيرٍ وشرٍّ، يلزم به ويجازى عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزّلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠ -١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿١٦﴾ [الطّور: ١٦] وقال: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: ١٢٣].

والمقصود أنّ عمل ابن آدم محفوظٌ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً.

وقال:

وقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كلّه في كتابٍ يعطاه يوم القيامة، إمّا بيمينه إن كان سعيدًا، أو بشماله إن كان شقيًّا ﴿مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أوّل عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣ -١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي: إنّك تعلم أنّك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحدٌ شيئًا ممّا كان منه، وكلّ أحدٍ يقرأ كتابه من كاتبٍ وأمّيٍّ.

وقوله: ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ إنّما ذكر العنق؛ لأنّه عضوٌ لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيءٍ فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشّاعر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا ... طُوِّقْتَهَا طَوْقَ الْحَمَامَةِ

وأورد ما أخرجه أحمد من طريق عبد الله (وهو ابن المبارك) قال: حدثنا ابن لهيعة حَدَّثَنِي يَزِيدُ: أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فُلَانٌ، قَدْ حَبَسْتَهُ؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ، حَتَّى يبرأ أو يموت**»[1].

---

(١) أحمد (٤/ ١٤٦)، وابن لهيعة متكلم فيه إلا أن من العلماء من قبل رواية العبادلة عنه، ومنهم عبد الله بن المبارك، ولعله من أجل ذلك قال ابن كثير: إسناده جيد قوي. والله أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازمًا له لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

في قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾، وجهان معروفان من التفسير:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهمٌ إذا خرج له، أي: ألزمناه ما طار له من عمله.

الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوةٍ أو سعادةٍ، والقولان متلازمان ؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فاعلم: أنا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوالٌ، وكلها حق، ويشهد له قرآن، فنذكر جميع الأقوال وأدلتها من القرآن، لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران في تفسير هذه الآية الكريمة كلاهما يشهد له قرآنٌ.

أما على القول الأول بأن المراد بطائره عمله، فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازمٌ له كثيرةٌ جدا؛ كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]،وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] والآيات بمثل هذا كثيرةٌ جدا.

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذي طار له في الأزل من الشقاوة أو السعادة، فالآيات الدالة على ذلك أيضًا كثيرةٌ؛ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ [التغابن: ٢].

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ أي: للاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم. وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: من اهتدى، سلك طريق الهداية واتبع أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ فإنما ثواب هدايته وعمله لنفسه، وإلا فالله ﷻ غني عن عباده، كما تقدم مرارًا في الحديث القدسي: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا**».

وكذا فمن ضل وحاد عن طريق الحق وانصرف عنه فإنما إثم ضلاله عائدٌ عليه، ولا تحمل نفس حمل نفس أخرى من الآثام، بمعنى أنه لو كانت هناك

نفسٌ وافت ربها وهي تحمل آثامًا فلن تأتي نفس تأخذ منها آثامًا كي تخفف أحمالها.

نعم قد تعذب نفس لإضلالها نفسًا أخرى وقد تحمل آثامًا نتيجة ذلك الإضلال، ولكنها لا تخفف آثام نفس أخرى، كما في الحديث، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فحاصل معناه: أن الله ﷻ لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومجيء النذير ففي الآية: دليل على عذر من لم يأتهم نذير، وعلى عذر من فعل فعلًا بجهل، وتؤيده نصوص أخر كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] إلى غير ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من استقام على طريق الحق فاتبعه، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمدًا ﷺ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فليس ينفع بلزومه الاستقامة، وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن جار عن قصد السبيل، فأخذ على غير هدى، وكفر بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله من الحق، فليس يضر بضلاله وجوره عن الهدى غير نفسه، لأنه يوجب لها بذلك غضب الله وأليم عذابه.. وإنما عنى بقوله ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنما يكسب إثم ضلاله عليها لا على غيرها، وقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يعني تعالى ذكره: ولا تحمل حاملة حمل أخرى غيرها من الآثام. وقال ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأن معناها: ولا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى يقال منه: وزرت كذا أزره وزرًا، والوزر: هو الإثم، يجمع أوزارًا، كما قال تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وكأن معنى الكلام: ولا تأثم آثمة إثم أخرى، ولكن على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والله ما يحمل الله على عبد ذنب غيره، ولا يؤاخذ إلا بعمله.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾: إن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحدًا حتى يسبق إليه من الله خبرًا، أو يأتيه من الله بينة، وليس معذبًا أحدًا إلا بذنبه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحدٌ ذنب أحدٍ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثمٌ آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

(٤١٦) أحمر
أسود

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبارٌ عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ومن ثم طعن جماعةٌ من العلماء في اللفظة التي جاءت مقحمةً في صحيح البخاري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه ولا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولًا لأنه منزه عن الظلم.



من سنة الله في إهلاك الأمم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا أهلها والمترفين منهم والأثرياء منهم، أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها وخرجوا من الطاعة فتحقق فيها قول الله ﷻ الذي كتبه عليها من العذاب فدمرها الله تدميرًا، وقيل: حق عليها العذاب الذي وعد الله به من عصى وفسق.

هذا، وهناك قراءة أخرى في قوله تعالى: (**أمرنا**) بالتشديد، أي: جعلناهم أمراء، فلما جعلناهم أمراء فسقوا في البلاد فدمرهم الله تدميرًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ فقرأت ذلك عامة قراء الحجاز والعراق ﴿أَمَرْنَا﴾ بقصر الألف وغير مدها وتخفيف الميم وفتحها. وإذا قرئ ذلك كذلك، فإن الأغلب من تأويله: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها بمعصيتهم الله، وخلافهم أمره، كذلك تأوله كثير ممن قرأه كذلك.

وأورد بسنده إلى أبي عثمان النهدي: أنه قرأ «**أمرنا**» مشددة من الإمارة، وقد تأول هذا الكلام على هذا التأويل، جماعة من أهل التأويل.

قال الطبري:

وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بقصر الألف من أمرنا وتخفيف الميم منها، لإجماع الحجة من القراء على تصويبها دون غيرها. وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة، فأولى

التأويلات به تأويل من تأوله: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحق عليهم القول؛ لأن الأغلب من معنى أمرنا: الأمر، الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام الله جل ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره.

ومعنى قوله ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: فخالفوا أمر الله فيها، وخرجوا عن طاعته ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ يقول: فوجب عليهم بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها، وعيد الله الذي أوعد من كفر به، وخالف رسله، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ يقول: فخربناها عند ذلك تخريبًا، وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكًا.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ في سبب إرادته لذلك قولان:

أحدهما: ما سبق لهم في قضائه من الشقاء.

والثاني: عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ قرأ الأكثرون: «**أمرنا**» مخففة، على وزن «فعلنا»، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها، هذا مذهب سعيد بن جبير. قال الزجاج: ومثله في الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر.

والثاني: «كثرنا» يقال: أمرت الشيء وآمرته، أي: كثرته، ومنه قولهم: مهرةٌ مأمورةٌ، أي: كثيرة النتاج، يقال: أمر بنو فلان يأمرون أمرًا: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة.

والثالث: أن معنى «أمرنا»: أمرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته،

والمعنى: سلطنا مترفيها بالإمارة، ذكره ابن الأنباري.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرا قدريا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم، ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾.



كثرة القرون التي أهلكها الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ١٧﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: تذكيرٌ بالقرون المكذبة للرسل المعاندة لأمر ربها ﷻ، وكيف وأن الله ﷻ انتقم منهم وأبادهم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ﴾، وهي للتكثير ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ المكذبة لرسلها الجاحدة وحدانية ربها ﷻ ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ١٧﴾ أي: أن الله ﷻ لم يكن غافلًا عن ذنوبهم، وأنه سبحانه لم يعذبهم إلا بذنوبهم فإنه ﷻ ليس بظلام للعبيد، بل هو خبير بما صنعوه بصير به فآخذهم بذنوبهم وعاقبهم بها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا وعيد من الله تعالى ذكَّره مكذبي رسوله محمد ﷺ من مشركي قريش، وتهديد لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم، أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله ﷺ أنه محل بهم سخطه، ومنزل بهم من عقابه ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله، وتكذيب رسله سبيلهم، يقول الله تعالى ذكره: وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوح إلى

زمانكم قرونًا كثيرة كانوا من جحود آيات الله والكفر به، وتكذيب رسله، على مثل الذي أنتم عليه، ولستم بأكرم على الله تعالى منهم، لأنه لا مناسبة بين أحد وبين الله جل ثناؤه، فيعذب قومًا بما لا يعذب به آخرين، أو يعفو عن ذنوب ناس فيعاقب عليها آخرين؛ يقول جل ثناؤه: فأنيبوا إلى طاعة الله ربكم، فقد بعثنا إليكم رسولًا ينبهكم على حججنا عليكم، ويوقظكم من غفلتكم، ولم نكن لنعذب قومًا حتى نبعث إليهم رسولًا منبهًا لهم على حجج الله، وأنتم على فسوقكم مقيمون، وكفى بربك يا محمد بذنوب عباده خبيرًا: يقول: وحسبك يا محمد بالله خابرًا بذنوب خلقه عالمًا، فإنه لا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خلقه، وهو بجميع ذلك عالم خابر بصير، يقول: يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أدخلت الباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ وهو في محل رفع، لأن معنى الكلام: وكفاك ربك، وحسبك ربك بذنوب عباده خبيرًا، دلالة على المدح، وكذلك تفعل العرب في كل كلام كان بمعنى المدح أو الذم، تدخل في الاسم الباء والاسم المدخلة عليه الباء في موضع رفع لتدل بدخولها على المدح أو الذم كقولهم: أكرم به رجلًا وناهيك به رجلًا وجاد بثوبك ثوبًا، وطاب بطعامكم طعامًا، وما أشبه ذلك من الكلام، ولو أسقطت الباء مما دخلت فيه من هذه الأسماء رفعت؛ لأنها في محل رفع، كما قال الشاعر:

ويخبرني عن غائب المرء هديه ... كفى الهدي عما غيب المرء مخبرًا

فأما إذا لم يكن في الكلام مدح أو ذم فلا يدخلون في الاسم الباء؛ لا يجوز أن يقال: قام بأخيك، وأنت تريد: قام أخوك، إلا أن تريد: قام رجل آخر به، وذلك معنى غير المعنى الأول.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم واشتد كفرهم أنزل الله بهم عقابه العظيم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ فلا يخافوا منه ظلمًا وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى منذرًا كفار قريشٍ في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ بأنه قد أهلك أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوحٍ، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوحٍ على الإسلام، كما قاله ابن عباسٍ: كان بين آدم ونوحٍ عشرة قرونٍ كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ أي: هو عالمٌ بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.



تعريف القرن وبيان مقداره

س: كم مدة القرن؟

ج: قد اختلف العلماء في تحديد القرن على أقوال، نذكر أشهرها:

القول الأول: هو أن القرن مائة عام. واستدل القائلون بهذا القول بأدلة منها ما أخرجه أحمد (٤/ ١٨٩) بإسناد صحيح وفيه قال أبو عبد الله الحسن بن أيوب الحضرمي: أراني عبد الله بن بسر شامة في قرنه فوضعت أصبعي عليها

فقال: وضع رسول الله ﷺ أصبعه عليها ثم قال: «**لتبلغن قرنًا**» وإسناده صحيح كما بينا.

قالوا: وقد عاش عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مائة سنة فدل ذلك على أن القرن مائة سنة، وممن ذكر أن عبد الله بن بسر عاش مائة سنة ابن سعد كما نقل عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ٢٧٣ ترجمة عبد الله بن بسر) وقال الحافظ هناك أيضًا: وكذا ذكره أبو نعيم وساق في ترجمته ما رواه البخاري في التاريخ الصغير أيضًا عن عبد الله بن بسر أن النبي ﷺ قال له: «**يعيش هذا الغلام قرنًا**»، فعاش مائة سنة، وذكر الحافظ ابن حجر في التهذيب والتقريب أن عبد الله بن بسر عاش مائة سنة.

ويترجح هذا القول إذا ثبت بالسند الصحيح أن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاش مائة سنة فقد ورد في عمره بعض الخلاف فيحرر القول في وفاته على الوجه الصحيح.

القول الثاني: أن المراد بالقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويقال: إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل. ذكره الحافظ ابن حجر.

القول الثالث: وصححه النووي (في شرح مسلم٥/ ٣٩٣) أن قرن النبي ﷺ هم الصحابة، والثاني التابعون، والثالث: تابعوهم، ولمزيد انظر لسان العرب (ص٣٦٠٩).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (فتح الباري٧/ ٥): والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة، وقد سبق في صفة النبي ﷺ قوله: «**وَبُعِثْتُ فِي خَيرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ**» (قلت: الحديث عند البخاري ٣٥٥٧) وفي رواية بريدة عند أحمد «**خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ القَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ**» (قلت: هذه الرواية عند أحمد

٥/ ٣٥٧ وفي إسنادها عبد الله بن موله وهو مجهول لكن له شوهد تصح بها بعضها في الباب وبعضها عند أحمد ٤/ ٢٦٧، ٤٢٦). وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنةٍ وعشرون سنةً أو دونها أو فوقها بقليلٍ على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكونُ مائة سنةٍ أو تسعين أو سبعًا وتسعين وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائةٍ كان نحو سبعين أو ثمانين وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحوًا من خمسين فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمانٍ والله أعلم واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا وأطلقت المعتزلة ألسنتها ورفعت الفلاسفة رءوسها وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيرًا شديدًا ولم يزل الأمر في نقصٍ إلى الآن وظهر قوله ﷺ: «**ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ**» ظهورًا بينًا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان.



لكل جزاء بنواياه وعمله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: من كان يريد بعمله وسعيه ونواياه الدنيا وما فيها من المتاع العاجل لم نعطه منها إلا ما كتبناه له وقدرناه له، فقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: أعطيناه في الدنيا عاجلًا، ولكن لم تعط أيضًا إلا لمن أردنا وبالقدر الذي أردنا فليس كل مريدٍ للدنيا يعطى فيها مراده، فكم من مريد للدنيا وهو فقير، وكم من مريدٍ لها وهو مريض سقيم، وكم من مريدٍ لها وهو وضيع ذليل سجين.

فحتى مريد الدنيا لا يعطى منها إلا ما قدره الله له وقسمه له ولكن لما كان مريد الدنيا محرومًا في الآخرة، وليس له فيها من نصيب أشير بقوله: ﴿عَجَّلْنَا﴾ ذلك؛ لأنه ليس له أي شيء في الآخرة، إلا النار، فمن ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها مصليًّا بحرها ﴿مَذْمُومًا﴾ على ما كان منه من إرادته الدنيا وعدم عمله للآخرة يذم على ما كان منه، يذمه الله ﷻ ويذمه عباد الله كذلك، أما قوله: ﴿مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي: مبعدًا مطرودًا عن رحمة الله وعن جنة الله ﷻ وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: ومن كان يبتغي بعمله وجه الله ﷻ وثواب الله يوم القيامة وعمل لذلك الأعمال الصالحة الموافقة لكتاب الله ﷻ مصدقًا بالله ﷻ وبوعده ووعيده مؤمنًا على الوجه الذي أمر به من الإيمان ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ العاملون كان عملهم مشكورًا، يشكر الله لهم صنيعهم ويثيبهم عليه.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بمعاد، ولا يرجو ثوابًا ولا عقابًا من ربه على عمله ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يقول: يعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يقول: ثم أصليناه عند مقدمه علينا في الآخرة جهنم، ﴿مَذْمُومًا﴾ على قلة شكره إيانا، وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا ﴿مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ يقول: مبعدًا: مقصى في النار.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يقول: من كانت الدنيا همه وسدمه وطلبته ونيته، عجل الله له فيها ما يشاء، ثم اضطره إلى جهنم، قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ مذمومًا في نعمة الله مدحورًا في نقمة الله.

ويقول تعالى ذكره: من أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها، الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وأضاف السعي إلى الهاء والألف، وهي كناية عن الآخرة، فقال: وسعى للآخرة سعي الآخرة، ومعناه:

وعمل لها عملها لمعرفة السامعين بمعنى ذلك، وأن معناه: وسعى لها سعيه لها وهو مؤمن، يقول: هو مؤمن مصدق بثواب الله، وعظم جزائه على سعيه لها، غير مكذب به تكذيب من أراد العاجلة، يقول الله جل ثناؤه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: فمن فعل ذلك ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ يعني عملهم بطاعة الله ﴿مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء.

وهذه مقيدةٌ لإطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذۡمُومٗا﴾ أي: في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَّدۡحُورٗا ١٨﴾: مبعدًا مقصيا حقيرًا ذليلًا مهانًا.

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: وقلبه مؤمنٌ، أي: مصدقٌ بالثواب والجزاء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ يعني: الدنيا، والمراد الدار العاجلة، فعبر بالنعت عن المنعوت. ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار. ﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ أي: مطردًا مبعدًا من رحمة الله. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قسم لهم. وقد تقدم في «هودٍ» أن هذه الآية تقيد الآيات المطلقة، فتأمله. ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ أي: عمل لها عملها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمنٍ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾

أي: مقبولا غير مردودٍ. وقيل: مضاعفًا، أي: تضاعف لهم الحسنات إلى عشرٍ، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعفٍ، وإلى أضعافٍ كثيرةٍ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الدنيا المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ أي: مقبولًا منمى مدخرا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ أي: ممنوعًا من أحد بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنعت عن الاسم، ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ من عرض الدنيا، وقيل: من البسط

والتقتير، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لمن نريد هلكته، قاله أبو إسحاق الفزاري.

والثاني: لمن نريد أن نعجل له شيئًا، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال مع ما يقصده منها إلا ما قدر له، ثم يدخل النار في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني: الجنة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمل لها العمل الذي يصلح لها، وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا. وشكر الله ﷻ لهم: ثوابه إياهم، وثناؤه عليهم.



س: هل كان مريد للدنيا يعطاها، وهل كل داع وسائل بها يجاب؟

ج: لي كل مريد للدنيا يعطاها، وليس كل داع بها يجاب، إنما يعطى منها الذي قدره الله له ويجاب دعاء من أراد الله؟! إجابته كما قال تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، ولذلك كما سلف نرى في الدنيا كفارًا فقراء وأشقياء وتعساء ومرضى وأذلاء. مع أن منهم من يسأل الله ويرجوه ويدعوه. والله أعلم.



عطاء الله في الدنيا ليس بقاصر على المسلمين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: كلا نعطي، من عطاءنا في الدنيا ومن رزقنا، نعطي الكفار ونعطي المؤمنين فالرزق في الدنيا ليس بقاصرٍ على المؤمنين بل يعم المؤمن والكافر، ولهذا لما سأل الخليل إبراهيم ربَّه ﷻ قائلًا: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ومن كفر

سأرزقه أيضًا في الدنيا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعًا من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعًا عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه.

وأورد بإسناد يصحح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾: أي منقوصًا، وإن الله ﷻ قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصًا عند ربك للمتقين.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهل الدنيا وأهل الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ من بر ولا فاجر، قال: والمحظور: الممنوع، وقرأ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: محبوسًا ممنوعًا، من حظر يحظر حظرًا وحظارًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي: كل واحدٍ من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلا ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: ممنوعًا، أي: لا يمنعه أحدٌ ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: منقوصًا.

وقال الحسن وغيره: ممنوعًا.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ﴾ قال الزجاج: ﴿كُلًّا﴾ منصوب بـ﴿نُمِدُّ﴾، ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بدل من «كل»، والمعنى: نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. قال المفسرون: كلا نعطي من الدنيا، البر والفاجر، والعطاء هاهنا: الرزق، والمحظور: الممنوع، والمعنى: أن الرزق يعم المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة.



س: يستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ على ما هو أعم من الرزق كالطعام والشراب وضح ذلك؟

ج: نعم فيستدل بذلك على أمورٍ كثيرة كالفهم مثلًا فقد يرزق الله ﷻ شخصًا فهمًا لا يرزقه آخر، فمن ثم فباب الاجتهاد مفتوح فالأفهام ليست بقاصرة على أحدٍ بعينه والآراء السديدة ليست بقاصرة على واحدٍ بعينه[(١)].

والأرزاق بالبنين ليست بقاصرة على أحد بعينه إلى غير ذلك، والله

(١) أعني غير الرسل.

أعلم.

س: وضـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١ ﴾.

ج: انظر يا رسول الله، وانظر يا عبد الله إلـى هـؤلاء البشـر في دنيـاهم، كيـف وأننا فضلنا بعضهم على بعض بصورٍ من التفضيل، فهذا فضل بما رزقه الله من الإيمان والبصيرة والهدى، فهو مؤمن مستبصر مهتدي وهـذا حـرم ذلـك فكـان كافرًا أعمى البصيرة سالكًا سبيل الغواية.

وآخر فضل بالمال والجمال والوضاءة والحسن، وهذا حرم من كـل ذلـك أو بعض ذلك.

وهذا فضل بالمنصب والجاه، وهذا حرم المنصب والجاه.

هذا فضل بالبنين والذرية، وهـذا محـرم، وهـذا فضـل بذكائـه، وهـذا قليـل الفهم، إلى غير ذلك من صور التفضيل.

فـإذا رأيـتهم كـذلك في الـدنيا، فـاعلم أن التفـاوت في الـدرجات في الآخـرة أعظم من ذلك بكثير وأكبر من ذلك بكثير فهنالك من هـم في أعـالي الـدرجات في الجنان، وهناك من هم دون ذلك، فإذا كان قارئ القرآن يقال لـه اقـرأ وارتـق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤهـا، ففـي هـذا بيـانٌ للتفاضـل في الـدرجات من هذا الوجه، وكذا الشهداء وكذا عموم أهل الإيمان، وقد قـال تعـالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمـران: ١٦٣]، وقـال في شـأن أقـوام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾ [طه: ٧٥].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكـره لنبيـه محمـد ﷺ: انظـر يـا محمـد بعـين قلبـك إلـى هـذين

الفريقين اللذين هم أحدهما الدار العاجلة، وإياها يطلب، ولها يعمل؛ والآخر الذي يريد الدار الآخرة، ولها يسعى موقنا بثواب الله على سعيه، كيف فضلنا أحد الفريقين على الآخر، بأن بصرنا هذا رشده، وهديناه للسبيل التي هي أقوم، ويسرناه للذي هو أهدى وأرشد، وخذلنا هذا الآخر، فأضللناه عن طريق الحق، وأغشينا بصره عن سبيل الرشد ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ يقول: وفريق مريد الآخرة أكبر في الدار الآخرة درجات بعضهم على بعض لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة وأكبر تفضيلا بتفضيل الله بعضهم على بعض من هؤلاء الفريق الآخرين في الدنيا فيما بسطنا لهم فيها.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: في الدنيا ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ وإن للمؤمنين في الجنة منازل، وإن لهم فضائل بأعمالهم، وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «**إن بين أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجةً كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها**».

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل، فمن مقل ومكثرٍ. ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي: للمؤمنين، فالكافر وإن وسع عليه في الدنيا مرةً، وقتر على المؤمن مرةً فالآخرة لا تقسم إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاته شي منها لم يستدركه فيها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيرًا، ومن يعمر حتى يبقى شيخًا كبيرًا، وبين ذلك ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في

الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجةٍ ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين[(١)]: «**إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ**»؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وفيما فضِّلوا فيه قولان:

أحدهما: الرزق، منهم مقلٌّ، ومنهم مُكثر.

والثاني: الرزق والعمل، فمنهم موفَّق لعمل صالح، ومنهم ممنوع من ذلك.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده.

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: لا تعبد مع الله ﷻ إلهًا آخر ولا تعتقد ذلك فإنك إن فعلت كنت مذمومًا من خالقك ﷻ غاية الذم، ومذمومًا من ملائكته الكرام، ومن عباده وكذا من الدواب وسائر الخلائق، أما ﴿مَّخْذُولًا﴾ فمعناه: لا ناصر لك ينصرك، ولا وليًّا يتولاك.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تجعل يا محمد مع الله شريكا في ألوهته وعبادته، ولكن أخلص له العبادة، وأفرد له الألوهة، فإنه لا إله غيره، فإنك إن تجعل معه إلها غيره، وتعبد معه سواه، تقعد مذموما: يقول: تصير ملوما على ما ضيعت من شكر الله على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصييرك الشكر لغير من أولاك المعروف، وفي إشراكك في الحمد من لم يشركه في النعمة عليك غيره، مخذولا قد أسلمك ربك لمن بغاك سوءا، وإذا أسلمك ربك الذي هو ناصر أوليائه لم يكن لك من دونه وليّ ينصرك ويدفع عنك.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ يقول: مذموما في نعمة الله، وهذا الكلام وإن كان خرج على وجه الخطاب لنبيّ الله ﷺ، فهو معنيّ به جميع من لزمه التكليف من عباد الله جلّ وعزّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب

تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ. وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْإِنْسَانِ. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: تَبْقَى. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لَا ناصر لك ولا وليًّا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ولا تشرك بالله أحدا منهم فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك وذموا من عمله أشد الذم ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفا وأقبحهم نعتا.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به ولا أحد من الخلق ينفع أحدا إلا بإذن الله، كما أن من جعل مع الله إلها آخر له الذم والخذلان، فمن وحده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود معان في جميع أحواله.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى عام لجميع المكلفين. والمخذول: الذي لا ناصر له، والخذلان: ترك العون. قال مقاتل: نزلت حين دعَوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ
ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا
كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ
لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا
تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ
كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا
﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا
﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ
ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

(٤٣٧) أحمر
أسود

تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ
أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ
وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ
مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا
مَّدۡحُورًا ٣٩﴾.

[الإسراء: ٢٣-٣٩].

(٤٣٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ - وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا - يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ - أُفٍّ - وَلَا تَنْهَرْهُمَا - قَوْلًا كَرِيمًا - وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ - لِلْأَوَّٰبِينَ - غَفُورًا - ذَا ٱلْقُرْبَىٰ - وَلَا تُبَذِّرْ - تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ - ٱبْتِغَآءَ - رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ - قَوْلًا مَّيْسُورًا - مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ - وَلَا تَبْسُطْهَا - مَلُومًا - مَّحْسُورًا - يَبْسُطُ - وَيَقْدِرُ - خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ - خِطْـًٔا - فَٰحِشَةً - وَسَآءَ سَبِيلًا - لِوَلِيِّهِۦ - سُلْطَٰنًا - فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ - بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ - وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ - وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ - وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ - وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا - وَلَا تَقْفُ - وَٱلْفُؤَادَ - مَرَحًا - سَيِّئُهُۥ - مَكْرُوهًا - ٱلْحِكْمَةِ - مَلُومًا - مَّدْحُورًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾	أَمَرَ ربك ﷻ.
﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾	وأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا تكرموهما إكرامًا وتلينوا الخطاب معهما تليينًا.
﴿يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾	يكبران في السن ويتقدم بهما العمر.
﴿أُفٍّ﴾	كلمة تأفف وإظهار للأذى والضيق.
﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾	ولا تزجرهما.
﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾	قولًا لينًا حسنًا سهلًا جميلًا.
﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾	تواضع لهما وأطعهما في غير معصية الله رحمة بهما واحتسابًا للأجر والثواب من الله.

﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾	للرجَّاعين إلى الله – للتائبين – للمستغفرين.
﴿غَفُورًا﴾	كثير المغفرة.
﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾	أولوا الأرحام، الأقرباء من ناحية الأم والأب.
﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾	ولا تنفق مالًا في غير حله وفي غير منفعة لا تنفق أكثر من المطلوب.
﴿تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾	تنصرف عنهم ولا تعطيهم.
﴿ٱبْتِغَآءَ﴾	طلب – انتظار.
﴿رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾	رزق من ربك.
﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾	قولًا سهلًا لينًا.
﴿مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾	مربوطة إلى رقبتك، والمراد: لا تكن بخيلًا.
﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾	لا تمدها، أي: لا تنفق شيئًا في غير بابه، ولا تنفق ما هو فوق طاقتك.
﴿مَلُومًا﴾	يلومك العباد، بل ويلومك ربك وتلوم نفسك.
﴿مَّحْسُورًا﴾	متحسرًا على ضياع مالك، منقطعًا لعدم وجود شيء معك تنفقه.
﴿يَبْسُطُ﴾	يوسع في الرزق.
﴿وَيَقْدِرُ﴾	يضيق.
﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾	خوف فقر وإقتارٍ.
﴿خِطْـًٔا﴾	ذنبًا – إثمًا.

(٤٤٠) أحمر
أسود

﴿فَٰحِشَةً﴾	كبيرة مستفحشة لا يقرها الشرع ولا تقرها العقول السليمة.
﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾	ساء طريقًا (لكونه يوصل إلى النار).
﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾	لأولياء المقتول، وهم عصبته الأقرب فالأقرب.
﴿سُلۡطَٰنًا﴾	تسلطًا.
﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾	فلا يتجاوز في القتل، لا يقتل غير القاتل، ولا يقتل اثنين بواحد ولا يُمثل بالمقتولين.
﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾	بالطريقة التي هي أحسن الطرق.
﴿يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾	يبلغ الحُلم ويدرك ويفهم كيف يُدير ماله.
﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾	نفِّذوا الأشياء التي اتفقتم عليها وعاهدتم عليها.
﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾	وأتموا الكيل.
﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾	زينوا بالميزان المستقيم الحق الذي لا اعوجاج فيه.
﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾	أحسن عاقبة ومردًا (في الدنيا والآخرة).
﴿وَلَا تَقۡفُ﴾	ولا تقل – لا تقل رأيت وأنت لم تر وسمعت وأنت لم تسمع، ولا تقل على الله بغير علم، ولا ترم بالفاحشة وأنت لم تر.
﴿وَٱلۡفُؤَادَ﴾	القلب.
﴿مَرَحًاۖ﴾	مختالًا متكبرًا.
﴿سَيِّئُهُۥ﴾	السيئ منه.

(٤٤١) أحمر
أسود

﴿مَكۡرُوهٗا﴾	المراد محرمًا – يكرهه الله ﷻ.
﴿ٱلۡحِكۡمَةِ﴾	القرآن – السداد في القول والعمل.
﴿مَلُومٗا﴾	يلومك العباد.
﴿مَّدۡحُورًا﴾	مُبعدًا مطرودًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وأمر ربك ﷻ عباده ألا يعبدوا معه إلهًا آخر، إنما يعبدوه وحده لا شريك له، وأمرهم كذلك أن يُحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، وهذا الإحسان يتضمن برهما وإكرامهما وحسن معاملتهما وطاعتهما في المعروف.

ثم إن الله ﷻ أمر بالإحسان إليهما أكثر وأكثر في حال بلوغهما الكبر أو بلوغ أحدهما الكبر، أي: عند تقدمهما في السن ومشارفتهما للموت، فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لا تؤذيهما بأية كلمة حتى ولا بأقل الكلمات التي هي أف، وقيل: لا تتأفف أمامهما لرائحة كريهة صدرت منهما، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما بأي لفظٍ أو فعل، بل ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ طيبًا حسنًا ليِّنًا سهلًا بتوقيرٍ وتعظيمٍ واحترامٍ وأدبٍ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ تواضع لهما وانكسر، وتذلل لهما واستكن أمامهما وألن جانبك لهما، ولا تخالفهما، ما لم تكن معصية لله، افعل ذلك بهما رحمة منك بهما واحتسابًا للأجر من الله ﷻ.

وادعو لهما بقولك: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فقد ربياني صغيرًا وأحسنا إليَّ في صغري.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني بذلك تعالى ذكره حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أن يعبد غيره.

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي أمر ربك في ألا تعبدوا إلا إياه، فهذا قضاء الله العاجل، وكان يُقال في بعض الحكمة: من أرضى والديه: أرض خالقه، ومن أسخط والديه، فقد أسخط ربه.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قال: أمر ألا تعبدوا إلا إياه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يقول: وأمركم بالوالدين إحسانا أن تحسنوا إليهما وتبرّوهما. ومعنى الكلام: وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين، فلما حذفت «أن» تعلق القضاء بالإحسان، كما يقال في الكلام: آمرك به خيرًا، وأوصيك به خيرًا، بمعنى: آمرك أن تفعل به خيرًا، ثم تحذف «أن» فيتعلق الأمر والوصية بالخبر، كما قال الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ دَهْماءَ إِذْ تَشْكُونا ... ومِنْ أبي دَهْماءَ إِذْ يُوصِينا

خَيْرًا بها كأننا جافُونا

وعمل يوصينا في الخير.

قال الطبري:

وقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ يقول: فلا تؤفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذّى به الناس، ولكن اصبر على ذلك منهما، واحتسب في الأجر صبرك عليه منهما، كما صبرا عليك في صغرك.

وأورد بسندين فيهما مقالٌ عن مجاهد ما حاصله أنه قال في قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ قال: إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخرآن، فلا تقل

لهما أف تقذّرهما.

ومن وجهٍ آخر: عن مجاهد إما يَبْلُغانَّ عِندك الكبر فلا تَقُل لهما أف حين ترى الأذى، وتميط عنهما الخلاء والبول، كما كانا يميطانه عنك صغيرا، ولا تؤذهما.

قال الطبري:

وقد اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى «أفّ»، فقال بعضهم: معناه:

كلّ ما غلظ من الكلام وقبُح. وقال آخرون: الأفّ: وسخ الأظفار والتف كلّ ما رفعت بيدك من الأرض من شيء حقير.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقول جلَّ ثناؤه ولا تزجرهما.

وأما قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ فإنه يقول جل ثناؤه، وقل لهما قولًا جميلًا حسنًا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وكن لهما ذليلا رحمة منك بهما تطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن لله معصية، ولا تخالفهما فيما أحبَّا.

وقال أيضًا:

وأما قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فإنه يقول: ادع الله لوالديك بالرحمة، وقل ربّ ارحمهما، وتعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك، كما تعطفا عليّ في صغري، فرحماني وربياني صغيرا، حتى استقللت بنفسي، واستغنيت عنهما.

(٤٤٥) أحمر
أسود

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر.

ثم قال:

ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحسانًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تسمعهما قولًا سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيحٌ، كما قال عطاء بن أبي رباحٍ في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لينًا طيبًا حسنًا بتأدبٍ وتوقيرٍ وتعظيمٍ.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فأما معنى «أف» ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

والثاني: وسخ الأذن، قاله الأصمعي.

والثالث: قلامة الظفر، قاله ثعلب.

والرابع: أن «الأف» الاحتقار والاستصغار، من «الأَفف»، والأَفف عند

العرب: القِلَّة، ذكره ابن الأنباري.

والخامس: أن «الأُفَّ» ما رفعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف»: النَّتَن، والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إِماطة الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقَل.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى الآية: لا تقل لهما كلامًا تتبرَّم فيه بهما إذا كَبِرَا وأسَنَّا، فينبغي أن تتولَّى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تكلمهما ضَجِرًا صائحًا في وجوههما. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يدك عليهما، يقال: نَهَرْتُهُ أَنْهَرُهُ نَهْرًا، وانتَهَرْتُه انتهارًا، بمعنى واحد. وقال ابن فارس: نهرتُ الرجُل وانتهرتُه، مثل: زجرتُه. قال المفسرون: وإِنما نهى عن أذاهما في الكِبَر، وإن كان منهيًّا عنه على كلِّ حالة، لأن حالة الكِبَر يظهر فيها منهما ما يُضجِر ويؤذي، وتكثر خدمتهما.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليِّنًا لطيفًا أحسن ما تجد. وقال سعيد بن المسيّب: قولَ العبد المذنِب للسَّيد الفظّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: أَلِنْ لهما جانبك متذللًا لهما من رحمتك إياهما.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاءً دينيًّا وأمرًا شرعيًّا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أحدا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي له كل صفة كمال، وله

من تلك الصفة أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة الدافع لجميع النقم الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور فهو المتفرد بذلك كله وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي لأنهما سبب وجود العبد ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلاما خشنا، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف معهما بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما ذلا لهما ورحمة واحتسابا للأجر لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتا، جزاء على تربيتهما إياك صغيرا.

وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من رباه حق التربية.

الإحسان إلى الوالدين عند الكبر

س: اذكر شيئًا من الوارد في بر الوالدين خاصة عند كبرهما؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وأخرج مسلم[1] في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»، قِيلَ: مَنْ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ».

وها هم إخوة يوسف يتوسلون إليه بشيخوخة أبيهم وتقدمه في السن فيقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: ٧٨].

وفي حديث الثلاثة أصحاب الغار الذين انطبقت على فم غارهم صخرة فتوسلوا بصالح الأعمال حتى كشف الله عنهم وفرَّج الله عنهم ففيه أن أحدهم توسل إلى الله ﷻ بإحسانه إلى والديه الكبيرين، فقال: «اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ[2]، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي[3] ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ[4]، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ

(١) مسلم (٢٥٥١).

(٢) أرحت عليهم أي: رددت الماشية من المرعى إليهم، وإلى موضع مبيتهم.

(٣) نأى بي أي: ابتعد بي.

(٤) الحلاب هو: الإناء الذي يُحلب فيه.

أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ(١) عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ».

فائدة مأخوذة من قوله: «وَأَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا»:

ألا وهو أن هذا الرجل الصالح كره أن يسبب لوالديه أدنى إزعاج فمع أن إيقاظه لهما كي يشربا إلا أنه نظر في أنفع الأمرين لهما هل النوم آنذاك أنفع لهما أم الاستيقاظ والشرب؟ فرأى أن النوم أنفع لهما فتركهما نائمين.

فمن ثَمَّ لا ينبغي لأحدٍ أن يقلق والديه ولا أن يُدخل عليهما من الأحزان ما لا يطيقان ولا يحتملان.

فماذا عساه أن يُفيد إخبار الوالدين بأمر محزن مُقلق وهما كبيران لا يستطيعان دفعًا لسوءٍ أو جلبًا لخير إلا بدعوة صالحة!!



س: اذكر بعض الوارد في الدعاء للوالدين والحث على ذلك؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

وقوله تعالى في شأن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعائه: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا...﴾ [نوح: ٢٨].

وقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: ٤١].

إلا أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك قبل أن يعلم أن أباه عدو لله وأنه سيموت على الكفر.

(١) يتضاغون أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ ﴾ مع بيان وجه التذكير بها بعد الأمر بالإحسان إلى الوالدين؟

ج: المعنى – والله أعلم –: ربكم يا بني آدم أعلم بما أضمرتموه من نفوسكم من خيرٍ أو شرٍّ فإن تكونوا صالحين وصدرت منكم أخطاء فاستغفروا الله فإنه كان للمستغفرين وللرجَّاعين إليه غفورًا.

أما وجه التذكير بها عقب الأمر بالإحسان إلى الوالدين فمؤداه أن العبد الصالح لا ينفك عن بشريته، ولا يكاد ينفك أيضًا عن كثير مما يقع فيه بنو آدم، فقد يخطئ والده على الكبر أو تخطئ والدته على الكبر لضعف عقولهما عند ذلك، أو قد يصدر من والديه أو أحدهما تصرف لا يرضيه فيخطئ ويسيء إليهما بقولٍ أو بفعلٍ، فإذا كان ذلك، وربّه يعلم أنه صالح ولكن زلت قدمه، ففتح له باب التوبة كي يرجع، وباب الإنابة كي ينيب، فقال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ ﴾ أي: للرجاعين عن ذنوبهم وللمستغفرين من خطاياهم وللرجاعين إلى الحق والصواب، كان لهم ربنا ﷻ ﴿غَفُورٗا ٢٥﴾ غفورًا لذنوبهم ولأخطائهم وزلاتهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبرّ بهم، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائر صدوركم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم على حَسَن ذلك وسيِّئه، فاحذروا أن تُضمروا لهم سوءا، وتعقِدوا لهم عقوقا. وقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ يقول:

إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم، وأطعتم الله فيما أمركم به من البرّ بهم، والقيام بحقوقهم عليكم، بعد هفوة كانت منكم، أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه، فإنه كان للأوّابين بعد الزَّلة، والتائبين بعد الهَفْوة غفورًا لهم.

قال الطبري:

واختلف أهل التأويل، في تأويل قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾ فقال بعضهم: هم المسبِّحون.

وقال آخرون: هم المطيعون المحسنون.

وأورد بسندٍ يصح عن قتادة قال: هم المطيعون، وأهل الصلاة.

وقال آخرون: بل هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء.

وقال آخرون: هم الذين يصلُّون الضُّحَى.

وقال آخرون: بل هو الراجع من ذنبه، التائب منه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن سعيد بن المسيب قال: هو الذي يُذنب ثم يتوب ثم يُذنب ثم يتوب.

وبإسنادٍ صحيح عن سعيد بن جبير قال: الراجعين إلى الخير.

وبإسنادٍ صحيح عن مجاهد قال: الأواب: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء، فيستغفر الله منها.

ونحوه بإسنادٍ صحيح عن عبيد بن عمير.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال : الأوّاب: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه؛ لأن الأوّاب إنما هو فعَّال، من قول القائل: آب فلان من كذا إما من سفره إلى

منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عَبيد بن الأبرص:

وكُــــلُّ ذِي غَيْبَــــةٍ يَئُـــــوبُ   وغائِـــبُ المَـــوْتِ لا يَئُـــوبُ

فهو يئوب أوبا، وهو رجل آئب من سفره، وأوّاب من ذنوبه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياءً. وقال ابن جبيرٍ: يريد البادرة التي تبدر، كالفلتة والزلة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأسًا، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي: صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى.

وقال:

وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورٗا ٢٥﴾ فمن اطلع الله على قلبه وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية

(٤٥٣) أحمر
أسود

فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

وقال ابن عطية في تفسيره:

وفسر الجمهور (الأوابين) بالرجاعين إلى الخير.



المراد بـ(ذي القربى)

س: في قوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قولان: بيّنهما مع توضيح الراجع منهما.

ج: أما القول الأول، والذي عليه الجمهور أنهم أقرباء الشخص من ناحية الأب والأم.

أما القول الثاني فالمراد بهم قرابة رسول الله ﷺ إذ النبي ﷺ أوصى بهم قائلًا: «**أُذَكِّرُكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي**» والأظهر - والله أعلم- أن المراد بذوي القربى في الآية الكريمة أقرباء الشخص من ناحية أبيه وأمه فبعد أن أوصى الله ﷻ بالوالدين أوصى جلَّ ذكره بالأرحام. والله أعلم.



الاقتصاد في العطاء والإنفاق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وأعط أيها المسلم، يا عبد الله أرحامك حقوقهم من البر والإكرام والصلة وغير ذلك من الحقوق التي تعارف الناس عليها، وكذلك فأعط المسكين أيضًا حقه، والمسكين هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يتفطن له فيتصدق عليه.

وكذا فالمسكين هو الذي دخله لا يكفيه، أعطه حقه، فله حق في الزكاة، وإن كان بإمكانك إكرامه فأكرمه، وكذا أعط ابن السبيل، وهو المسافر الذي انقطعت به النفقة فلا يستطيع الوصول إلى أهله أعطه حقه، كي يصل إلى بلده، ثم هو من مصارف الزكاة، ولا تبذر في العطاء تبذيرًا، بل كن متوسطًا فيه لست بالبخيل الممسك، ولست بالمنفق المبذر، لا تبذر تبذيرًا شديدًا، والمبذر هو من ينفق المال في غير حقه، وإن كان قليلًا، أما إذا كان في محله، ولو كان كثيرًا، فليس بتبذير، فالعبرة بوضع الشيء في محله وعلى قدر الحاجة إليه.

لا تبذر فإن المبذرين كانوا إخوان الشياطين في التبذير والسفه، فالشيطان أمرهم بذلك السَّفه والتبذير فأطاعوه واتبعوا سبيله وأنفقوا المال في غير موضعه، وكان الشيطان لربه كفورًا جحودًا لنعم الله غير شاكر لها، فاحذروا خطواته، وكونوا أنتم شاكرين لنعم الله مُثنين بها على الله ﷻ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: عن هؤلاء المذكورين فلم تُعطهم لعلةٍ من العلل، التي منها قلة ما في اليد وانتظارًا لرزق الله ﷻ فبدل العطاء

المالي بقولٍ طيب سهل ميسور حسن، قل لهم إذا وسَّع الله عليَّ سأعطيكم، إذا وسع الله علي سآتيكم إلى بيوتكم إن شاء الله، اعذروني إن شاء الله يرزقنا الله وإياكم عن قريب.

وبمثل هذه المقولات الطيبة.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال بعضهم: عَنى به: قرابة الميت من قِبَل أبيه وأمه. أمر الله جلّ ثناؤه عباده بصلتها.

وقال آخرون: بل عنى به قرابة رسول الله ﷺ.

وأولى التأويلين عندي بالصواب، تأويل من تأوّل ذلك أنها بمعنى وصية الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم من قِبَل آبائهم وأمهاتهم، وذلك أن الله ﷻ عَقَّب ذلك عقيب حَضّه عباده على برّ الآباء والأمَّهات، فالواجب أن يكون ذلك حَضًّا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يجر لها ذكر، وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وأعط يا محمد ذا قرابتك حقه من صلتك إياه، وبرّك به، والعطف عليه، وخرج ذلك مَخْرج الخطاب لنبيّ الله ﷺ، والمراد بحكمه جميع من لزمته فرائض الله، يدلّ على ذلك ابتداؤه الوصية بقوله جلّ ثناؤه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ فوجّه الخطاب بقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى نبيّ الله ﷺ، ثم قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فرجع بالخطاب به إلى الجميع، ثم صرف الخطاب بقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ﴾ إلى إفراده به. والمعنيّ بكل ذلك جميع من لزمته فرائض الله ﷻ، أفرد بالخطاب رسول الله ﷺ وحده، أو عمّ به هو وجميع أمته.

وقوله: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ وهو الذلّة من أهل الحاجة. وقد دللنا فيما مضى على معنى المسكين بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: المسافر المنقطع به، يقول تعالى: وصِل قرابتك، فأعطه حقه من صلتك إياه، والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المنقطع به، فأعنه، وقوّه على قطع سفره. وقد قيل: إنما عنى بالأمر بإتيان ابن السبيل حقه أن يضاف ثلاثة أيام.

والقول الأوّل عندي أولى بالصواب، لأن الله تعالى لم يُخصص من حقوقه شيئًا دون شيء في كتابه، ولا على لسان رسوله، فذلك عامّ في كلّ حق له أن يُعطاه من ضيافة أو حمولة أو مَعُونة على سفره.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ يقول: ولا تفرّق يا محمد ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقا. وأصل التبذير: التفريق في السّرَف؛ ومنه قول الشاعر:

أُناسٌ أجارُونا فكانَ جِوَارُهُمْ ... أعاصِيرَ مِنْ فِسْقِ العِرَاقِ المُبَذَّرِ

وأورد من وجوهٍ متعددة بأسانيد صحيحة عن أبي العبيدين، قال: قال عبد الله[1] في قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ قال: التبذير في غير الحقّ، وهو الإسراف.

وفي رواية سئل عبد الله عن المبذر فقال: الإنفاق في غير حقٍّ.

وبإسنادٍ حسن عن قتادة قال: التبذير: النفقة في معصية الله، وفي غير حق، وفي الفساد.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: بدأ بالوالدين قبل هذا، فلما فرغ من الوالدين وحقهما، ذكر هؤلاء وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾: لا تعطِ في معاصي الله.

---

(١) هو ابن مسعود رضي الله عنه.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فإنه يعني: إنّ المفرّقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين، وكذلك تقول العرب لكلّ ملازم سنة قوم وتابع أثرهم: هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ يقول: وكان الشيطان لنعمة ربه التي أنعمها عليه جحودًا لا يشكره عليه، ولكنه يكفرها بترك طاعة الله، وركوبه معصيته، فكذلك إخوانه من بني آدم المبذّرون أموالهم في معاصي الله، لا يشكرون الله على نعمه عليهم، ولكنهم يخالفون أمره ويعصُونه، ويستنون فيما أنعم الله عليهم به من الأموال التي خوّلهموها ﷻ سنته من ترك الشكر عليها، وتلقِّيها بالكُفران.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وإن تعرض يا محمد عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم حقوقهم إذا وجدت إليها السبيل بوجهك عند مسألتهم إياك، ما لا تجد إليه سبيلا حياء منهم ورحمة لهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ يقول: انتظار رزق تنتظره من عند ربك، وترجو تيسير الله إياه لك، فلا تؤيسهم، ولكن قل لهم قولًا ميسورًا: يقول: ولكن عدهم وعدًا جميلًا بأن تقول: سيرزق الله فأعطيكم، وما أشبه ذلك من القول اللين غير الغليظ، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾.

[الضحى: ١٠]

وأورد بإسنادٍ صحيح عن إبراهيم ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: انتظار الرزق ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ قال: لينا تَعِدُهم.

وأورد عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ انتظار الرزق.

(٤٥٨) أحمر
أسود

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدَيْنِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ»(١).

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٢).

وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال: منفرا عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي: جحودًا؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: عدهم وعدا بسهولة، ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد.

---

(١) مسلم (٢٥٤٨).

(٢) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: كما راعيت حق الوالدين فصل الرحم، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل. وقال علي بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: هم قرابة النبي ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي: من سهم ذوي القربى من الغزو والغنيمة، ويكون خطابًا للولاة أو من قام مقامهم. والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ أي: لا تسرف في الإنفاق في غير حق. قال الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وقوله: ﴿إِخْوَٰنَ﴾ يعني: أنهم في حكمهم، إذ المبذر ساع في إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدًا في النار، ثلاثة أقوال. والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: احذروا متابعته والتشبه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال القرطبي:

من أنفق ماله في الشهوات زائدة على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر. ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر.

ومن أنفق درهما في حرام فهو مبذر، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والإكرام الواجب والمسنون وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ فيعطي الجميع من المال على وجه لا يضر المعطي ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق فإن ذلك تبذير قد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: حاسر اليد فارغها فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا ردًّا جميلًا فقال:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم كما قال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولا تجعل يدك مربوطة إلى رقبتك، والمراد ولا تمنع يدك من العطاء بُخلًا وإمساكًا كالمقيد الذي قُيِّدت يده برقبته، وكذا لا تمد يدك بالعطاء مدًّا واسعًا، فتقعد إذا أنفقت ما عندك ملومًا يلومك العباد على أنك لا شيء معك وتلوم نفسك على فقرك ويعوزك، ويلومك أقوامٌ لم تعطهم، ولم يعد بإمكانك إعطاؤهم وكذا محسورًا، لا تجد ما تعطي ولا ما تنفق.

ثم أخبر الله ﷻ أن الله ﷻ لو شاء أن يوسع على العباد لوسع عليهم فإنه ﷻ يوسع على من يشاء في العطاء، ويضّيق على من يشاء، فالزم أنت الاقتصاد والتوسط فيما أعطاك الله، فربنا بالعبادة خبيرٌ بأموالهم بصيرٌ بها ولو شاء لأعطى الخلق ما يريد.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وإنما معنى الكلام: ولا تمسك يا محمد يدك بخلًا عن النفقة في حقوق الله، فلا تنفق فيها شيئًا إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الذي لا يستطيع بسطها ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ يقول: ولا تبسطها بالعطية كلّ البسط، فتَبقى لا شيء عندك، ولا تجد إذا سئلت شيئًا تعطيه سائلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ يقول: فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك، وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه، محسورًا: يقول: مَعِيبًا، قد انقُطِع بك، لا شيء عندك تنفقه.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: لا تجعلها مغلولة عن النفقة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾: تبذر بسرف.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تمسكها عن طاعة الله، ولا عن حقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ يقول: لا تنفقها في معصية الله، ولا فيما يصلح لك، ولا ينبغي لك، وهو الإسراف، قوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ قال: ملوما في عباد الله، محسورًا على ما سلف من دهره وفرّط.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: مغلولة لا تبسطها بخير ولا بعطية ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ في الحق والباطل، فينفَدَ ما معك، وما في يديك، فيأتيك من يريد أن تعطيه فيحسر بك، فيلومك

حين أعطيت هؤلاء، ولم تعطهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده، فيوسع عليه، ويقدر على من يشاء، يقول: ويُقتِّر على من يشاء منهم، فيضيِّق عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾: يقول: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده؛ ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق ويهلكه ﴿بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾: يقول: هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم، يقول: فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه، وفيمن تبسطها له، ومن كفها عمن تكفها عنه، وتكفها فيه، فنحن أعلم بمصالح العباد منك، ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد قال: ثم أخبرنا تبارك وتعالى كيف يصنع، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ قال: يقدر: يقلّ، وكل شيء في القرآن يَقْدِر كذلك؛ ثم أخبر عباده أنه لا يرزؤه ولا يئوده أن لو بسط عليهم، ولكن نظرا لهم منه، فقال: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، قال: والعرب إذا كان الخصب وبُسِط عليهم أُشِروا، وقتل بعضهم بعضًا، وجاء الفساد، فإذا كان السنة شُغِلوا عن ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًّا للبخل ناهيًا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن أن يرى عيبًا. هكذا فسر هذه الآية -بأن المراد هنا البخل والسرف -ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[(١)]؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثَدْيَيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا. فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ -أَوْ: وَفَرَتْ -عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخفي بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ».

وكذا أورد حديث[(٢)] أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوكِي فَيُوكِيَ اللهُ عَلَيْكِ» وَفِي لَفْظٍ: «وَلَا تُحصي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ».

---

(١) البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).

(٢) البخاري (١٤٣٣)، ومسلم (١٠٢٩).

قال ابن كثير:

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[١] مِنْ طَرِيقِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[٢] مِنْ طَرِيقِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي مُزَرِّدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**».

وَرَوَى مُسْلِمٌ[٣]، عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنِ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ**».

ثم قال ابن كثير:

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر.

وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجا، والفقر عقوبة عياذا بالله من هذا وهذا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ قال ابن عرفة: يقول لا تسرف ولا

(١) مسلم (٩٩٣).
(٢) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).
(٣) مسلم (٢٥٨٨).

تتلف مالك فتبقى محسورًا منقطعًا عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٤] أي كليل منقطع. وقال قتادة: أي نادما على ما سلف منك، فجعله من الحسرة، وفيه بعد، لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور. والملوم: الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه.



التحذير من قتل الأبناء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولا تقتلوا أولادكم خوف الفقر، فإن الرزاق الذي يرزقهم ويرزقكم هو الله ﷻ، لا تقتلوهم كما كان أهل الجاهلية يفعلون فقد كان يقتلون الأبناء والبنات خشية الفقر وعدم القدرة على الإنفاق عليهم، ومن ثمَّ جاء النهي عن قتلهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: ذنبًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا، وقد قال النبي ﷺ، وقد سئل أي الذنب أعظم، قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قال: ثم أي، قال: «**أن تقتل ولدكَ خشية أن يطعم معك**»، وسيأتي إن شاء الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ فموضع تقتلوا نصب عطفًا على ألا تعبدوا.

ويعني بقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ خوف إقتار وفقر، وإنما قال جلّ ثناؤه ذلك للعرب، لأنهم كانوا يقتلون الإناث من أولادهم خوف العيلة على أنفسهم بالإنفاق عليهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾: أي خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فوعظهم الله في ذلك، وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ فإن القراء اختلفت في قراءته؛ فقرأته عامّة قراء أهل المدينة والعراق ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ بكسر الخاء من الخطإ وسكون الطاء، وإذا قرئ ذلك كذلك، كان له وجهان من التأويل: أحدهما أن يكون اسما من قول القائل: خَطِئت فأنا أَخْطَأ، بمعنى: أذنبت وأثمت. ويُحكى عن العرب: خَطِئتُ: إذا أذنبتَ عمدا، وأخطأت: إذا وقع منك الذنب خَطَأً على غير عمد منك له. والثاني: أن يكون بمعنى خَطَأ بفتح الخاء والطاء، ثم كسرت الخاء وسكنت الطاء، كما قيل: قِتْب وقتب وحِذَر، ونجِس ونَجَس. والخطء بالكسر اسم، والخطأ بفتح الخاء والطاء مصدر من قولهم: خَطِئَ الرجل؛ وقد يكون اسما من قولهم: أخطأ. فأما المصدر منه فالإخطاء.... وأورد أقوالًا.

ثم قال:

وأولى القراءات في ذلك عندنا بالصواب، القراءة التي عليها قراء أهل العراق، وعامة أهل الحجاز، لإجماع الحجة من القراء عليها، وشذوذ ما عداها. وإن معنى ذلك كان إثما وخطيئة، لا خَطَأً من الفعل، لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عمدًا لا خطأ، وعلى عمدهم ذلك عاتبهم ربهم، وتقدم إليهم بالنهي عنه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى تعالى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوف أن

(٤٦٩) أحمر
أسود

تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: ١٥١] أي: من فقر ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ أي: ذنبًا عظيمًا.

وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيرا» وهو بمعناه.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**».

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا من رحمته بعباده حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفا من الفقر والإملاق وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرًا أي: من أعظم كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنبًا ولا معصية.



(١) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) (١٤١).

مبحث في التحذير من الاقتراب من الزنا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولا تقتربوا من الزنا، وهذا النهي عن الاقتراب منه يقتضي عدم فعل أي شيء يقرب منه، وسيأتي بيانه إن شاء الله، لا تقربوا الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أمرًا مستفحشًا ترفضه الشرائع والعقول وتأباه الفطر الصحيحة لما تضمنه من التعدي على حرمات الله ﷻ، ولما تضمنه من انتهاك لحرمات البشر واختلاط للأنساب وغير ذلك.

أما قوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: وبئس هذا الطريق طريق الزنا الذي هو اتباع لخطوات الشياطين، بئس هذا الطريق الموصل إلى سخط الله ﷻ وعذابه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقضى أيضًا أن ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ أيها الناس ﴿ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ يقول: إن الزّنا كان فاحشة ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ يقول: وساء طريق الزنا طريقًا، لأن طريق أهل معصية الله، والمخالفين أمره، فأسوئ به طريقًا يورد صاحبه نار جهنم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي: ذنبًا عظيمًا ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: وبئس طريقا ومسلكا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنى.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والنهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: «**من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**» خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد.

وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.



مبحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾

س: لخطورة هذه الفاحشة، فاحشة الزنا فقد سُدَّت كل السبل الموصلة إليها، وضح ذلك.

ج: نعم قد سُدَّت كل السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة، وأُغلقت كل الأبواب المؤدية إليها، فمن هذه السبر الموصلة إليها والتي مُنعنا منها: النظر إلى ما حرمه الله علينا، وكذلك الاستماع للغناء الفاحش والمعازف والخلوة المحرمة والخضوع بالقول، والتبرج والسفور والاختلاط والسفر بلا محرم، والتزين لغير المحارم، والضرب بالأرجل لإظهار ما خفى من الزينة، ومصافحة من ليست بمحرمٍ من النساء، والتطيب عند الخروج، إلى غير ذلك مما يُودي إلى هذه الفاحشة المنكرة.

وجاءت أوامر أخرى للصد عن هذه الفاحشة الكبرى، فجاءت الأوامر بتقوى الله ﷻ، ومراقبته في السر والعلن، وجاء في غير موطن من كتاب الله التذكير بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وجاء التذكير كذلك بأن الله يسمع ويرى، وبأنه سبحانه معنا أينما كنا، وكذلك فقد جاء التذكير مرارًا وتكرارًا بأن علينا حافظين كرامًا كاتبين، ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.
[الطارق: ٤]

وقد قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ

هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٦].

إلى غير ذلك من النصوص الحاثة على مراقبة الله ﷻ والمذكِّرة بتقواه، والمحذرة من اليوم الآخر وما فيه.

وجاءت أوامر أُخر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ للصرف عن هذه الفاحشة.

فقال الله ﷻ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾.

[الأحزاب: ٣٣]

وقال سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾.

[النور: ٣٣]

وأمر الله تعالى بالاستئذان داخل البيوت وخارجها.

وقال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(١).

وأمر النبي ﷺ بالتفريق بين الأبناء في المضاجع(٢).

وجاءت نصوص من الكتاب والسنة تحذر من مجالسة أصدقاء السوء الذين يجرون الناس إلى الفواحش ويزينونها لهم، وكذلك نصوص تحذر من الجلوس في أماكن اللهو والباطل والسفر إلى بلاد الكفر، حيث لا داعي

(١) حديث: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ» صحيح أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (حديث ١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٢) حسن بمجموع طرقه، أخرجه أبو داود (حديث ٤٩٥) ولفظه: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ سِنِين وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

للسفر، ولا حاجة إليه إلى غير ذلك من السبل الواقية من هذه الجريمة النكراء.

وها نحن نبين ذلك بشيء من التفصيل، والله المستعان، والمحفوظ من حفظه الله تعالى، والمعصوم من عصمه الله.

غض البصر

لما كان النظر من أعظم السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة، وكانت النظرة سهمًا مسمومًا يفتك بالقلوب(١)، ويجر إلى المعاصي والآثام، جاءت الأوامر بغض البصر ومنعه من الاسترسال وها هو بعض الوارد في ذلك:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وبيَّن الله سبحانه وتعالى أن الإنسان مسئول عن نظره وبصره، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومنع النبي ﷺ من الجلوس في الطرقات، وذلك الجلوس المفضي إلى النظر المحرم، فقال النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ**»، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: «**فَإِذَا أَتَيْتُمْ إِلَى المَجَالِسَ**(٢)، **فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**»، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ**

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٣-٣١٤) بإسناد فيه ضعف، عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ النَّظرة سَهم من سِهام إبليس مَسموم، مَن تَركَها مَخافتِي أبدلته إيمانًا يَجِدُ حَلاوته في قلبه**».
وله طرق أخرى ضعيفة أيضًا عند الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢١٤) برقم (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، وفيها وفي التي قبلها - أعني في حديث ابن مسعود وحديث حذيفة - عبد الرحمن بن إسحاق، وهو ضعيف، وقد اختلف عليه أيضًا.

(٢) في رواية: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ**».

السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ»[(١)].

وفي صحيح مسلم من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي»[(٢)].

وقد شرع الاستئذان فمن أجل ألا ينظر أحد إلى عورة أحد، ولا إلى ما يسيء إلى أحد، ورخص النبي ﷺ في فقء عين من ينظر إلى عورات الناس في بيوتهم بغير إذن، وهذه بعض النصوص في ذلك:

أخرج البخاري ومسلم[(٣)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِعَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ».

وفي رواية لمسلم: «مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ»[(٤)].

وفي الصحيحين من حديث سَهْل بْن سَعْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُنِي، لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنَيْكَ». وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الإِذْنُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ»[(٥)].

وأخرج البخاري في الأدب المفرد بإسنادٍ حسن من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ البصر فَلَا إذن»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).
(٢) مسلم (حديث ٢١٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٩٠٢)، ومسلم (صـ١٦٩٩).
(٤) مسلم (حديث ٢١٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.
(٥) البخاري (حديث ٦٩٠)، ومسلم (حديث ٢١٥٧).
(٦) البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٩) (٢/ ٥٢٣).

ولعلمائنا الأوائل
– رحمهم الله تعالى – كلام طويل في هذا الباب

نجتزئ منه بشيء من كلام ابن القيم رحمه الله تعالى:

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى –[١]:

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»[٢]. أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر. فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟ كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر؟

وقال آخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كلّه أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه فمن المطالب، والقتيل القاتل؟

---

(١) التفسير القيم.

(٢) إسناده ضعيف، وقد تقدم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ولي من أبيات[(١)]:

يـا راميًـا بسـهام اللحـظ مجتهـدا ... أنـت القتيـل بمـا ترمـي، فـلا تصـب
وباعـث الطـرف يرتـاد الشـفاء لـه ... توقّـه، إنـه يرتـد بـالعطف
ترجـو الشـفاء بأحـداق بهـا مـرض ... فهـل سـمعت ببـرء جـاء مـن عطـب؟

والنظر الممنوع، ليس إلى النساء فحسب، بل إلى كل ما يجر إلى منكر وشر وفساد، فيدخل في ذلك النظر إلى المردان من الصبيان، إذا كان هذا يجر إلى شر وفساد، فلا يليق بشخص فاضل أن يديم النظر إلى صبي أمرد، ويصطحبه هنا وهناك، ويعبث به، فهذا حرامٌ، ويؤدي إلى الحرام كذلك.

ويدخل في ذلك النظر إلى صور النساء، سواء في الكتب أو المجلات والجرائد، وكذلك النظر إلى صور النساء في أجهزة الإعلام كالتليفزيون ونحوه، وكذلك الفيديوهات وشبكات الإنترنيت وما بها من مواقع فاسدة ومفسدة، وناشرة للرذيلة ومروجة للدعارة والبغاء.

وكذلك فلتُتقى متابعة مسلسلات الحب والعشق التي تجر إلى الشر والفساد.

---

(١) سبحان الله ما أجمل هذه الأبيات وما أروعها جزى الله قائلها خير الجزاء.

يـا راميـا بسـهام اللحـظ مجتهـدًا ... أنـت القتيـل بمـا ترمـي فـلا تصـب

سبحان الله، فيا من وجهت سهام بصرك إلى المحرم، يا من رأيت فتاة أو امرأة حسناء فركزت البصر وحددت النظر وصوبته إليه، انتبه، اتق الله، اصرف بصرك، غض طرفك، اعلم أن الله يراك، واعلم تمام العلم وأيقن تمام اليقين أنك إذا سددت النظرة إليها فإنك إنما تسدد سهمًا على قلبك، فإذا أصابت نظرتك هدفها فقد أصاب سهم في قلبك، فاتق الله ولا تهلك نفسك، لا تدمر قلبك لا تركز البصر، اصرفه، استغفر لذنبك، وإلا أُصبت، أصبت في أعز ما تملك، وفي أغلى ما تملك، أُصبت في قلبك، عافاك الله من كل مكروه وقبيح.

وكذلك الأفلام المنحطة الهابطة، تلك التي تدور على الحب والعشق والبغاء، وتنشر الشر والفساد، فالله لا يحب الفساد.

ويا أسفًا على شاب متسكع في الطرقات ينظر على الرائحات والغاديات.

يا اسفًا عليه، وهو يتسكع عند محل تصوير ينظر إلى صور النساء كاشفات الشعور والسيقان والأعناق، تلك الصور التي وضعها صاحب المحل الذي لا يكاد يؤمن بالله واليوم الآخر.

يا أسفًا على شاب آخر يمشي إلى محلات تبيع ثياب النساء فيتغزل في ملابس النساء.

فحقًّا إنها أفكار هابطة، وتصرفات ساقطة.

وليتق الله أصحاب مثل هذه المحلات الذين يبالغون في الإغراء والإغواء، من أجل متاع قليل زائل وفانٍ، وإني لأعجب من أبٍ ورب أسرةٍ يطيب خاطره أن يجلس هو وزوجته وأبناؤه وبناته أمام التليفزيون؛ حيث فيلم قد حوى منكرات، حيث فيلم فيه رجل يقبل امرأة، حيث فيلم فيه رجل يحتضن امرأة، أعجب غاية العجب؛ لانعدام غيرته، وقلة شهامته، وانحراف مروءته حيث يسمح لابنه ولابنته أمام عينيه أن ينظروا إلى هذه المناظر القبيحة، ويزداد العجب، كيف يسمح لامرأته أن تنظر إلى رجل يعبث بامرأة؟

إن من أهل العلم من قال: إن المرأة تُثار وتهيج شهوتها إذا رأت فرسًا ينزو على أنثى الخيل، فكيف بها إذا رأت شابًّا يعلو فتاةً؟ وكيف بالفتاة المشاهدة لهذه المناظر القبيحة هي الأخرى، وكيف بأخيها الذي يشاهد هذه المناظر معها؟ وكيف بهما معًا إذا اجتمعا ورأيا هذه المناظر، وتلك القبائح في غياب والديهما مع قلة الإيمان والورع، ومع التبرج والتعري والتكشُّف، ومع الفحولة والأنوثة كذلك؟!!

منع الخلوة المحرمة

فالخلوة من أكبر المساعدات على الفاحشة، والشيطان يجتهد أثناء الخلوة المحرمة غاية الاجتهاد، لإيقاع الناس في الفاحشة، ويُزين ذلك أيما تزيين.

ولذلك جاءت النصوص عن نبينا محمد الأمين عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، والمبعوث رحمة للعالمين، جاءت النصوص عنه تحذر، بل وتمنع الخلوة بغير الزوجة والمحارم من النساء.

وها هي بعض هذه النصوص الواردة في ذلك:

من هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»[٢] فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: «**الحَمْوُ المَوْتُ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٩/ ٣٣٠)، ومسلم (٥/ ١٦).

(٢) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ (٥/ ١٦): «في هذا الحديث والأحاديث التي بعده تحريم الخلوة بالأجنبية وإباحة الخلوة بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما».

(٣) أخرج مسلم (٥/ ١٧) بسنده الصحيح إلى الليث بن سعد أنه قال: الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن الْعَمِّ وَنَحْوُهُ.

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «اتَّفَقَ أَهْلُ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّ الأحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وبن أخيه وابن عَمِّهِ وَنَحْوِهِمْ وَالْأُخْتَانِ أَقَارِبُ زَوْجَةِ الرَّجُلِ وَالْأَصْهَارُ يَقَعُ عَلَى النَّوْعَيْنِ.

أَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**» (فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْخَوْفَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ وَالشَّرُّ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ وَالْفِتْنَةُ أَكْثَرُ لِتَمَكُّنِهِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَرْأَةِ وَالْخَلْوَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الأجنبى، والمراد بالحمو هنا أَقَارِبُ الزَّوْجِ غَيْرُ آبَائِهِ وَأَبْنَائِهِ، فَأَمَّا الْآبَاءُ والأبناء فمحارم لزوجته، تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت، وإنما المراد الأخ وابن الْأَخِ وَالْعَمُّ وَابْنُهُ وَنَحْوُهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ بِمَحْرَمٍ، وَعَادَةُ النَّاسِ الْمُسَاهَلَةُ فِيهِ، وَيَخْلُو بِامْرَأَةِ أَخِيهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَوْتُ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ مِنَ الأجنبي، لما ذكرناه، فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ هُوَ صَوَابُ مَعْنَى الْحَدِيثِ. والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أقوالًا أخر في الحمو، انظر: «الفتح» (٩/ ٣٣١). =

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»[(٢)] فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ**».

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد[(٣)] في «مسنده» من حديث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «..**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا**».

= وذكر في معنى قَوْلُهُ عليه السلام: «**الْحَمْوُ الْمَوْتُ**» عدة أقوال فقال: «قِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ الْخَلْوَةَ بِالْحَمْوِ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِ الدِّينِ إِنْ وَقَعَتِ الْمَعْصِيَةُ أَوْ إِلَى الْمَوْتِ إِنْ وَقَعَتِ الْمَعْصِيَةُ وَوَجَبَ الرَّجْمُ أَوْ إِلَى هَلَاكِ الْمَرْأَةِ بِفِرَاقِ زَوْجِهَا إِذَا حَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى تَطْلِيقِهَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ الْقُرْطُبِيُّ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: الْمَعْنَى أَنَّ خَلْوَةَ الرجل بِامْرَأَةِ أَخِيهِ أَو بن أَخِيهِ تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمَوْتِ وَالْعَرَبُ تَصِفُ الشَّيْءَ الْمَكْرُوه بِالْمَوْتِ، قَالَ ابن الْأَعْرَابِيِّ: هِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ مَثَلًا كَمَا تَقُولُ: الْأَسَدُ الْمَوْتُ، أَيْ لِقَاؤُهُ فِيهِ الْمَوْتُ، وَالْمَعْنَى: احْذَرُوهُ كَمَا تَحْذَرُونَ الْمَوْتَ.

وذكر الحافظ أقوالاً ثم قال: وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «الْمُفْهِمِ»: الْمَعْنَى أَنَّ دُخُولَ قَرِيبِ الزَّوْجِ عَلَى امْرَأَةِ الزَّوْجِ يُشْبِهُ الْمَوْتَ فِي الِاسْتِقْبَاحِ وَالْمَفْسَدَةِ أَيْ فَهُوَ مُحَرَّمٌ مَعْلُومُ التَّحْرِيمِ وَإِنَّمَا بَالَغَ فِي الزَّجْرِ عَنْهُ وَشَبَّهَهُ بِالْمَوْتِ لِتَسَامُحِ النَّاسِ بِهِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ لِإِلْفِهِمْ بِذَلِكَ حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَجْنَبِيٍّ مِنَ الْمَرْأَةِ فَخَرَّجَ هَذَا مَخْرَجَ قَوْلِ الْعَرَبِ: الْأَسَدُ الْمَوْتُ وَالْحَرْبُ الْمَوْتُ أَيْ لِقَاؤُهُ يُفْضِي إِلَى الْمَوْتِ وَكَذَلِكَ دُخُولُهُ عَلَى الْمَرْأَةِ قَدْ يُفْضِي إِلَى مَوْتِ الدِّينِ أَوْ إِلَى مَوْتِهَا بِطَلَاقِهَا عِنْدَ غَيْرَةِ الزَّوْجِ أَوْ إِلَى الرَّجْمِ إِنْ وَقَعَتِ الْفَاحِشَةُ..» إلخ.

(١) أخرجه البخاري مع «الفتح» (٩/ ٣٣٠)، ومسلم (١٣٤١).

(٢) قال النووي رحمه الله (٥/ ١٦): «وَالْمَحْرَمَ هُوَ كُلُّ مَنْ حَرُمَ عَلَيْهِ نِكَاحُهَا عَلَى التَّأْبِيدِ لِسَبَبٍ مُبَاحٍ لِحُرْمَتِهَا، فَقَوْلُنَا: (عَلَى التَّأْبِيدِ) احْتِرَازٌ مِنْ أُخْتِ امْرَأَتِهِ وَعَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا وَنَحْوِهِنَّ وَمِنْ بِنْتِهَا قَبْلَ الدُّخُولِ بِالْأُمِّ وَقَوْلُنَا: (لِسَبَبٍ مُبَاحٍ) احْتِرَازٌ مِنْ أُمِّ الْمَوْطُوءَةِ بِشُبْهَةٍ وَبِنْتِهَا فإنه حرام على التأبيد لكن لا لسبب مباح فإن وطء الشبهة لا يوصف بِأَنَّهُ مُبَاحٌ وَلَا مُحَرَّمٌ وَلَا بِغَيْرِهِمَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ الْخَمْسَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِعْلَ مُكَلَّفٍ وَقَوْلُنَا: (لِحُرْمَتِهَا) احْتِرَازٌ مِنَ الْمُلَاعَنَةِ فَهِيَ حَرَامٌ على التأبيد لا لحرمتها بَلْ تَغْلِيظًا عَلَيْهِمَا وَاللهُ أَعْلَمُ».

(٣) أحمد (١/ ١٨).

ومنها ما أخرجه مسلم[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا لَا يَبِيتَنَّ رَجُلٌ عِنْدَ امْرَأَةٍ ثَيِّبٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَاكِحًا أَوْ ذَا مَحْرَمٍ».

* فلا يحل لشخص بعد هذه النصوص أن يخلو بامرأة لا تحل له.

* فلا يحل لقريب الزوج كأخيه وابن عمه أن يأتي إلى البيت في غياب الزوج ويخلو بالزوجة ولا يحل لصديق الزوج أن يأتي إلى المنزل في غياب الزوج ويخلو بالزوجة ولا يحل له أن يخلو بها في حضور الزوج في البيت ويغلق على الأجنبي مع الزوجة بابٌ.

* لا يحل لمدرس أن يخلو بفتاة يعلمها، ولا أن يغلق عليهما باب، فهذا باب عظيم من أبواب البلاء.

* وكذلك لا يحل لمحفظ قرآن أن يخلو بامرأة يعلمها القرآن.

* وكذلك لا يحل لمعالج يعالج بالقرآن أن يخلو بامرأة يعالجها.

* ولا يحل لطبيب أن يخلو بمريضة ولا بممرضة، ونعوذ بالله من المهازل التي تحدث في المستشفيات والعيادات في هذا الصدد، ويا ليتهم يفرقون في نوبات العمل بين الرجال والنساء، ويفصلون بين الرجال والنساء.

* وقبيح أيما قبح أمر صيدلي يستأجر فتاة للعمل معه حيث هناك مكان يخلو بها فيه، ونحوه بقالٌ يصنع نفس الصنيع.

* وكذلك لا يحل ثم لا يحل لمدير أن يخلو بسكرتيرة، ولا أن يغلق عليهما باب، فالشيطان ثالث هؤلاء، كما قد تقدم عن رسول الله ﷺ.

إن النبي ﷺ كان واقفًا مع زوجته أم المؤمنين صفية بنت حيي يوصلها إلى بيتها فلما رآه رجلان من الأنصار أسرعا، فقال ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا

---

(١) مسلم (٥/ ١٦).

صَفِيَّةُ» ثُمَّ قَالَ النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلغ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا»[١].

* ولا يحل كذلك لخاطب أن يخلو بمخطوبته، فهو لا يزال رجلًا أجنبيًّا عنها.

* وغريبٌ أمر رجل ديوث قلَّت مروءته، وانعدمت غيرته حيث يترك خاطب ابنته بالغرفة معها، ويغلق عليهما الأبواب، فهل هذا من الغيرة بمكان، أم إنه من الدياثة بمكان كبير؟!

* كذلك لا يحل لرجل أن يخلو بالخادمة التي تخدم في بيته، فليست هي من محارمه.

* ولا يحل لسائق أن يخلو بامرأة من يعمل عنده فهو رجل أجنبي كذلك.

فهل يا ترى نجد قلوبًا تعي هذه الكلمات؟ وآذانًا تصغى لتلك النداءات؟

أهيب بقومي إلى المكرمات ... ألا هل ملبي ألا هل مجيب

* * *

(١) أخرجه البخاري حديث (٢٠٣٥)، ومسلم مع النووي (١٤/ ١٥٦).

النهي عن التبرج

أما التبرج – والعياذ بالله – فمن أعظم الدواعي إلى هذه الفاحشة ومن أعظم الدوافع إليها، وقد نهى عنه ربنا سبحانه، ونهانا عنه نبينا محمد ﷺ، قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

[الأحزاب: ٣٣]

وقال النبي ﷺ(١): «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ، مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢١٢٨).

(٢) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ فَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ: فَأَمَّا أَصْحَابُ السِّيَاطِ فَهُمْ غِلْمَانُ وَالِي الشُّرْطَةِ، أَمَّا الْكَاسِيَاتُ فَفِيهِ أَوْجُهٌ:

أَحَدُهَا: كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا.

وَالثَّانِي: كَاسِيَاتٌ مِنَ الثِّيَابِ عَارِيَاتٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالِاهْتِمَامِ لِآخِرَتِهِنَّ وَالِاعْتِنَاءِ بِالطَّاعَاتِ.

وَالثَّالِثُ: تَكْشِفُ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهَا إِظْهَارًا لِجَمَالِهَا فَهُنَّ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ.

وَالرَّابِعُ يَلْبَسْنَ ثِيَابًا رِقَاقًا تَصِفُ مَا تَحْتَهَا كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

قلت – القائل مصطفى–: والذي يظهر لي – والعلم عند الله تعالى – أن الوجه الثالث والرابع أقرب على المعنى لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحديث: «مُمِيلَاتٌ، مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ».

ثم قال النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَمَّا مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ: فَقِيلَ: زَائِغَاتٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَمَا يَلْزَمُهُنَّ مِنْ حِفْظِ الْفُرُوجِ وَغَيْرِهَا، وَمُمِيلَاتٌ يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ مِثْلَ فِعْلِهِنَّ.

وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ مُتَبَخْتِرَاتٌ فِي مِشْيَتِهِنَّ، مُمِيلَاتٌ أَكْتَافُهُنَّ.

وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَتَمَشَّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءِ، وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَغَايَا مَعْرُوفَةٌ لَهُنَّ، مُمِيلَاتٌ يُمَشِّطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةِ.

وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ إِلَى الرِّجَالِ مُمِيلَاتٌ لَهُمْ بِمَا يُبْدِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وغيرها. =

فهذه الفتاة التي تخرج حاسرةً عن شعرها كاشفة عن ساقيها، نازعة لجلباب الحياء عن نفسها قد أخذت أكمل زينتها وأتمها، وضربت الأرض برجلها ليُعلم ما خفي من زينتها، وتطيبت مع ذلك وتعطرت، ومشيت في الطريق كأنها راقصة، ألا تدعو بصنيعها هذا – صنيع السوء – إلى الفاحشة؟!! ألا توقع شبابًا في حبائلها وشراكها؟!!

ثم إنها بعد ذلك هي التي تجني عاقبة سوء صنيعها، وتذوق وبال أمرها.

* فكم من فتاة سارت في هذا الطريق المزري والصنيع المخزي، ثم وافاها المنون!

* وكم من فتاة سارت في هذه الرذائل ثم حملت من الفاحشة، واضطرت إلى قتل جنينها، فباءت بغضب على غضب!

* وكم من فتاة كانت حسناء يتهافت عليها الشباب، ثم هي عجوز شمطاء قد جلبت لأهلها العار، ولنفسها النار والشنار، ولأولادها الذل والصغار، بجريمتها النكراء التي ارتكبتها!

فيا الله، نسألك الطهر والعفاف، نسألك يا ربنا الهدى والتقى.

* * *

= وأما رؤوسهن كأسنمة البخت فمعناه: يعظمن رؤوسهن بِالْخُمُرِ وَالْعَمَائِمِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُلَفُّ عَلَى الرَّأْسِ حَتَّى تُشْبِهُ أَسْنِمَةَ الْإِبِلِ الْبُخْتِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي تَفْسِيرِهِ، قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ يَطْمَحْنَ إِلَى الرِّجَالِ، وَلَا يَغْضُضْنَ عنهم ولا ينكسن رؤوسهن، وَاخْتَارَ الْقَاضِي أَنَّ الْمَائِلَاتِ تُمَشِّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءِ، قَالَ: وَهِيَ ضَفْرُ الْغَدَائِرِ وَشَدُّهَا إِلَى فَوْقُ وَجَمْعُهَا فِي وَسَطِ الرَّأْسِ فَتَصِيرُ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ.

قَالَ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ بِأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ إِنَّمَا هُوَ لِارْتِفَاعِ الْغَدَائِرِ فَوْقَ رؤوسهن، وَجَمْعُ عَقَائِصِهَا هُنَاكَ وَتُكْثِرُهَا بِمَا يُضَفِّرْنَهُ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ جَوَانِبِ الرَّأْسِ كَمَا يميل السنام، قال ابن دُرَيْدٍ: يُقَالُ: نَاقَةٌ مَيْلَاءُ إِذَا كَانَ سَنَامُهَا يَمِيلُ إِلَى أَحَدِ شِقَّيْهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وثم رجال يتبرجون وشباب يتخنثون

فترى أحدهم قد وضع السلسلة في عنقه والأسورة في يده، وارتدى ضيق الثياب، ارتدى ما يقال (شارلستون) حيث الضيق الزائد من أعلى والاتساع الزائد من أسفل!

عجيب أمر هذا الشخص، يضيق حيث يحتاج الأمر إلى توسعة، ويوسع حيث يحتاج الأمر إلى تضييق، فما أقل عقله!! وما أشد غباءه!!

وكذلك فما أقل حياءه، إذ يجسد العورة -التي يُفترض فيها أن تستر- أيما تجسيد! وقد صدق من قال:

وما عجبٌ أن النساء ترجلت ... ولكن تأنيث الرجال عجاب!!

عجيبٌ أمر هذا الشاب الذي ارتدى (شورتًا) إلى أنصاف فخذيه، وسار مرتديًا له في الطرقات، أما تستحي من الله؟! أما تستحي من الخلق؟ أليس عندك شيء من الورع؟ فاستر على نفسك بارك الله فيك، وسترك الله بجميل ستره في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

والتحجب الكامل عن الرجال أبعد عن الوقوع في هذه الفاحشة بلا شك

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهذا الخطاب – وإن قال بعض العلماء – إنه خاص بنساء النبي ﷺ، إلا أن العلة منه تعم حكمه[(١)]، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وكذلك الاقتران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] [(٢)]، فاقترنت نساء المؤمنين مع نساء النبي ﷺ، وبنات النبي ﷺ في الأمر بالحجاب، هذا مع قول رسول الله ﷺ: «وَالمَرْأَةُ عَوْرَة»[(٣)]. فعمَّ هذا القول النساء كما هو واضح[(٤)].



(١) قال الشنقيطي – رحمه الله تعالى – في أضواء البيان (٦/ ٥٩٢):

وَإِذَا عَلِمْتَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ حُكْمَ آيَةِ الْحِجَابِ عَامٌّ، وَأَنَّ مَا ذَكَرْنَا مَعَهَا مِنَ الْآيَاتِ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى احْتِجَابِ جَمِيعِ بَدَنِ الْمَرْأَةِ عَنِ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، عَلِمْتَ أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى الْحِجَابِ، وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ آيَةَ الْحِجَابِ خَاصَّةٌ بِأَزْوَاجِهِ ﷺ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُنَّ خَيْرُ أُسْوَةٍ لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْآدَابِ الْكَرِيمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلطَّهَارَةِ التَّامَّةِ وَعَدَمِ التَّدَنُّسِ بِأَنْجَاسِ الرِّيبَةِ، فَمَنْ يُحَاوِلُ مَنْعَ نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ كَالدُّعَاةِ لِلسُّفُورِ وَالتَّبَرُّجِ وَالِاخْتِلَاطِ الْيَوْمَ مِنَ الِاقْتِدَاءِ بِهِنَّ فِي هَذَا الْأَدَبِ السَّمَاوِيِّ الْكَرِيمِ الْمُتَضَمِّنِ سَلَامَةَ الْعَرْضِ وَالطَّهَارَةِ مِنْ دَنَسِ الرِّيبَةِ غَاشٌّ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَرِيضُ الْقَلْبِ كَمَا تَرَى!

(٢) وقد صح عن عبيدة السلماني في تفسيرها أنه غطى رأسه ووجه بثوبه، وأبرز ثوبه عن إحدى عينيه.

(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٣) بإسناد صحيح.

(٤) هذا وثمَّ أدلة أخر، وأبحاث أوسع في هذه المسألة راجعها إن شئت في كتابي: «جامع أحكام النساء».

القرار في البيوت

فلما كان احتكاك النساء بالرجال واختلاط النساء بالرجال من أكبر أسباب هذه الفاحشة وأعظمها جاء الحث على قرار النساء في البيوت.

قال الله تعالى لأزواج نبيه ﷺ اللواتي هن خير أسوة لنسائنا وبناتنا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال النبي ﷺ: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبَ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا**»[(١)].

وانظر إلى جميل الاعتذار الذي اعتذرت به هاتان المرأتان لما سألهما موسى عليه السلام: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣﴾.

[القصص: ٢٣]

فذكرتا عذرهما في خروجهما، وأوضحتا السبب الذي من أجله كان الخروج ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣﴾ شيخ كبير لا يطيق سقي الأنعام، ولا يطيق العمل ولا الخروج، ولولا ذلك ما خرجتا.

ولكنهما مع هذا الخروج ﴿تَذُودَانِ﴾ تصرفان الأنعام والمواشي والأغنام عن الاحتكاك بالناس!!

فحقًّا إنه أدب جم، وخلق رفيع قويم.

إن النبي ﷺ ذكر في عدد من النصوص أن صلاة المرأة في بيتها خيرٌ من صلاتها في المسجد، فقال ﷺ: «**لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ، وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٣/ ٩٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠١١٥)، والترمذي (مختصرًا ١١٧٣) وغيرهم، وسنده صحيح.

(٢) حديث: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ» صحيح لغيره، وأخرجه أبو داود (حديث ٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٦-٧٧)، وابن خزيمة (٣/ ٩٢-٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤٨٨) أحمر
أسود

وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا**»[(١)].

وأخرج الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – من حديث أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بُيُوتِهِنّ**»[(٢)].

* فينبغي أن تقلل المرأة الخروج من بيتها قدر الاستطاعة، وإن خرجت فتخرج لمواطن الخير تشهد الخير، وتقوى به إيمانها.

* أما إن تخرج لمواطن الفسق والفساد والعشق والمجون، فهذا مما لا يجوز لها بلا خلاف علمته.

* فكم من بليةٍ قد حدثت بسبب خروج المرأة من بيتها واحتكاكها بالرجال في الطرقات، وفي المواصلات، وفي العمل، وفي الدراسة، وفي الحفلات، والنوادي.

* تصحب زوجتك وابنتك فيفترسها ذئب من الذئاب، ويربط معها الروابط، ويعقد معها العقود، وأنت غافل لاه!

* كم من زوجة نشزت على زوجها بسبب زميلها الخادع المخادع في العمل الذي طعن لها في زوجها بمكر ودهاء، وتلطف معها في الحديث، كالحمل الوديع، وهو يحمل بين أضلعه قلبًا كقلوب الذئاب!!

* كم من رجل هو الآخر قد وقع في حبائل امرأة ومصائدها، ونكدت عليه حياته، وأظلمت عليه معايشه، بزينتها وفتنتها، وزهدته في زوجته أيما تزهيد، فأهمل بيته وأولاده، وقاطع أصدقاءه وأقاربه وخلّانه بسببها، فجعلته عرضة

---

(١) أخرجه أبو داود (حديث ٥٧٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) أحمد في المسند (٦/ ٢٩٧).

لحديث الصغير والكبير، وأذهبت وقاره، وأفقدته كرامته.

* كم من رذيلة حدثت بين مشرف على رسالة وفتاة تُعد هذه الرسالة، فمن بينهم مشرفٌ وقور أشرف على رسالة فتاة غاوية، فأغوته وأوقعته في الغاوين.

* وكم من فتاة وقورة هي الأخرى ابتليت بمشرف على رسالتها، رجل سوء فنال منها مآربه وقضى معها وطره، من أجل شهادة ودرجة يمن عليها بها.

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا اضطرت المرأة للخروج فلتلتزم بآدابه:

تخرج وقد تجلببت بجلباب الحياء، واكتست بثوب العفة والوقار.

كهذه الكريمة التي ذكرها الله في كتابه، إذ قال: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِى عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

ثم إن الحياء شعبة من الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ[١].

* * *

(١) أخرجه البخاري (حديث ٩)، ومسلم (حديث ٣٥).

هذه بعض الآداب التي ينبغي أن تتحلى بها المرأة عند خروجها من بيتها

* ترك التطيب إذا أرادت الخروج، وذلك لما أخرجه مسلم(١) رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث زَيْنَب الثَّقَفِيَّة، أَنَّهَا كَانَتْ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاءَ فَلَا تَطَيَّبْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ».

وفي رواية لمسلم(٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ».

وفي رواية للإمام أحمد(٣) بإسناد حسن من حديث الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، فَمَرَّتْ بِقَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ».

المشي في جانب الطريق: وذلك لما أخرجه ابن حبان(٤) وغيره بإسناد يُحسَّن بمجموع طرقه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ لِلنِّسَاءِ وَسَطُ الطَّرِيقِ».

الاحتياط في التستر إذا دخلت بيت قوم فيه رجال: وذلك لما أخرجه ابن ماجه وغيره بإسناد صحيح(٥) من حديث عائشة ڤ أنها قالت: لنسوة مِنْ أَهْلِ حِمْصَ: لَعَلَّكُنَّ مِنَ اللَّوَاتِي يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا، فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٤).
(٢) مسلم (٢/ ٨٥).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤/ ٤١٤).
(٤) «موارد الظمآن» (١٩٦٩).
(٥) ابن ماجه (حديث ٣٧٥٠).
(٦) هذا محمول على المرأة التي تنزع ثيابها استشرافًا للمعصية وطلبًا للمحرم، وهو أيضًا من الأحاديث التي تسد الذريعة إلى الفساد كما تنهى المرأة مثلًا عن الخضوع بالقول وعن التبرج وعن التكسر =

يجب أن تخرج متسترة: مرتدية للثياب التي لا تصف جسمها ولا تحدد عوراتها بل تسترها جميعًا، فإن المرأة عورة كما قال النبي ﷺ[1].

وقد أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ (٥/ ٢٠٥) بإسناد حسن لغيره من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كَسَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قُبْطِيَّةً[2] كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقُبْطِيَّةَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً[3]، إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا**».

يجب أن تتحلى بالأدب المذكور في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

يجب عليها أن تتحلى بالحياء كما قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

ينبغي أن لا تختلط بالرجال ويجب عليها أن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣].

= والتغنج حتى لا تقع في الفاحشة فكذلك تنهى عن نزع ثيابها في غير بيت زوجها، أما إذا ذهبت إلى بيت ليس فيه رجال، وكانت الفتنة مأمونة فلا مانع من خلعها لثيابها، والله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٣) ورجاله ثقات.

(٢) القُبطية: بضم القاف شقة أو ثوب من القباطي، وهي ثياب تعمل بمصر وفي «اللسان» هي القباطي ثياب إلى الدقة والرقة والبياض.

(٣) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب، وقيل: بطائن تلبس تحت الدروع.

إذا قُدِّر وتكلمت مع أحد لضرورة ما أو لطلب شيء مثلًا فيجب عليها أن لا تخضع بالقول لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

لا تلبس ثوب شهرة يلفت الأنظار إليها:

ومع ذلك تقلل من الخروج إلا لضرورة، لقول الله تبارك وتعالى لنساء النبي ﷺ، وهن خير أسوة لنسائنا: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولقول النبي ﷺ: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**»(١).



النهي عن مصافحة النساء الأجنبيات

فمصافحة النساء الأجنبيات حرام كذلك، قال رسول الله ﷺ: «**لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ**»(٢).

وأخرج البخاري(٣) من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الآيَةِ بِقَوْلِ اللهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢]، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ بَايَعْتُكِ**» كَلَامًا، وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: «**قَدْ بَايَعْتُكِن عَلَى ذَلِكِ**».

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أيضًا ابن خزيمة (٣/ ٩٥)، والطبراني في «الكبير (١٠١١٥) ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبراني بإسناد حسن «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢١١).

(٣) البخاري مع «الفتح» (٨/ ٦٣٦).

وأخرج الإمام مالك[(١)] في الموطأ عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ بَايَعْنَهُ عَلَى الْإِسْلاَمِ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا، وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلاَ نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ، وَأَطَقْتُنَّ**».

قَالَتْ: فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا.

هَلُمَّ نُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ**».

ثم إن بعض الغاوين والغاويات يصاحبن المصافحة بابتسامات وضحكات وتمايلات تُهيِّج الكامن، وتُقرِّب من الفواحش وترغب فيها، فعياذًا بالله من الانحراف عن سواء السبيل.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (صـ ٩٨٢).

النهي عن سفر النساء بلا محرم

وذلك لما يجره سفر المرأة بلا محرم من فواحش ومحرمات، فالمرأة بجبلتها التي جبلها الله عليها ضعيفة لا تستطيع في كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها، ثم هي كذلك ناقصة العقل والدين، وسرعان ما تُخدع، وسرعان ما تضعف، وسرعان ما يُغرَّر بها، فمن ثَمَّ نُهيت عن السفر بلا محرم، وقد تواترت النصوص عن رسول الله ﷺ في ذلك ومن ذلك ما يلي:

أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لاَ تُسَافِرِ المَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، وَلاَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ»**.

وأخرج البخاري ومسلم[2] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ»**.

وثَمَّ نصوص أخر.



منع السفر إلى بلاد الكفر إلا للضرورة والمصلحة

وذلك لأن السفر إلى هذه البلاد من أكبر المساعدات على الفاحشة، فأهلها قوم لا يتحرجون من الزنا ولا يرون حرمته، وليس عندهم مسحة من الدين والورع تمنعهم من هذه الفاحشة، وتلك الرذيلة، فترى رجلًا في الطريق يعانق امرأة ولا يبالي! وترى شابًّا فوق فتاة في الطريق ولا يهتش! بل وتراهم ينكرون على المتحفظ المحتاط!

تراهم يطالبون بشواطئ للعراة تمامًا، كما ولدتهم أمهاتهم، ويستنكرون

---

(١) البخاري مع «الفتح» (٤/ ١٧٢)، ومسلم (صـ٩٧٨).

(٢) البخاري مع «الفتح» (٢/ ٥٦٦)، ومسلم (صـ٤٨٧).

حتى على من ارتدت في هذه الشواطئ السروال القصير «المايوه»، تراهم يتناولون الخمر ويحتسون كؤوسها.

ترى في الإعلام هنالك، والشاشات كذلك مناظر يندى لها جبين المسلم، وترى التبرج كل التبرج، والتعري كل التعري، والدياثة كل الدياثة.

فكيف يليق بشخص كريم أن يرى هذه المناظر؟!!

وأن يلج هذه الديار لغير مصلحة وضرورة؟!!

شاب يمشي فتأتيه فتاة تعانقه! وأخرى تغازله! وثالثة تجتهد لمضاجعته! فكيف يصنع أمام هذه المناظر، وهو ممتلئ فحولة وقوةً ورجولة؟!

كيف ينجو من هذه البلايا؟!!

إن الابتعاد عن مواطن الفتن من أعظم أسباب النجاة منها، ومن ثَمَّ شرع الابتعاد عن مواطن الفتن للنجاة من تلك الفتن.

قال النبي ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ، يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**»(١).

* فمن كان مفتونًا بشيء في مكان ما فليترك هذا المكان!
* من كان مفتونًا بامرأة أو بفتاةٍ فليترك المكان الذي هي فيه.
* فليترك موطن العمل الذي هي به، ولينتقل إلى عمل آخر، وإلى مكان آخر.
* فليترك الطريق التي تسير منه، ويسير هو في الطريق الآخر.

بل فليترك لها بلدتها إذا استفحل الأمر، وسيطرت على قلبه، ولم يجد لقلبه بعد الله مناصًا ولا مهربًا، هذا وفي معرض الحث على ترك مواطن السوء، وأهل السوء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

(١) البخاري (حديث ١٩).

يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨]

وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال النبي ﷺ[(١)]: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**».

وذكر النبي ﷺ قاتل المائة نفس الذي أمره العالم أن يترك أرضه أرض السوء، ويذهب إلى أرض أهلها أهل فضل وصلاح[(٢)].

* * *

(١) مسلم (حديث ٢٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، واللفظ له من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ[(*)]، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ». صحيح

(*) في رواية البخاري: «**فأدركه الموت فناء بصدره**» نحوها، أي: نحو القرية الطيبة، كما هو واضح في رواية البخاري.

تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها

لا تمتنعي أيتها الزوجة من فراش الزوج، فحرام عليك ذلك، وهو من الكبائر.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ، لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ**»[(١)].

وفي رواية لمسلم: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا**»[(٢)].

فإذا كان الزوج ممتلئًا شهوة وحرارةً وامتنعت منه زوجته وأبت عليه، فماذا عساه أن يصنع؟!!

إن الشيطان يحمله على التفكير في الحرام، بل وإتيان الحرام كذلك.

ثم إنه من أجلّ مقاصد الزواج الإعفاف، إعفاف الزوج وإعفاف الزوجة معًا.

وقد أخرج مسلم في صحيحه[(٣)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَةً[(٤)] لَهَا، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ**»[(٥)].

---

(١) البخاري (حديث ٥١٩٣)، ومسلم (صـ ١٠٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (٣/ ٦١١).

(٣) مسلم (٣/ ٥٥٠).

(٤) تمعس منيئة: أي تدلك الجلد تمهيدًا لدباغته.

(٥) في بعض رويات مسلم (٣/ ٥٥١): «إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ، فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ».

وكذلك فلتُعف الزوجة هي الأخرى، فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نذر الزوجة كالمعلقة، وجعل أقصى حد للإيلاء أربعة أشهر، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]، فرجل أقسم ألا يقرب امرأته سنة مثلًا، أو خمسة أشهر مثلًا، فإن هذا الرجل ليس له هذا الذي صنع بل أقصى مدة يتربصها أربعة أشهر، ويُلزم بعد ذلك إما باللقاء والإجماع أو بالطلاق والفراق.

وأيضًا... فقد قال النبي ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[(١)].

فكم من حالة من حالات الزنا كان سببها إهمال الزوج لزوجته، وعدم إعفافها، فحملها ذلك على الوقوع في الفاحشة والعياذ بالله.

وأيضًا فينبغي أن تتجمل المرأة لزوجها وتتزين له وتتصنع حتى يأتي حاجته منها وتقرّ بها عينه ولا ينظر إلى أخريات.

ولتتجمل بكل ما أباحه الله لها، وتتقي ما حرمه الله ورسوله، وقد قال تعالى في شأن النساء: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨]، فالمرأة منذ طفولتها وهي تُحلى وتُزين.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أي: هي للمؤمنين في الدنيا يشاركون فيها غيرهم، لكنها يوم القيامة خالصة لأهل الإيمان فقط، وقد قال النبي ﷺ في شأن أسامة بن زيد: «**لَوْ كَانَ**

(١) مسلم (٢/ ٤٣).

أُسَامَةُ جَارِيَةً لَكَسَوْتِهِ وَحَلَّيْتِهِ حَتَّى أُنَفِّقَهُ»[1].

فقد كان أسامة رضي الله عنه أسود شديد السواد، فمن ثمَّ قال النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ أُسَامَةُ جَارِيَةً...» الحديث.

* * *

ولا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها[2]

فقد قال ذلك رسول الله ﷺ، وذلك خشية أن يفضي هذا الوصف إلى افتتان الزوج بهذه الموصوفة، وربما يقع في الفاحشة معها بسبب ذلك.

* * *

ترك الخضوع بالقول

فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الخضوع بالقول، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فثمَّ أقوامٌ في قلوبهم مرض كما أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى، وهؤلاء الذين في قلوبهم مرض إذا خضعت لهم المرأة بالقول ظنوا بها سيئ الظن، ظنوا أنها تريد منهم المواعدة، ظنوا أنها تريد منهم الفاحشة.

فجدير إذن بالمرأة ألا تخضع بالقول.

وليس معنى عدم خضوعها بالقول أن تكون فظة وغليظة، ولكنها تتكلم بكلمات تنم عن أدب وحسن خلق ولا تطمع فيها الرجال.

(١) ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٣٥٦) بإسناد صحيح.
(٢) أخرجه البخاري مع «الفتح» (٩/ ٣٣٨).

ولتدرك تمامًا أثناء حديثها أن الله معها يسمع ويرى!!

لتدرك تمامًا أن ربها يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور!!

عجيب أمر امرأة فظة وغليظة مع زوجها ومحارمها، ثم هي تخضع بالقول مع الرجال الأجانب والشباب، وكذلك فلا يخضع الرجال بالقول.

وقد يعجب شخص من هذا؟ فيتساءل:

هل يخضع رجل بالقول؟

نعم: هناك من يخضع بالقول من الرجال. هناك رجل يتصل بصديق له، فإذا وجده كلَّمه كلام رجلٍ لرجل، أما إذا وجد امرأة، أخذت بسماعة الهاتف إذا به يتأنث معها ويتخنث، ويخضع لها بالقول غاية الخضوع، كي يوقعها في شركه وحباله، وخفي عليه أن الله تعالى محيط بما يعمل عليم بما يصنع.



نداءات
أيها الأب الكريم، أيها الزوج العفيف

* اعلم أنك راع مسئول أمام الله عن رعيتك، كما قال النبي ﷺ[(١)]: «أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا، وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

* اعلم أيها الأب الكريم أنك مخاطب بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

فبالله عليك أيها الأب الكريم، لا تفرط في جنب الله، فإن نفسًا سيأتي عليها يوم تقول فيه: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾.

[الزمر: ٥٦]

* احفظ بيتك أيها الأب الكريم، وابتعد عن الدياثة ولا تسمح لابنتك أن تصطحب زميلها إلى بيتك، ولا تسمح، ثم لا تسمح بأن يُغلق على ابنتك وخطيبها بابٌ، فعارٌ عليك أيها الأب الكريم، أن تزني ابنتك، وخرم لمروءتك وقلةٌ لحيائك، وإذهاب لوقارك، فضلًا عن الإثم اللاحق بك أن تمشي ابنتك مع شاب، وأن تخلوا امرأتك برجال، فكن غيورًا أيها الأب الكريم، كن شهمًا، لا تكن ديوثًا، فعياذًا بالله من الدياثة التي تتسبب في حرمان أقوام من دخول الجنة، عياذًا بالله من الدياثة التي هي شأن الخنازير التي لا تغار على إناثها.

* ما معنى أن امرأة ما من النساء أو فتاة من الفتيات خرجت ترتدي ثوبًا

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٥٥٨)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

ضيقًا، ولم تقنع بضيقه، بل تشقه من أسفل، من الأمام، أو من الخلف؟!!

* ما معنى أن ترتدي امرأة ما من النساء ثوبًا، ثم إذا هي تربطه بحزام فتجسد جسمها وتظهر مفاتنها؟!

إن هذا بلا شك من عمل الشيطان الذي يأمر بالفحشاء.

إن هذا من عمل الشيطان، ذاك العدو المضل المبين.

أيها الأب الكريم، لا تسمح لولدك كذلك باصطحاب الفتيات في الطرقات، ولا بالإتيان بهن إلى البيت.

* لا تسمح لابنك بمصادقة الفساق والأراذل، فجليس السوء إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة نتنة.

تفَقَّد أيها الاب الكريم أحوال أبناءك وبناتك، وانظر إلى تصرفات هؤلاء، وأولئك، وانظر إلى ماذا يشاهدون؟ وفي ماذا يقرأون؟ وعلى ماذا يطلعون؟

انظر إلى حركاتهم في البيت، كيف يتحركون، وإلى اهتماماتهم بم يهتمون؟ وقوِّم الاعوجاج، وسدد، وسل الله التوفيق.

* لا تصحب أيها الأب الكريم أبناءك وبناتك إلى أماكن الشر والفساد، والتبرج والسفور والاختلاط.

* لا تضع أيها الأب العراقيل أمام ابنتك عند زواجها، بل إذا أتاها كفءٌ لها في دينه ودنياه فزوِّجها، ويسر عليه، فإن في تيسيرك عليه تيسيرًا على نفسك في الدنيا والآخرة، فمن يسَّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة[1]، وكذلك ففي تيسيرك عليه تيسير على ابنتك.

* وتيسيرك عليه سبب في يُمن ابنتك بالبركة فيها، فإن أقل النساء مهورًا

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

أكثرهن بركة.

* لا معنى لتأخير ابنتك عامًا كاملًا عن الزواج من أجل غرفة سفرة، فلتأكل ابنتك على مفرشٍ بدلًا من أن تتأخر حولًا كاملًا عن الزواج.

* ولا معنى لتأخير ابنتك حولين آخرين من أجل غرفة صالون، فجائز -ومن أجل الإعفاف- أن يجلس الأضياف على بُساط يبسط على الأرض مع بعض المتكآت يسيرة الأثمان، فكن أيها الأب الكريم ميسرًا، ولا تكن مُعسرًا.

* ولا ترهق نفسك أنت الآخر في تجهيز ابنتك، فلست مطالبًا شرعًا بشيء من أمر الجهاز، فما تفعله فضل منك وجزاك الله خيرًا.

* لا تعضل ابنتك أيها الأب الكريم، لا تمنعها من الزواج، ففي هذا شيوع للفواحش وانتشار للزنى!

* وحتى ابنتك التي مات عنها زوجها ورغبت في الزواج لشبابها، ولإعفاف نفسها، فلا تمنعها من هذا الزواج، فالنساء يختلفن، فمنهن من تحنو على أولادها بعد وفاة زوجها، وليس لها كبير حاجة في الرجال، ورزقها الله صبرًا وعقلًا لإحسان تربية أولادها، وليس لها رغبة في الزواج فهذه تترك ولا تجبر على الزواج، وقد أثنى الرسول ﷺ على أم هانئ لهذا الصنيع لما عرض عليها الزواج بها فتعللت بأولادها وبكبر سنها(١).

(١) في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، -وفي رواية: أَحْنَاهُ عَلَى يَتِيمٍ فِي صِغَرِهِ - وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ» أخرجه البخاري (٥٠٨٢)، ومسلم (حديث ٢٥٢٧)، وسبب ورود هذا الحديث عند مسلم (صـ ١٩٥٩) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ خطب أم هانئ بنت أبي طالب فقالت: يا رسول الله! إني قد كبرت، ولي عيال، فقال رسول الله ﷺ: «صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ...» الحديث.
وهناك قال النووي في شرح مسلم: والحانية على ولدها التي تقوم عليهم بعد يتمهم، فلا تتزوج، فإن تزوجت فليست بحانية.
قلت: وليس الأمر على إطلاقه، لما ذكرناه أعلى.

بينما تزوجت نسوة أخريات، إذ كن محتاجات للزواج ولتربية الأولاد، كاسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تزوجت بعد مقتل زوجها جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأبي بكر، ثم تزوجت بعد موت أبي بكر بعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين[1].

* فلا تؤخر ابنتك عن الزواج أيها الأب العفيف الكريم.

* بل وقم باختيار الرجل الصالح لابنتك وأخبره أنك تريد أن تزوجه ابنتك، وليس هذا بضائرٍ عليك في دينك ولا في دنياك.

* فها هي سير بعض سلفنا الصالح في ذلك، بل وشيء من كتاب الله كذلك.

* قال العبد الصالح لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القصص: ٢٧].

* وها هو عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعرض ابنته حفصة على أبي بكر وعلى عثمان للزواج بها.

* أخرج البخاري في صحيحه[2] من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، -وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ-، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: أَتَيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ

---

(١) أخرج ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٢٢) بإسناد صحيح عن عامر الشعبي، وصححه كذلك ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ١٦) وعزاه إلى ابن السكن، قال عامرٌ: تزوج علي بن أبي طالب أسماء بنت عميس فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، فقال كل واحد منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها عليّ: اقضي بينهما يا أسماء، قالت: ما رأيت شابًّا من العرب خيرًا من جعفر، ولا رأيت كهلًا خيرًا من أبي بكر، فقال علي: ما تركت لنا شيئًا، ولو قلت غير الذي قلت لمقتُّك، فقالت أسماء: إن ثلاثة أنت أخسهم لخيار.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥١٢٢).

لَيَالِيَ ثُمَّ لَقِيَنِي، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيق، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، وَكُنْتُ أَوْجَدَ عَلَيْهِ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا؟ قَالَ عُمَرُ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبِلْتُهَا.

وها هو علي رضي الله عنه يعرض ابنة حمزة على رسول الله ﷺ، ففي صحيح مسلم[١] عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَكَ تَنَوَّقُ[٢] فِي قُرَيْشٍ وَتَدَعُنَا؟ فَقَالَ: «وَعِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، بِنْتُ حَمْزَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي، إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ**».

* وأم حبيبة[٣] كذلك رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: «**وَتُحِبِّينَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي الخَيْرِ أُخْتِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ ذَلِكِ لاَ يَحِلُّ لِي**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَاللهِ إِنَّا لَنَتَحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ؟ فَقَالَ: «**بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَوَاللهِ لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلاَ تَعْرِضْنَ[٤] عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلاَ أَخَوَاتِكُنَّ**».

---

(١) مسلم (حديث ١٤٤٦).
(٢) تنوق: أي: تختار وتبالغ في الاختيار.
(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥١٠٧).
(٤) النهي هنا عن عرض ما يحرم فقط.

* **ولا أقول لك:** اختر لها شابًّا طائشًا يُعيِّرها بعَرْضِها عليه واختيارك له، بل اعرضها على من ترتضى خلقه وترتضى دينه، فهذا الذي يُقدِّر معروفك، ويحفظ جميلك، ويثيبك على إحسانك.

* وجزاك الله خيرًا أيها الأب الكريم إذا قمت بتزويج ولدك إذا كان ذلك بوسعك، فلك أجر في إعفاف ولدك، ولك أجر في إحصان ولدك، فإعفافه خيرٌ لك وله من أن يأتيك يومًا بعارٍ يحمله، إعفافه خير لك من أن تجده مع البغايا والمومسات، استقراره مع زوجته خيرٌ له وأعف وأطهر من تشرده مع الخبيثين والخبيثات.

* * *

وأنت أيتها الأم الكريمة أيتها الأم العفيفة

* أيتها الزوجة الوفية المخلصة، اعلمي أيتها الأم الكريمة أنك أنت الأخرى راعية ومسئولة عن رعيتك!

* فقومي بمسئوليتك التي أوجبها الله عليك، خُذي بأيدي أبنائك وبناتك إلى طريق الله سبحانه وتعالى، كوني دائمة التذكير لهم بحدود الله ومحارمه وحذريهم من انتهاكها.

* كوني أيتها الزوجة حافظة لغيب زوجك، ومحافظة على عرضك ودينك، وسلي الله التوفيق لذلك، فالمحفوظ من حفظه الله.

* لا تُدخلي رجلًا ليس هو لك بمحرم إلى بيتك، لا تكثري من حديث الرجال، لا تخضعي للرجال بالقول، لا تأذني لصديق الزوج بالاسترسال معك في الحديث حيث لا حاجة إلى الحديث.

* هل ترضين أيتها الزوجة الكريمة أن تلحقي بزوجك ولدًا غير ولده، يرثه مع من يرث من سائر الأولاد؟! ويطلع على ما لا يحل له من العورات؟!

* كيف تورثينه وهو لا يحل له؟! كيف تلحقينه بزوجك وهو ليس له بولد؟!

إن النبي ﷺ أتى بِامْرَأَةٍ مُحِجٍّ[(١)] عَلَى بَابِ فُسْطَاطٍ، فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُلِمَّ بِهَا؟**»[(٢)] فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنًا يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرَهُ، كَيْفَ يُوَرِّثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟ كَيْفَ يَسْتَخْدِمُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟**»[(٣)].

* * *

أيها الشيخ الكبير المفتون

* يا من طال عمره وشاب رأسه وانحنى ظهره وسقط حاجبه على عينه، ومع ذلك ما زال مفتونًا، ومع ذلك ما زال مُراهقًا، ومع ذلك لا يزال يتبع سبيل الشيطان، ويلهث وراء الفواحش والشهوات.

* يا من هذه صفته، أما علمت أن أعمار أمة محمد ﷺ ما بين الستين إلى السبعين[(٤)]، أما علمت أن الشيخ الزاني لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة،

(١) المُحِج: هي الحامل التي قربت ولادتها.
(٢) يُلِمَّ: أي: يجامعها، وكانت حاملًا مسبيةً لا يحل جماعها حتى تضع.
(٣) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ نقلًا عن محمد فؤاد:
«**كَيْفَ يُوَرِّثُهُ وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ؟**» مَعْنَاهُ: أَنَّهُ قَدْ تَتَأَخَّرُ وِلَادَتُهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ حَيْثُ يُحْتَمَلُ كَوْنُ الْوَلَدِ مِنْ هَذَا السَّابِي وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ قَبْلَهُ، فَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ مِنَ السَّابِي يَكُونُ وَلَدًا لَهُ وَيَتَوَارَثَانِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ مِنْ غَيْرِ السَّابِي لَا يَتَوَارَثَانِ هُوَ وَلَا السَّابِي لِعَدَمِ الْقَرَابَةِ بَلْ لَهُ اسْتِخْدَامُهُ لِأَنَّهُ مَمْلُوكُهُ، فَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ: أَنَّهُ قَدْ يَسْتَلْحِقُهُ وَيَجْعَلُهُ ابْنًا لَهُ وَيُوَرِّثُهُ مَعَ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ تَوْرِيثُهُ لِكَوْنِهِ لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا يَحِلُّ تَوَارُثُهُ وَمُزَاحَمَتُهُ لِبَاقِي الْوَرَثَةِ، وَقَدْ يَسْتَخْدِمُهُ اسْتِخْدَامَ الْعَبِيدِ وَيَجْعَلُهُ عَبْدًا يَتَمَلَّكُهُ مَعَ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ ذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ مِنْهُ إِذَا وَضَعَتْهُ لِمُدَّةٍ مُحْتَمِلَةٍ كَوْنِهِ مِنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَيَجِبُ عَلَيْهِ الِامْتِنَاعُ عَنْ وَطْئِهَا خَوْفًا مِنْ هَذَا الْمَحْظُورِ.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠) بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**».

ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

* أما علمت أن شمس عمرك قد حان وقت غروبها، وأنت ما زلت لاهيًا لاعبًا جريئًا على محارم الله.

* هلا عملت لأخراك، هل ظننت أنك ستلاقي ربك، وستوافيك المنية عما قريب؟؟

* إن الله قد أعذر إليك إذ بلغت الستين من عمرك، فهل من توبة وأوبة ورجعة إلى الله سبحانه؟ أم أنك كمن قال الشاعر فيه:

شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والضيُّ في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من سكنى ولا أرب

* فكم من صديق لك أيها الشيخ قد ارتحل، وكم من رفيق لك أيها الشيخ قد مات.

* ها هي الديار أمامك أيها الشيخ، قد ورثها قوم آخرون غير الذين كنت تعهدهم وتألفهم، أما الصحب والأحباب، والخلان والأتراب، فبيوتهم هنالك في المقابر، إذا أردت الزيارة فزرهم هنالك واستعد للرحيل فقد أزف، وليس للآزفة من دون الله كاشفة.

* * *

(٥٠٩) أحمر
أسود

يا مُريد التعفف، ويا ناشد الإحصان، ويا راغبًا في العصمة من الزلل

* عليك بتقوى الله، عليك بمراقبة الله في السرِّ والعلن، فلمن خاف مقام ربه جنتان.

* جاهد نفسك وزكِّها، فقد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، تعفف يعفَّك الله!

عليك يا مُريد التعفف بالزواج.

قال نبيك محمد ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(١).

فبدلًا من أن تزني، وبدلًا من أن تنظر إلى الحرام، فانظر إلى زوجتك الحلال، وأت زوجتك الحلال، فلك في ذلك أجر، قال النبي ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ**(٢) **أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(٣).

فالزواج سنة المرسلين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وها هو موسى الكليم ﷺ يؤاجر نفسه ثماني سنوات من أجل عفة فرجه، فقد قال له العبد الصالح: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، وفي عدة مواطن من صحيحه، ومسلم (حديث ١٤٠٠) أما الوجاء فهو (رض الخصيتين)، والمراد: أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني كما يفعله الوجاء.

(٢) المراد بالبضع: الفرج، ويطلق أيضًا على الجماع، والمعنى هنا: في جماع أحدكم زوجته صدقة.

(٣) مسلم (حديث ١٠٠٦).

حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

ووافق موسى عليه السلام على ذلك، إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨].

وها هو ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا لَيْلَةٌ، لَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ امْرَأَةٌ»(١).

* وإن لم تستطع الزواج بالأبكار هنالك الثيبات، ومنهن الصالحات ومنهن الفضليات، ومنهن الودود، ومنهن الولود كذلك.

* فكم من امرأة تأيمت وترملت على أولادها، عندها بيتها وعندها فراشها وعندها مالها، والذي تحتاج إليه هو رجل يعفها، رجل صالح يساعدها على تربية أبنائها.

* فهل لك في مثل هذه تغنم أجرًا فيها وفي كفالة أيتامها ولو بالرعاية؟

* بل هل لك في إعفاف نفسك مع مثل هذه الصالحة الطيبة؟

إن نبيك محمدًا صلى الله عليه وسلم تزوج أول ما تزوج بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وهي تكبره بسنوات، على بعض الأقوال تكبره بخمسة عشر عامًا، وكان يحبها حبًّا عظيمًا ويقول: «**إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا**» ورزقه الله منها الولد رضي الله عنها.

ففي بعض الأحيان يكون في الزواج من الثيب خير، حتى خيرٌ من البكر في بعض الأحيان، وإن كان زواج البكر في الجملة أفضل، لكن قد يفضله في بعض الأحيان زواج الثيب، ثم إن الزواج بثيب – في أغلب الأحيان، بل وعلى العموم – أفضل من البقاء بلا زوج.

هذا ومما يدل على أفضلية زواج الثيب في بعض الأحيان، ما أخرجه

---

(١) سنده صحيح «المصنف لابن أبي شيبة» (٤/ ١٢٨).

البخاري ومسلم[(١)] من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: هَلَكَ أَبِي وَتَرَكَ سَبْعَ بَنَاتٍ أَوْ تِسْعَ بَنَاتٍ، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ثَيِّبًا، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**» قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ: «**فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ، وَتُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ**» قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ هَلَكَ، وَتَرَكَ بَنَاتٍ، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَجِيئَهُنَّ بِمِثْلِهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً تَقُومُ عَلَيْهِنَّ وَتُصْلِحُهُنَّ، فَقَالَ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ**» أَوْ: «**خَيْرًا**».

* فهذا وجه ترجح فيه زواج الثيب.

وإن كان الأفضل كما قدمنا في الجملة – زواج البكر لقول النبي ﷺ: «**فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ؟**».

ولقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيما -أخرجه البخاري[(٢)]- قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ!، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِيًا وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا، وَوَجَدْتَ شَجَرَةً لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا، فِي أَيِّهَا كُنْتَ تُرْتِعُ بَعِيرَكَ؟ قَالَ: «**فِي الَّذِي لَمْ يُرْتَعْ مِنْهَا**» تَعْنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا.

* ولكن قد يكون هناك ما يجعل زواج الثيب أفضل كما تقدم من صنيع جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولما أشرنا من كون الثيب قد تعول أيتامًا فيريد الرجل أن ينال أجر تربية هؤلاء الأيتام والقيام عليهم.

* وقد يكون العارض جبر خاطر امرأة مات زوجها كما ذكر بعض العلماء في تزوج النبي ﷺ بأم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

* وقد يكون العارض هو دين الثيب القوي، ورجاء الانتفاع بها في الدين والدنيا.

---

(١) البخاري (حديث ٥٣٦٧)، ومسلم (صـ ١٠٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٠٧٧).

❁ وقد يكون العارض طلب مصاهرة أقوام صالحين أو لهم جاه ينفع الله به في أمور الدنيا والدين، إلى غير ذلك من العوارض، والله تعالى أعلم.

❁ وسيأتي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ، فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**».

❁ وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥].

❁ فإن لم تستطع الزواج فعليك بالتعفف، فبهذا أمرك ربك سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

❁ وعليك بالصوم كذلك؛ إذ هو إرشاد نبيك لك، ففيما تقدم قال ﷺ: «**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**».

❁ ❁ ❁

أيها الشاب

يا من تفكر في الزنا، يا من تراود الفتاة عن نفسها، يا خائنًا للزوج في زوجته، هل ترضى بهذه الفاحشة المنكرة لأمك؟!

هل ترضى بها لأختك؟!

هل تريدها لابنتك ولزوجتك؟!

هل ترضاها لعمتك ولخالتك؟!

قطعًا ستقول: لا، فإنك مسلم ولله الحمد.

فإذا كنت لا ترضاه لأمك، ولا لأختك، ولا لزوجتك، ولا لعمتك، ولا لخالتك، ولا لابنتك، فكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لعماتهم، ولا لخالاتهم!

لا يرضونه لبناتهم كذلك.

ألم تعلم أيها الزاني بأن الله يراك.

ألم تدرك أن الآثار تكتب، والخطوات تُسجل، وأن السرائر سوف تُبلى.

اعلم أن هناك نارًا تلظى سيصلاها الأشقى.

اعلم أن هناك قبرًا موحشًا ومظلمًا، ستدخله يومًا ما، ولا بد، فكل نفس ذائقة الموت.

اعلم وأيقن أن المعاصي والكبائر والفواحش تسود القلب وتقسيه، ثم إن شبحها يطارد أصحابها.

احذر أيها الزاني أن يُفعل بامرأتك وبناتك وأخواتك كما تفعل بالناس، فكما تدين تُدان، والجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

فانتبه وراقب الله تعالى، فأنت مراقب.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

❊ ❊ ❊

أيتها الفتاة

* اتقي الله ربك!

* أحصني فرجك!

* هل ترضين بمعصية الرب؟ ثم إلى أين المفر؟ فإلى ربك يومئذ المستقر.

* يومها سوف تنبئين بما قدمت وما أخرت!

* هل ترضين أيتها الأخت الكريمة لنفسك بالعذاب!

* هل ترضين أيتها الأخت بأن تجلبي العار لأبويك وإخوتك، بل ولأقاربك وعشيرتك؟!!

* هل ترضين بأن تحملي من سفاح؟!!، يكون ولدك ولد زنا، والعياذ بالله؟!!

* هل ترضين أن يُقال لابنتك إن أمك كانت بغيًّا؟!

* إن الزاني نفسه، ذاك المجرم الأثيم المخادع اللئيم، هو نفسه يزدريك، هو نفسه يمقتك.

* إنها لحظة استمتاع بسفاح يعقبها أذى ووبال.

* إنها لحظة تمرد وعصيان تعقبها الفضيحة والعار.

* فاتقي الله في نفسك، اتقي الله في عرضك، اتقي الله في ولدك، اتقي الله في أبويك وإخوتك، اتقي الله في أقاربك وعشيرتك.

* واحذري غضب الله، واتقي ناره.

* * *

(٥١٦) أحمر
أسود

ويا أولي الأمر ويا أيها العلماء

* يا من ولاهم الله أمر المسلمين، ويا من حملتم الأمانات في الأعناق، اذكروا قول ربكم سبحانه واعقلوه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

* اعلموا يا ولاة الأمور أن الله سائلكم عما استرعاكم، فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته.

خذوا بأيدي رعاياكم إلى الفقه والطهارة.

* دعوا النساء مع النساء، والرجال مع الرجال في الوظائف والأعمال والمدارس والجامعات.

* اعلموا أن الله سائلكم عن أجهزة إعلام بلادكم، فاتقوا الله، وراقبوه، واعلموا أنكم ملاقوه.

* بثوا الخير وانشروا المعروف بين الناس.

* خذوا على أيدي السفهاء والمفسدين في الأرض الذين يبغونها عوجًا.

* علِّموا الجاهل، وأرشدوا الضال.

* قربوا الناس من ربهم، وسلوا الله السداد والتوفيق.

* * *

أيها الأخ الغيور على دينه وعرضه

* حافظ على عرض أختك.

* لا تجلب أصدقاءك إلى البيت وتطلعهم على العورات.

* لا تعرض أختك للقاء أضيافك واستقبالهم، فكم من مفسدة حدثت بسبب ذلك.

* أيها الأخ الغيور، تفقد أحوال أختك الحين بعد الحين، وذكرها بالله، وحثها على الورع، وجنبها الشرور، ذكر أختك إذا هي خرجت متبرجة ومتعطرة ومتزينة، ذكرها بالله وبحدوده ومحارمه.

* كن أيها الأخ الكريم مثالًا حسنًا في بيتك، ولا تتصرف تصرفًا يشينك، ويتأسى بك فيه غيرك، فتحمل أوزارًا فوق أوزارك.

* اعلم أن المرأة ناقصة عقل ودين، فذكر أختك دائمًا بالله، ورشد لها قراءتها وصداقاتها ومطالعاتها.

* حذر من مسلسلات الفسق والعشق والغرام.

* حذر من أفلام الحب والشرور والآثام.

* كن لها ناصحًا، فعرضها عرضك، وعفافها لك عفاف، وسل الله التوفيق لها في كل وقت وحين.

* * *

(٥١٨) أحمر
أسود

وختامًا أيها المؤمنون

* توبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

* أوبة إلى الله معشر العباد، قبل أن يأتي يوم تقول فيه نفس: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

* وتوبةً إلى الله قبل أن يأتي وقت تحرق فيه فروج الزناة والزواني أولئك العصاة.

* أقيموا أمر ربكم سبحانه وتعالى في أنفسكم وإخوانكم، وأهاليكم، وجيرانكم، وذويكم.

* ذروا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

* حرموا ما حرم الله، وأحلوا ما أحله سبحانه.

* سلوا ربكم دائمًا العفاف.

* تعوذوا بالله من شر منيكم، فالرسول ﷺ كان يتعوذ من ذلك(١).

* تعوذوا بالله من فتنة النساء فإنها من أعظم الفتن(٢).

* اعلموا أن المحفوظ من حفظه الله، والمعصوم من عصم.

* فها هو الصديق يوسف يقول: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

---

(١) أخرج أبو داود (٢/ ١٩٣ في السنن) بإسناد حسن من حديث شكل بن حميد قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ، عَلِّمْنِي دُعَاءً، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي».

(٢) قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».
وقال ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٧٤٢): «وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».
وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَاتَّقُوهَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» (المسند ٣/ ٤٦).

وربنا سبحانه يقول: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فانظر إلى قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: حافظات لغيب أزواجهن، وليس هذا الحفظ منهن بقدرتهن وقوتهن، ولكن بما أعانهن الله عليه من الحفظ.

وهذا المعنى كامنٌ في قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فمن معانيها: لا تَحوُّل عن معصية الله إلا إذا حولني الله ﷻ.

فإذا كان الأمر كذلك، فلزامًا أن نسأل الله العفاف، ولزامًا أن نسأل ربنا أن يحفظنا، وأن يعصمنا من الزلل، قائلين ما كان يقوله نبينا محمد ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفَاف والغِنَى**»[1].



س: ما المراد بالحق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾.

ج: من ذلك ما يلي:

النفس بالنفس: أي: أن القاتل يُقتل.

الزاني المحصن: أي الزاني الذي زنى بعد زواجه فهذا يُرجم.

المرتد: وهو التارك لدينه المفارق للجماعة، وسيأتي الحديث بذلك قريبًا.

* **وكذا قطاع الطريق المفسدون في الأرض**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ ...﴾ [المائدة: ٣٣] الآية.

* **وكذا الفئة الباغية**: لقوله تعالى: ﴿... فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [الحجرات: ٩].

* **وكذا من فعل فعل قوم لوط**: على قول من الأقوال.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

بعض صور الإسراف في القتل

س: ما المراد بالإسراف في القتل؟

ج: أورد ابن الجوزي في ذلك خمسة أقوال:

أحدها: أن يقتل غير القاتل.

الثاني: أن يقتل اثنين بواحد.

الثالث: أن يقتل أشرف من الذي قُتل.

الرابع: أن يمثِّل (أي يمثل بالقاتل إذا تمكن منه بأن يقطع أعضاءه ويشوهه ونحو ذلك).

الخامس: أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان، وقال في هذا الأخير: ذكره الزجاج.



التحذير من القتل

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ﷻ قتلها إلا بالحق، ومن هذا الحق ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**».

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي: فقد جعلنا لولي المقتول تسلطًا على القاتل، أي: جعلنا له سبيلًا وحجة عليه ومكَّناه فيه فله أن يطالب بقتله، وله أن يعفو عنه وله أن يأخذ الدِّية منه.

أما قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ فقد تقدم معناه وأنه لا يقتل اثنين بواحد

ولا يمثل بالمقتول ولا يقتل غير القاتل.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: أن الولي، ولي المقتول وعد الله بنصره إن هو لم يسرف في القتل، ومن نصره أيضًا أن الله جعل له تسلطًا على القالت، حكم الله بذلك حكمًا وجعله شرعًا، ومؤداه أن الولي سلَّطه الله على القائل يفعل به إحدى الثلاث إما أن يقتله وإما أن يعفو عنه وإما أن يقبل الدية، وهذا من صور نصره أيضًا.

ثم إن الله ﷻ ناصر أولياء المقتول يوم القيامة إن لم يأخذوا حقهم في الدنيا.

هذا، ومن الحق الذي به تقتل النفس إضافة إلى ما ذكر في حديث: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ**:..» فمن ذلك:

* قطاع الطرق والمحاربون لله ورسوله، ذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣].

* ومنهم من عَمِل عَمل قوم لوط: (على قولٍ لفريق من العلماء).

* ومن ذلك قتال الفئة الباغية لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩].

* ومن هؤلاء الساحر (على قول لفريق من أهل العلم).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جلّ ثناؤه: وقضى أيضا أن ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ﴾ أيها الناس ﴿ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود نفس، وإن كانت كافرة لم يتقدّم كفرها إسلام، فأن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان.

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا﴾ يقول: ومن قتل بغير المعاني التي ذكرنا أنه إذا قتل بها كان قتلا بحقّ ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ يقول: فقد جعلنا لوليّ المقتول ظلمًا سلطانًا على قاتل وليه، فإن شاء استقاد منه فقتله بوليه، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى السلطان الذي جُعل لوليّ المقتول، فقال بعضهم في ذلك، نحو الذي قُلنا.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس، قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ قال: بيِّنة من الله ﷻ أنزلها يطلبها وليّ المقتول، العَقْل، أو القَوَد، وذلك السلطان.

وقال آخرون: بل ذلك السلطان: هو القتل.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ وهو القَوَد الذي جعله الله تعالى.

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من تأول ذلك: أن السلطان الذي ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما قاله ابن عباس، من أن لوليّ القتيل القتل إن شاء وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء العفو، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «**ألا ومَنْ قُتِل لَهُ قَتِيلٌ فَهُو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ بين أنْ يَقْتُلَ أوْ يأْخُذ الدّيَة**».

وقوله: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامّة قرّاء الكوفة (**فَلا تُسْرِفْ**) بمعنى الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد به هو والأئمة من بعده، يقول: فلا تقتل بالمقتول ظُلْمًا غير قاتله، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك إذا قتل رجل رجلًا عمد وليّ القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل، فقتله بوليه، وترك القاتل، فنهى الله ﷻ عن ذلك عباده، وقال

لرسوله عليه الصلاة والسلام: قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف، فلا تقتل به غير قاتله، وإن قتلت القاتل بالمقتول فلا تمثِّل به. وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياء، بمعنى فلا يسرف وليّ المقتول، فيقتل غير قاتل وليه.

وصوَّب الطبري القراءتين: وأورد عدة آثار في تفسير الإسراف في القتل، منها:

أثر طلق بن حبيب بإسنادٍ صحيح عنه، قال: لا تقتل غير قاتله ولا تُمثل به.

ومنها أثرٌ من طريق خصيف عن سعيد بن جبير: قال لا تقتل اثنين بواحد.

ومنها أثرٌ بسندٍ صحيح عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قال: كان الرجل يُقتل فيقول وليه: لا أرضى حتى أقتل به فلانًا وفلانًا من أشراف قبيلته.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قال: لا يقتل غير قاتله؛ من قَتَل بحديدة قُتل بحديدة؛ ومن قَتَل بخشبة قُتِل بخشبة؛ ومن قَتَل بحجر قُتل بحجر.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد، يقول في قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قال: إن العرب كانت إذا قُتل منهم قتيل، لم يرضوا أن يقتلوا قاتل صاحبهم، حتى يقتلوا أشرف من الذي قتله، فقال الله جلّ ثناؤه: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ينصره وينتصف من حقه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ يقتل بريئا.

وقال الطبري:

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيمن عُنِي بالهاء التي في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ وعلى ما هي عائدة، فقال بعضهم: هي عائدة على وليّ

المقتول، وهو المعنيّ بها، وهو المنصور على القاتل.

وقال آخرون: عُنِي بها دم المقتول، وقالوا: معنى الكلام: إن دم القتيل كان منصورًا على القاتل.

وأشبه ذلك بالصواب عندي، قول من قال: عُنِي بها الوليّ، وعليه عادت، لأنه هو المظلوم، ووليه المقتول، وهي إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول، وهو المنصور أيضا، لأن الله جلّ ثناؤه قضى في كتابه المنزل، أنه سلَّطه على قاتل وليه، وحكَّمه فيه، بأن جعل إليه قتله إن شاء، واستبقاءه على الدية إن أحبّ، والعفو عنه إن رأى، وكفى بذلك نُصرة له من الله جلّ ثناؤه، فلذلك قلنا: هو المعنيّ بالهاء التي في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ٣٣﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ناهيًا عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ**»(١).

وفي السنن: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ**»(٢).

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قودًا، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه.

وقوله: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل.

---

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) حسن لشواهده، أخرجه النسائي (٧/ ٨٣)، وله شواهد ذكرتها في كتابي الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: أن الولي منصور على القاتل شرعًا، وغالبًا قدرًا.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضا تسلطا قدريًّا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد العدوان والمكافأة.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الولي ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل أو يقتله بغير ما قتل به أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولا تقتربوا من مال اليتيم فتعتدوا عليه وتأخذوا منه شيئًا بغير حق.

لا تقربوا منه إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق إما الحفظة لهم والإنفاق

عليهم بالحسنى، وإما بتثميره لهم وتنميته لهم.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: حتى يبلغ اليتيم أشده ويبلغ الحلم ويستطيع أن يتصرف في ماله بالطريقة الحسنة كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ فالمراد بالعهد كما تقدم مرارًا جميع العهود التي أخذت عليك يا ابن آدم والتي قطعتها على نفسك، وهذا يشمل العهود التي بينك وبين ربك ﷻ، والعهود التي بينك وبين سائر البشر، ومنها عقود الأنكحة والمشاركات المالية والمعاهدات وغير ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: كان العبد مسؤولًا عن العهد يوم القيامة هل وفَّى به أم لا. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقضى أيضا أن لا تقربوا مال اليتيم بأكل، إسرافا وبدارا أن يَكْبَروا، ولكن اقربوه بالفَعْلة التي هي أحسن، والخَلَّة التي هي أجمل، وذلك أن تتصرّفوا فيه له بالتثمير والإصلاح والحيطة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يقول: حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل، وتدبير ماله، وصلاح حاله في دينه ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ يقول: إن الله جلّ ثناؤه سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك. وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا، يقال في

الكلام: ليسألنّ فلان عهد فلان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقال:

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)﴾ أي: عنه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: أتموا للناس كيلهم إذا كِلتم لهم، أي: أعطوهم حقهم كاملًا مستوفًى دون تطفيف أو بخسٍ، وكذلك إذا وزنتم لها، أي بعتم لهم بطريق الوزن فزنوا لهم بالميزان المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا نقص ولا بخس، فذلك الإيفاء – إيفاء الكيل- والوزن بالقسطاس المستقيم خيرٌ من التطفيف والغش والبخس وأحسن عاقبة ومردًّا عند الله يوم القيامة، وكذلك فهو حسن العاقبة في الدنيا كذلك.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَ﴾ قضى أن ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ للناس ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لهم حقوقهم قِبَلَكم، ولا تبخَسُوهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يقول:

وقَضَى أن زنوا أيضًا إذا وزنتم بالميزان المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا دَغَل، ولا خديعة.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى القسطاس، فقال بعضهم: هو القبان[1].

وقال آخرون: هو العدل بالرومية.

وقال آخرون: هو الميزان صغر أو كبر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول: إيفاؤكم أيها الناس من تكيلون له الكيل، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من بخسكم إياهم ذلك، وظلمكموهم فيه. وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يقول: وأحسن مردودًا عليكم وأولى إليه فيه فعلكم ذلك، لأن الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيُحسن لكم عليه الجزاء.

وأورد بإسناد يصح بطريقين عن قتادة: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ قال: عاقبةً وثوابًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم. ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلًا ومنقلبًا في آخرتكم.



(١) والمراد بالقبان: نوعٌ من أنواع الموازين.

النهي عن القول بلا علم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ولا تقل أقوالًا ليس لك بها علم، ولا تقل رأيت وأنت لم تر ولا تقل سمعت وأنت لم تسمع، وكذا لا تقل هذا حلال وهذا حرام بلا علم. وكذلك لا ترمِ شخصًا بفاحشة أو بسرقةٍ أو بغير ذلك بلا علمٍ.

وكذلك لا تتكلم أو تعمل بناءً على الظنون والأوهام ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ الذي هو القلب، كل هذه الجوارح سيُسأل عنها العبد يوم القيامة، سيسأل عن سمعه ما الذي سمع، ما الذي تعمد سماعه، هل تعمد سماع خير أو تعمد الاستماع إلى شر؟! وكذلك سيسأل عن بصره وإلى أي شيء نظر ولماذا نظر؟! وكذلك سيسأل عن عزم قلبه، على أي شيء عزم، وعلى أي شيء نوى. فكل هذه الجوارح كان العبد عنها يوم القيامة مسؤولًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

هذا، وقد أورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ فقال: قال بعضهم: ولا تقل ما ليس لك به علم.

وأورد بإسنادٍ صحيح بطريقين عن قتادة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع، فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله.

وقال آخرون: بل معناه: ولا ترم.

قال الطبري:

وهذان التأويلان متقاربا المعنى؛ لأن القول بما لا يعلمه القائل يدخل فيه شهادة الزور، ورمي الناس بالباطل، وادّعاء سماع ما لم يسمعه، ورؤية ما لم

يره. وأصل القفو: العضة والبهت.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لا تقل للناس وفيهم ما لا علم لك به، فترميهم بالباطل، وتشهد عليهم بغير الحقّ، فذلك هو القفو.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن ذلك هو الغالب من استعمال العرب القفو فيه.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ فإن معناه: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها، من أنه سمع أو أبصر أو علم، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحقّ، وقال أولئك، ولم يقل تلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**»[(١)].

وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه وعما عمل فيها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ أي: يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأي من ذلك وسمع. وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده، ونظيره قوله ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**» فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنه قال: كل هذا كان

(١) البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣).

الإنسان عنه مسئولًا، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلغ في الحجة، فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠]. وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسئولة، فهي حالة من يعقل، فلذلك عبر عنها بأولئك. وقال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]: إنما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ في نجوم، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل، وقد تقدم.

وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد هو والطبري:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده. وأما البيت فالرواية فيه« الأقوام» والله أعلم.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يَحِلُّ، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على ما لا يجوز.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

نهى جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم، ويشمل ذلك قوله: رأيت، ولم ير. وسمعت، ولم يسمع، وعلمت، ولم يعلم. ويدخل فيه كل قول بلا علم، وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم، وقد أشار جل وعلا إلى هذا المعنى في آيات أخر ؛ كقوله: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ

وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] الآية، وقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، وقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، والآيات بمثل هذا في ذم اتباع غير العلم المنهي عنه في هذه الآية الكريمة - كثيرة جدا، وفي الحديث: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**».

وقال الشنقيطي أيضًا:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ فيه وجهان من التفسير:

الأول: أن معنى الآية أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه، فيقال له: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟

ويدل لهذا المعنى آيات من كتاب الله تعالى؛ كقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ونحو ذلك من الآيات.

والوجه الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها، فتشهد عليه جوارحه بما فعل.

قال القرطبي في تفسيره: وهذا المعنى أبلغ في الحجة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠].

قال مقيده عفا الله عنه: والقول الأول أظهر عندي، وهو قول الجمهور.

النهي عن الكبر والاختيال

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: ولا تمش في الأرض مفتخرًا بنفسك مستكبرًا مُتعاليًا على العباد، فإنك لن تثقب الأرض بمشيتك عليها وكذا مهما افتخرت وتعاليت فلن تبلغ الجبال طولًا أي: فلا أنت بثاقب الأرض بمشيتك عليها مفتخرًا بنفسك ضاربًا لها برجلك، ولا أنت بتعاليك وكبرك ببالغ الجبال طولًا.

وقيل في قوله: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تقطع الأرض مشيًا والتفسير الأول أشهر.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ فعائدٌ على ما ذكر ابتداء من قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ...﴾.

أما قوله: ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي: كان السيئ من هذه المذكورات، فالمذكورات منها ما هو حسن كالأمر بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين وإيتاء ذي القربى حقوقهم وغير ذلك كإيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، ومن المذكورات أشياء حرمها الله كقتل النفس التي حرم الله بغير حق والزنا وأكل أموال اليتامى، والقول بلا علم.

قال فريق من العلماء: فقوله: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ أي: الأمور التي نهى الله عنها، كانت مكروهة عند ربك، أي: كانت محرمةً عند ربك ﷻ فلا تقربها.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا تمش في الأرض مختالًا مستكبرًا ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يقول: إنك لن تقطع الأرض باختيالك.

﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ بفخرك وكبرك، وإنما هذا نهي من الله عباده عن الكبر والفخر والخُيَلاء، وتقدم منه إليهم فيه معرِّفهم بذلك أنهم لا ينالون بكبرهم وفخارهم شيئًا يقصر عنه غيرهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ يعني: بكبرك ومرحك.

وفي رواية أخرى من طريقه عن معمر، عن قتادة: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ قال: لا تمش في الأرض فخرًا وكبرًا، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال، ولا تخرق الأرض بكبرك وفخرك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: لا تمش مرَحا، ولم يقل مرِحا، لأنه لم يرد بالكلام: لا تكن مرِحا، فيجعله من نعت الماشي، وإنما أريد لا تمرح في الأرض مرَحا، ففسر المعنى المراد من قوله: ولا تمش.

وقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ فإن القرّاء اختلفت فيه، فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ على الإضافة بمعنى: كل هذا الذي ذكرنا من هذه الأمور التي عددنا من مبتدأ قولنا: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.... إلى قولنا: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يقول: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروها.

وقال قارئو هذه القراءة: إنما قيل: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ بالإضافة، لأن فيما عددنا من قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أمورًا، هي أمر بالجميل، كقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾، وقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وما أشبه ذلك، قالوا: فليس كلّ ما فيه نهيًا عن سيئة، بل فيه نهى عن سيئة، وأمر بحسنات، فلذلك قرأنا ﴿سَيِّئُهُۥ﴾، وقرأ عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة وبعض قرّاء الكوفة (**كل ذلك**

كان سيئة) وقالوا: إنما عنى بذلك: كلّ ما عددنا من قولنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ ولم يدخل فيه ما قبل ذلك. قالوا: وكل ما عددنا من ذلك الموضع إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، فالصواب قراءته بالتنوين. ومن قرأ هذه القراءة، فإنه ينبغي أن يكون من نيته أن يكون المكروه مقدمًا على السيئة، وأن يكون معنى الكلام عنده: كلّ ذلك كان مكروهًا سيئه؛ لأنه إن جعل قوله: مكروهًا نعدّ السيئة من نعت السيئة، لزمه أن تكون القراءة: كلّ ذلك كان سيئة عند ربك مكروهة، وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين.

وأولى القراءتين عندي في ذلك بالصواب قراءة من قرأ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ على إضافة السيئ إلى الهاء، بمعنى: كلّ ذلك الذي عددنا من ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ لأن في ذلك أمورًا منهيًّا عنها، وأمورًا مأمورًا بها، وابتداء الوصية والعهد من ذلك الموضع دون قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إنما هو عطف على ما تقدّم من قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فإذا كان ذلك كذلك، فقراءته بإضافة السيئ إلى الهاء أولى وأحقّ من قراءته سيئةً بالتنوين، بمعنى السيئة الواحدة.

فتأويل الكلام إذن: كلّ هذا الذي ذكرنا لك من الأمور التي عددناها عليك كان سيئة مكروهًا عند ربك يا محمد، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاه، فاتق مواقعته والعمل به.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ناهيًا عباده، عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلًا مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتك قاله ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك

بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في الصحيح: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أما من قرأ (سيئة) أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلى هاهنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى هاهنا فسيئه، أي: فقبيحه مكروه عند الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لن تقطعها إلى آخرها.

والثاني: لن تنفذها وتنقُبها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: كبرًا وتيهًا وبطرًا متكبرًا على الحق ومتعاظمًا في تكبرك على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فعلك ذلك: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ بل تكون

(١) انظر البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

حقيرًا عند الله ومحتقرًا عند الخلق مبغوضًا ممقوتًا قد اكتسبت شر الأخلاق واكتسيت بأرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم والله تعالى يكرهه ويأباه.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبخترًا مشي المتكبرين؛ لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة.

وأظهر القولين عندي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أن معناه لن تجعل فيها خرقًا بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل لهذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: أنت أيها المتكبر المختال ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين، أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها؛ فاعرف قدرك، ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحًا.

القول الثاني أن معنى ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: لن تقطعها بمشيك.



التحذير من الشرك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: ذلك الذي ذكره الله، وذلك الذي قضاه ربك وأمر بالذي أمر به، ونهى عن الذي نهى عنه، ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، التي أوحيناها إليك في هذا القرآن، وقيل: الحكمة هي القرآن.

وقيل: من الحكمة أي: من القول السديد والعمل الرشيد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: ولا تعبد مع الله ﷻ معبودًا غيره آخر ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ يلومك الخلق وتلام من الله ﷻ وتُلام من ملائكته الكرام، بل وتلوم نفسك أيضًا.

أما قوله: ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: مُبعدًا مطرودًا عن الخير والفلاح.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي بيَّنا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها، ونهيناك عن قبيحها ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ يقول: من الحكمة التي أوحيناها إليك في كتابنا هذا.

وقال ابن زيد، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن.

قال الطبري رحمه الله:

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ يقول: ولا تجعل مع الله شريكًا في عبادتك، فتُلقى في جهنم ملومًا تلومك نفسك وعارفوك من الناس ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ يقول: مُبْعَدًا مقصيًّا في النار، ولكن أخلص العبادة لله الواحد القهَّار، فتنجو من عذابه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك والخلق. ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾. أي: مبعدًا من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا
(٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ
مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ
ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ
وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ
هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) ٱنظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ
خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا
(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾

[يونس: ٤٢-٥٢]

(٥٤٠) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ - بِٱلْبَنِينَ - وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا - صَرَّفْنَا - لِيَذَّكَّرُوا۟ - نُفُورًا - لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا - سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ - تُسَبِّحُ لَهُ - لَّا تَفْقَهُونَ - حَلِيمًا - حِجَابًا مَّسْتُورًا - أَكِنَّةً - وَقْرًا - وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا - يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ - نَجْوَىٰٓ - فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا - وَرُفَٰتًا - يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ - فَطَرَكُمْ - فَسَيُنْغِضُونَ - فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ - لَّبِثْتُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾	أفميّزكم – أفاختصكم – أفضلكم.
﴿بِٱلْبَنِينَ﴾	بالأولاد الذكور.
﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾	جعل الملائكة إناثًا وجعلها بناتًا له.
﴿صَرَّفْنَا﴾	نوَّعنا – فصلنا – كررنا.
﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾	ليتعظوا – ليعتبروا.
﴿نُفُورًا﴾	بُعدًا – انصرافًا.
﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾	لبحثوا عن طريق يوصلهم إلى الله لمنازعته في ملكه ولطرده من ملكه. وقيل: لبحثوا عن طريق يتقربون به إلى الله ﷻ وعملٍ صالح يوصلهم إليه.
﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾	تنزه وتعاظم وارتفع.
﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾	تنزهه عن كل عيب ونقصٍ.

(٥٤١) أحمر
أسود

﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾	لا تفهمون – لا تعقلون.
﴿حَلِيمًا﴾	لا يعاجل بالعقوبة – يُمهل العباد.
﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾	ساترًا لا يُرى.
﴿أَكِنَّةً﴾	أغلفةً – أغشية تحيط بها.
﴿وَقْرًا﴾	صممًا – ثقلًا.
﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾	انصرفوا عنك نافرين منك رافضين ما جئتهم به.
﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾	المراد الحال والطريقة التي يستمعون بها كيفية استماعهم.
﴿نَجْوَىٰٓ﴾	يناجي بعضهم بعضًا – يتحدثون سرًّا.
﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	لا يستطيعون الوصول إلى الحق. لا يستطيعون منع الناس من سلوك طريق الحق.
﴿وَرُفَٰتًا﴾	عظامًا متفتتة بالية – ترابًا.
﴿يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾	يعظم في صدوركم، وتستبعدون معه البعث فمثلًا قد يستبعدون أن يبعث الحديد، والله قادر على بعثهم ولو كانوا حديدًا.
﴿فَطَرَكُمْ﴾	خلقكم.
﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾	فسيحركون استهزاءً وسخريةً.
﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾	فتجيبون بفضل الله وبحمده الداعي الذي يدعوكم.
﴿لَّبِثْتُمْ﴾	مكثتم في دنياكم – أو في قبوركم.

إبطال دعوى أهل الشرك أن الملائكة إناث

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم-: أفاختصكم ربكم ﷻ بأن جعل لكم البنين وميَّزكم بهذا، واتخذ لنفسه الملائكة الذين هم إناث، إنكم لتقولون قولًا عظيمًا في فحشه وضلاله وزيغه وانحرافه.

وبإيضاح آخر أقول – وبالله التوفيق-: إن أهل الشرك كانوا يميزون ويفضلون الذكور على الإناث وكان منهم من يدعي أن الملائكة إناث ويدعي أيضًا أنها بنات الله.

فافترى من وجوه:

الوجه الأول: دعواه أن الله ﷻ وُلد له.

والوجه الثاني: دعواه أن الملائكة إناث.

الوجه الثالث: اختيارهم البنين لأنفسهم وترك البنات لله.

فإذا كنتم يا أهل الشرك تقولون إن البنين أفضل من البنات، وأن خالق البنين والبنات هو الله، فكيف يختار لنفسه الأدنى الأقل، وهو الخلَّاق سبحانه وتعالى، إنكم بما قلتموه وما اعتقدتموه وما افتريتموه قلتم قولًا عظيمًا في فحشه ونكارته.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للذين قالوا من مشركي العرب: الملائكة بنات الله ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أيها الناس ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ يقول: أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدونهن،

وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين الذين قالوا من الفرية على الله ما ذكرنا: إنكم أيها الناس لتقولون بقيلكم: الملائكة بنات الله، قولًا عظيمًا، وتفترون على الله فرية منكم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى رادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين -عليهم لعائن الله -أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيمًا، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أي: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: في زعمكم لله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذًا قسمة ضيزى. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل واتخذ لنفسه من الملائكة إناثًا حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ فيه أعظم الجرأة على الله حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته واستغناء بعض المخلوقات عنه وحكمتم له بأردأ القسمين، وهن الإناث وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

الهمزة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ للإنكار، ومعنى الآية: أفخصكم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذ لنفسه أدونهم وهي البنات! وهذا خلاف المعقول والعادة، فإن السادة لا يؤثرون عبيدهم بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويتخذون لأنفسهم أردأها وأدونها، فلو كان جل وعلا متخذًا ولدًا - سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - لاتخذ أجود النصيبين ولم يتخذ أردأهما، ولم يصطفكم دون نفسه بأفضلهما.

وهذا الإنكار متوجه على الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، فقد جعلوا له الأولاد! ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث، وهم لا يرضونها لأنفسهم.

وقد بين الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة ؛ كقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا، وقد بينا ذلك بإيضاح في «سورة النحل»، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بين فيه أن ادعاء الأولاد لله - سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - أمر عظيم جدًّا، وقد بين شدة عظمه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، فالمشركون - قبحهم الله -

جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم ؛ فاقترفوا الجريمة العظمى في المقامات الثلاث.



تصريف الآيات ومعناه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولقد نوَّعنا في هذا القرآن من الآيات، فمنها آيات مخوِّفة تخوِّف من النار وتحذر منها وآيات مُبشرة تبشر المطيعين.

وآيات فيها قصص وعبر وأخبار تذكر بمصير العصاة والطغاة، وآيات ترق لها القلوب، وآيات دالة على قدرة الله ووحدانيته إلى غير ذلك من صور التنويع والتكرير، كل هذا ليتعظوا ويعتبروا، ولكن كل هذا التصريف والتنويع لا يزيد أهل الكفر إلا طغيانًا وانصرافًا وإعراضًا عن الحق ونفورًا عنه وابتعادًا.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ لهؤلاء المشركين المفترين على الله ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ العِبَر والآيات والحجج، وضربنا لهم فيه الأمثال، وحذّرناهم فيه وأنذرناهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يقول: ليتذكروا تلك الحجج عليهم، فيعقلوا خطأ ما هم عليه مقيمون، ويعتبروا بالعبر، فيتعظوا بها، وينيبوا من جهالتهم، فما يعتبرون بها، ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنُّذُر، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تذكيرنا إياهم ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ يقول: إلا ذهابًا عن الحقّ، وبُعدًا منه وهربًا. والنفور في هذا الموضع مصدر من قولهم: نفر فلان من هذا الأمر ينفِر منه نَفْرًا ونفورًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد

لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ أي: عن الحق، وبعدًا منه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بينا. وقيل كررنا. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرفنا في هذا القرآن، مثل: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ ليذكروا ويعتبروا ويتعظوا. وقراءة العامة ﴿صَرَّفْنَا﴾.

بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف. وقوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ معنيان، أحدهما لم يجعله نوعًا واحدًا بل وعدًا ووعيدًا ومحكمًا ومتشابهًا ونهيًا وأمرًا وناسخًا ومنسوخًا وأخبارًا وأمثالًا، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال، وصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما، نحو قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ومعناه: أكثرنا صرف جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليك.

ثم قال:

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التصريف والتذكير. ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ أي: تباعدًا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار، وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر.

إبطال دعوى من ادّعى أن الله له شريك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: قل يا رسول الله محتجًّا على هؤلاء المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، قل لو كان مع الله ﷻ آلهة أخرى خلقت كخلقه، وترزق كرزقه، وتستحق العبادة كما يستحقها، كما يفتري هؤلاء المشركون، قل لو كانت هناك آلهة أخرى لطلبت إلى ذي العرش الذي هو الله تبارك وتعالى طريقًا.

وفي قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ قولان:

أحدهما: ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ﴾ طريقًا لمحاربته ولإقالته عن حكمه وملكه كما يصنع ملوك الدنيا مع بعضهم، فإنهم يتصارعون ويتقاتلون حتى تكون الكلمة العليا لواحدٍ منهم.

الثاني: أن قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: طريقًا يقربهم إليه، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

أما قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ فمعناه: تنزَّه ربنا ﷻ وتعالى عما يقوله أهل الشرك وعما يدَّعونه من أن الله ﷻ له ولد.

وعما يدَّعونه من أن له شريك في الملك، وعما يدَّعونه من أن معه آلهة أُخرى، بل السموات السبع والأرض ومن فيهن كلٌّ يسبح بحمده وينزهه عن الشريك والمثيل والندِّ والصاحبة والولد، كل يقول سبحانك اللهم وبحمدك، ولكنكم لا تفهمون تسبيحهم لكونكم لا تدركون لغتهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ فهو لا يعاجل خلقه بالعقوبة مع استحقاقهم لها ﴿غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ كثير المغفرة لهم، وكثيرًا ما يستر على ذنوبهم ولا يعاجلهم بعقوبتها.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر: لو كان الأمر كما تقولون: من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون، إذن لابتغت تلك الآلهة القُربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزُّلْفة إليه، والمرتبة منه.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ يقول: لو كان معه آلهة إذن لعرفوا فضله ومرتبته ومنزلته عليهم، فابتغوا ما يقرّبهم إليه.

وهذا تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه عما وصفه به المشركون، الجاعلون معه آلهة غيره، المضيفون إليه البنات، فقال: تنزيهًا لله وعلوًّا له عما تقولون أيها القوم، من الفرية والكذب، فإن ما تضيفون إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة.

وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ يقول:

تنزه الله أيها المشركون عما وصفتموه به إعظامًا له وإجلالًا، السماوات السبع والأرض، ومن فيهنّ من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجنّ، وأنتم مع إنعامه عليكم، وجميل أياديه عندكم، تفترون عليه بما تَفْتَرون.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ يقول جلّ ثناؤه:

وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده.

(٥٤٩) أحمر
أسود

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ يقول تعالى ذكره: ولكن لا تفقهون تسبيح ما عدا تسبيح من كان يسبح بمثل ألسنتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ يقول: إن الله كان حليمًا لا يعجل على خلقه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجل هؤلاء المشركين الذين يدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبة ﴿غَفُورٗا ٤٤﴾ يقول: ساترًا عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفو منه لهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه -لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ أي: تعاليًا كبيرًا، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

ويقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا

﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩٠-٩١].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: «كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤكل»[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢] الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤١-٤٥].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا

---

(١) البخاري (٣٥٧٩).

يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟.

فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يدعون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرًا ذاتيًا لا ينفك عن أحد منهم في

وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم الذي إليه يتقربون وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولًا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته لسقطت السماوات على الأرض ولما ترك على ظهرها من دابة.

وأورد ابن الجوزي في زاد المسير القولين في

قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾.

أحدهما: لابتغوا سبيلًا إلى ممانعته وإزالة ملكه.

والثاني: لابتغوا سبيلًا إلى رضاه، لأنهم دونه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾.

قرأ جمهور القراء (**كما تقولون**) بتاء الخطاب. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بياء الغيبة. وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق ويشهد له قرآن. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب

المبارك: أن الآية قد يكون فيها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن، فنذكر الجميع لأنه كله حق.

الأول من الوجهين المذكورين: أن معنى الآية الكريمة: لو كان مع الله آلهة أخرى كما يزعم الكفار لابتغوا (أي: الآلهة المزعومة) أي لطلبوا إلى ذي العرش (أي: إلى الله) سبيلا ؛ أي: إلى مغالبته وإزالة ملكه، لأنهم إذا يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض. سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة، ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وهذا المعنى في الآية مروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور، وغيره من المتكلمين.

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة: أن المعنى لابتغوا إلى ذي العرش سبيلًا أي: طريقًا ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية، ويروى هذا القول عن قتادة، واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره.

ولا شك أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول ؛ لأن في الآية فرض المحال، والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع الله مشاركة له، لا يظهر معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود، والعلم عند الله تعالى.

تسبيح الجمادات وسائر المخلوقات

س: هل الجمادات تسبح؟ وهل الدواب تسبح؟

ج: نعم كل ذلك يسبح:

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

هذا وستأتي هذه المسألة باستفاضة بأدلتها إن شاء الله.

وذهب بعض العلماء إلى أن الذي يسبح هو ما فيه الروح فقط.

لكن عموم الآية يشهد للقول بأن الجميع يسبح.

وكذا الأدلة الأخرى الدالة على أن الجبال تسبح.

وسيأتي إن شاء الله أن الطعام كان يسمع تسبيحه على عهد رسول الله ﷺ.

وصح عند الطبري عن إبراهيم النخعي أنه قال: الطعام يُسبح والله أعلم.



المراد بالحجاب المستور

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين أهل الكفر

المكذبين بالبعث ساترًا لا يُرى.

ولأهل العلم في تفسير هذا الساتر أقوال:

أحدها: أنه ساتر حاجز على الحقيقة ولكنه لا يُرى.

الثاني: أنه مانعٌ يمنعهم من الفهم.

الثالث: أنه الأكنة التي جعلها الله على القلوب حتى لا يصل إليها شيءٌ من الخير والفهم.

أما القول الثالث: فأراه ضعيفًا هاهنا؛ وذلك لأن الله تبارك وتعالى، ذكر الأكِنَّة بعد ذلك إذ قال: وجعلنا على قلوبهم أكنةً، وهي جمع كنانة وهي الذي يغشى القلب ويغطيه ويحيط به.

فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي: أغشية جمع غشاء، وأغطية: جمع غطاء كي لا يفهموا القرآن ولا يدركوا معانيه، وكذا جعلنا في آذانهم وقرًا، أي: ثقلًا وصممًا، كي لا يصل إلى أسماعهم شيءٌ ينتفعون به.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: وإذا دعوت إلى عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وأخبرت القوم بما أنزل الله عليك في القرآن من أنه ﷻ إلهٌ واحدٌ لا شريك له، إذا بأهل الكفر ينصرفون عنك وينفضون عنك نافرين معرضين مستكبرين على الحق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، وكما قال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث، ولا يقرّون بالثواب والعقاب، جعلنا بينك وبينهم حجابًا،

يحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبة منا لهم على كفرهم. والحجاب ههنا: هو الساتر.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكان بعض نحويي أهل البصرة يقول: معنى قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ حِجابا ساترا، ولكنه أخرج وهو فاعل في لفظ المفعول، كما يقال: إنك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن، لأنه من شأمهم ويمنهم. قال: والحجاب ههنا: هو الساتر، وقال: مستورًا. وكان غيره من أهل العربية يقول: معنى ذلك: حجابًا مستورًا عن العباد فلا يرونه.

وهذا القول الثاني أظهر بمعنى الكلام أن يكون المستور هو الحجاب، فيكون معناه: أن لله سترًا عن أبصار الناس فلا تدركه أبصارهم، وإن كان للقول الأوّل وجه مفهوم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة عند قراءتك عليهم القرآن أكنة، وهي جمع كِنان، وذلك ما يتغشّاها من خِذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلى عليهم ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ يقول: وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماعه، وصممًا، والوَقر بالفتح في الأذن: الثقل. والوِقر بالكسر: الحِمْل. وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفورًا من قولك استكبارًا له واستعظامًا من أن يوحِّد الله تعالى.

(٥٥٧) أحمر
أسود

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ﴾ وإن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم، فصافها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نُصِر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ويسير الدهر في فِئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ قال: بغضًا لما تكلم به لئلا يسمعوه، كما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يأمرهم به من الاستغفار والتوبة، ويَستغشُون ثيابهم، قال: يلتفون بثيابهم، ويجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ولا يُنظر إليهم.

وقال آخرون: إنما عُنِي بقوله: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ الشياطين، وإنها تهرب من قراءة القرآن، وذكر الله.

والقول الذي قلنا في ذلك أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ فأن يكون ذلك خبرًا عنهم أولى إذا كان بخبرهم متصلًا من أن يكون خبرًا عمن لم يجز له ذكر. وأما النفور، فإنها جمع نافر، كما القعود جمع قاعد، والجلوس جمع جالس؛ وجائز أن يكون مصدرًا أخرج من غير لفظه، إذ كان قوله: ﴿وَلَّوْاْ﴾ بمعنى: نفروا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشئوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يمنهم وشأمهم.

وقيل: مستورا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كنان»، الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به.

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَّوْا﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير:

الأول: أن المعنى: وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا؛ أي حائلًا وساترًا يمنعهم من تفهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به، وعلى هذا القول فالحجاب المستور هو ما حجب الله به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه، والآيات الشاهدة لهذا المعنى كثيرة؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات، وممن قال بهذا القول في معنى الآية: قتادة والزجاج وغيرهما.

الوجه الثاني في الآية: أن المراد بالحجاب المستور أن الله يستره عن أعين الكفار فلا يرونه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال: «لا إله إلا الله» ولى الكافرون على أدبارهم نفورًا، بغضًا منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به جل وعلا.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، مبينا أن نفورهم من ذكره وحده جل وعلا سبب خلودهم في النار، كقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

وقوله في هذه الآية: ﴿نُفُورًا﴾ جمع نافر؛ فهو حال. أي: ولوا على أدبارهم في حال كونهم نافرين من ذكر الله وحده من دون إشراك، والفاعل يجمع على فعول كساجد وسجود، وراكع وركوع.

وقال بعض العلماء: ﴿نُفُورًا﴾ مصدر، وعليه فهو ما ناب عن المطلق من قوله: ولوا؛ لأن التولية عن ذكره وحده بمعنى النفور منه.



س: في قولـه تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ...﴾ ردٌّ علـى القدريـة، وضحه؟

ج: إيضاحه أن الله ﷻ حجب عنهم الفهم ومنعهم الاستفادة من القرآن، ومن ثَمَّ حرمهم الإيمان.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن الشر لا يقع بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد ؛ سبحان الله وتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته؟ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣] الآية، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: نحن أعلم بالطريقة التي يستمعون بها إليك، فإنهم يستمعون إليك وهم يسخرون منك، ومن كلامك ويستهزئون بك وبكلامك، ويكذبونك فيما جئتهم به فإنك تتكلم وتخبرهم بالوحي، وهم يتحدثون سرًّا فيما بينهم، فيما بين قائلٍ إنه ساحر وما بين قائل إنه كاهن، وما بين قائل إنه شاعر إلى غير ذلك من الأقوال، وإن كان قول أكثرهم أنه مسحور، فقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ حاصل معناه: نحن أعلم بهم إذا يقول أهل الكفر لأهل الإيمان إن الذي تتبعونه رجل مسحور، أي: رجل سُحر وصرف عن الحقيقة إلى الخيال، وأصبح يأتيه رئيٌ من الجن فيغير له الحقائق ويقلب عليه الأمور والأحوال.

هذا، ومن أهل العلم من قال مسحورًا أي: له سحر أي رئةٌ قال: فالعرب يطلقون على الرئة سحر، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: توفي رسول الله ﷺ، ورأسه بين سحري ونحري(١). أي: بين رئتي ورقبتي.

وقال بعضهم أيضًا: إن من معاني المسحور الذي يأكل ويشرب. والقول الأول أولى والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: نحن أعلم يا محمد بما يستمع به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومك، إذ يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب الله ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾. وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: النجوى: فعلهم، فجعلهم هم النجوى، كما يقول: هم قوم رضا، وإنما رضا: فعلهم. وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ يقول: حين يقول المشركون بالله ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا. وعنى فيما ذُكِر بالنجوى: الذين تشاوروا في أمر رسول الله ﷺ في دار النَّدوة.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾...﴾ الآية، ونجواهم أن زعموا أنه مجنون، وأنه ساحر، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم قال الطبري:

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يذهب بقوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ إلى معنى: ما تتبعون إلا رجلًا له سَحْر: أي له رئة، والعرب تسمي الرئة سَحْرا، والمسحَّر من قولهم للرجل إذا جبن: قد انتفخ سَحْره،

(١) البخاري (١٣٩٨)، ومسلم (٢١٩٢).

وكذلك يقال لكل ما أكَلَ أو شرب من آدميّ وغيره: مَسحور ومُسَحَّر، كما قال لبيد:

فإنْ تَسْأَلِينَا فِيم نَحْنُ فإنَّنا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّر

وقال آخرون:

ونُسَحَر بالطعام وبالشراب

أي: نغذّى بهما، فكأن معناه عنده كان: إن تتبعون إلا رجلًا له رئة، يأكل الطعام، ويشرب الشراب، لا مَلَكا لا حاجة به إلى الطعام والشراب، والذي قال من ذلك غير بعيد من الصواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى نبيه -صلوات الله وسلامه عليه -بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرًّا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرئة، أي: إن تتبعون -إن اتبعتم محمدًا - ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ يأكل ويشرب، كما قال الشاعر:

فإنْ تَسْأَلِينَا فِيم نَحْنُ فإنَّنا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّر

وقال الراجز:

ونُسَحَر بالطعام وبالشراب

أي: نغذى: وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا هاهنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء: ٤٨] أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصًا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئًا ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم وقد بنوها على أنه مسحور فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي لا يدري ما يقول.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: انظر يا رسول الله كيف وصفوك وشبهوك، فتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: مسحور، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، إلى غير ذلك من الأقوال والتشبيهات، انظر كيف فعلوا ذلك فانصرفوا عن طريق الحق والصواب. وحادوا عن طريق الإيمان والإسلام والهداية فلم يعودوا مستطيعين سلوك سبيل الحق والهداية والاهتداء إليه، بل أخطؤوا هذا الطريق وضلوا عنه وحادوا.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ معناه: فلا يستطيعون صرف الناس عن الحق الذي جئتهم به.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: انظر يا محمد بعين قلبك فاعتبر كيف مثّلوا لك الأمثال،

وشبهوا لك الأشباه، بقولهم: هو مسحور، وهو شاعر، وهو مجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ يقول: فجاروا عن قصد السبيل بقيلهم ما قالوا: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ يقول: فلا يهتدون لطريق الحقّ لضلالهم عنه وبُعدهم منه، وأن الله قد خذلهم عن إصابته، فهم لا يقدرون على المَخْرَج مما هم فيه من كفرهم بتوفُّقهم إلى الإيمان به.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عجبه من صنعهم كيف يقولون تارة ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر. ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: حيلة في صد الناس عنك. وقيل: ضلوا عن الحق فلا يجدون سبيلًا، أي إلى الهدى. وقيل: مخرجًا، لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر.



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال أهل الكفر: أئذا متنا، وتحولنا إلى عظامٍ بعد أن أُكلت لحومنا وبليت وأصبحنا عظامًا بلا لحم، ثم أصبحت العظام رُفاتًا أي: عظامًا متفتتة أو ترابًا، أنبعث أحياء بعد الممات، ونعود خلقًا جديدًا كما كنا أول مرةٍ في دنيانا، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المنكرين للبعث المتعجبين من كونهم سيعودون أحياء، قل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا، أي: حتى لو لم تكونوا عظامًا بل كنتم من حجارةٍ أو من حديد، فسيعديكم الله أيضًا، أو كونوا على أي خلقٍ كنتم، فسيعيدكم الله أيضًا، كونوا خلقًا مما يعظم

في صدوركم أمره فستبعثون أحياء على أية حال كنتم، كونوا موتى فسيبعثكم الله أيضًا بل كونوا الموت نفسه فسيبعثكم الله أيضًا، كونوا السموات والأرض فسيبعثكم الله أيضًا، كونوا على أي خلق عظيم في صدوركم، وبعيدٌ عليكم أن يبعث، فسيبعثكم الله أيضًا، ويعيدكم أحياءً فسيقولون من إذن الذي سيعيدنا أحياء قل الذي سيعديكم أحياء هو الذي خلقكم أول مرة على غير مثال سابق، فسيقولون متى هو؟ متى هذا الخلق الجديد؟!!

متى البعث؟!! فسيحركون إليك رؤوسهم استهزاءً بك وسخريةً منك، ويقولون: متى هو؟ قل لهم عسى أن يكون قريبًا، فالعلم بذلك موكولٌ إلى الله ﷻ، وكونه قريب بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، فقد مضى من الدنيا أكثر ولم يبق منها بعد بعثة النبي ﷺ إلا القليل.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش، وقالوا بعنتهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ لم نتحطم ولم نتكسَّر بعد مماتنا وبلانا ﴿وَرُفَٰتًا﴾ يعني: ترابا في قبورنا.

وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ قالوا، إنكارًا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظامًا غير منحطمة، ورفاتًا منحطمة، وقد بَلِينا فصرنا فيها ترابًا، خلقًا مُنْشَأً كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم جلّ جلاله يعرّفهم قُدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بِلاهم خلقًا جديدًا، على أيّ حال كانوا من الأحوال، عظامًا أو رُفاتًا، أو حجارة أو حديدًا، أو غير ذلك مما يعظُم عندهم أن يحدث مثله خَلْقًا أمثالَهم أحياء، قل يا محمد كونوا حجارة أو حديدًا، أو خلقًا مما يكبر في صدوركم.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للمكذّبين بالبعث بعد الممات من قومك القائلين ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ كونوا إن عجبتم من إنشاء الله إياكم، وإعادته أجسامكم، خلقًا جديدًا بعد بِلاكم في التراب، ومصيركم رُفاتا، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديدًا، أو خلقًا مما يكبر في صدوركم إن قدرتم على ذلك، فإني أحييكم وأبعثكم خلقًا جديدًا بعد مصيركم كذلك كما بدأتكم أوّل مرّة.

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ فقال بعضهم: عُنِي به الموت، وأريد به: أو كونوا الموت، فإنكم إن كنتموه أمتُّكم ثم بعثتكم بعد ذلك يوم البعث.

وأورد الطبري عدة آثار في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ وأن المراد بذلك الموت، أي: لو كنتم موتى لأحييتكم.

وصح السند بهذا عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الطبري:

وقال آخرون: عنى بذلك السماء والأرض والجبال.

وقال آخرون: بل أُريد بذلك: كونوا ما شئتم.

وأورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة: ﴿۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ قال: من خلق الله، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم يوم القيامة خلقًا جديدًا.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره قال: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾، وجائز أن يكون عنى به الموت، لأنه عظيم في صدور بني آدم؛ وجائز أن يكون أراد به السماء والأرض؛ وجائز أن يكون أراد به غير

ذلك، ولا بيان في ذلك أبين مما بين جلّ ثناؤه، وهو كلّ ما كبر في صدور بني آدم من خلقه، لأنه لم يخصص منه شيئا دون شيء.

وأما قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ فإنه يقول: فسيقول لك يا محمد هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ خلقًا جديدًا، إن كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدورنا، فقل لهم: يعيدكم ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقول: يعيدكم كما كنتم قبل أن تصيروا حجارة أو حديدا إنسًا أحياء، الذي خلقكم إنسًا من غير شيء أوّل مرّة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: خلقكم ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يقول: فإنك إذا قلت لهم ذلك، فسيهزّون إليك رءوسهم برفع وخفض.

قال الطبري:

وكذلك النَّغْض في كلام العرب، إنما هو حركة بارتفاع ثم انخفاض، أو انخفاض ثم ارتفاع، ولذلك سمي الظليم نَغْضا، لأنه إذا عجل المشي ارتفع وانخفض، وحرّك رأسه، كما قال الشاعر.

أسكّ نغضًا لا يَنِي مُسْتَهْدِجا

ويقال: نَغَضَت سنه: إذا تحرّكت وارتفعت من أصلها؛ ومنه قول الراجز:

ونَغَضَتْ مِنْ هَرِمٍ أسْنانُها

وقول الآخر:

لمَّا رأتْنِي أنْغَضَتْ لِيَ الرأسا

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرّكون رءوسهم تكذيبا واستهزاء.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ويقولون متى البعث، وفي أيّ حال ووقت يعيدنا خلقا جديدا، كما كنا أوّل مرّة، قال الله ﷻ لنبيه: قل لهم يا محمد إذ قالوا لك: متى هو، متى هذا البعث الذي تعدنا، عسى أن يكون قريبا؟ وإنما معناه: هو قريب، لأن عسى من الله واجب، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةُ كَهاتَيْن، وأشار بالسَّبابة والوُسطَى**»، لأن الله تعالى كان قد أعلمه أنه قريب مجيب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: ترابا. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غبارا. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بلينا وصرنا عدمًا لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ وهما أشد امتناعًا من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

وأورد ابن كثير نحوًا مما تقدم في الآية وقال:

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها

استهزاء.

وهذا الذي قالاه هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم -وهو ولد النعامة-: نغضًا؛ لأنه إذا مشى عجل في مشيته وحرك رأسه. ويقال: نغضت سنه إذا تحركت وارتفعت من منبتها؛ قال: الراجز.

ونغضت من هرم أسنانها

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: قالوا وهم يتناجون لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحورًا مخدوعًا، لما قال هذا. قال

ابن عباس: الرفات الغبار. مجاهد: التراب. والرفات ما تكسر وبلي من كل شيء، كالفتات والحطام والرضاض، عن أبي عبيدة والكسائي والفراء والأخفش. تقول منه: رفت الشيء رفتًا، أي حطم، فهو مرفوت. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿أَءِنَّا﴾ استفهام والمراد به الجحد والإنكار. و﴿خَلْقًا﴾ نصب لأنه مصدر، أي: بعثًا جديدًا. وكان هذا غاية الإنكار منهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ أي: يعظم ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز. ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

ج: المعنى عسى أن يكون بعثكم قريبًا، يوم يدعوكم للخروج من قبوركم،

وذلك بالنفخ في الصور النفخة الثانية فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: فتخرجون مجيبين مطيعين سامعين كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ فهو المحمود على كل حال، أي: فخروجكم من قبوركم بحمد الله، كما نقول: أنا بحمد الله صنعت كذا وكذا، وكذلك فخروج الناس من قبورهم لمجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بما قدم، كل ذلك يحمد عليه ربنا ﷻ، وقيل: إن معنى بحمده، أي: بأمره، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ أي: وتحسبون يوم القيامة أنكم ما مكثتم في دنياكم إلا زمنًا قليلًا، أو تحسبون يوم القيامة أنكم ما مكثتم في قبوركم إلا قليلًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل عسى أن يكون بعثكم أيها المشركون قريبًا، ذلك يوم يدعوكم ربكم بالخروج من قبوركم إلى موقف القيامة، فتستجيبون بحمده.

اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فقال بعضهم: فتستجيبون بأمره.

وقال آخرون: معنى ذلك: فتستجيبون بمعرفته وطاعته.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بمعرفته وطاعته.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معناه: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته، ودعائه إياكم، ولله الحمد في كلّ حال، كما يقول القائل: فعلت ذلك الفعل بحمد الله، يعني: لله الحمد على كلّ ما فعلته، وكما قال الشاعر:

(٥٧٢) أحمر
أسود

فإنّي بِحَمْدِ الله لا ثَوْبَ فاجِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

بمعنى: فإني والحمد لله لا ثوب فاجر لبست.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ يقول: وتحسبون عند موافاتكم القيامة من هول ما تعاينون فيها ما لبثتم في الأرض إلا قليلا كما قال جلّ ثناؤه ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾: أي في الدنيا، تحاقرت الدنيا في أنفسهم وقلّت، حين عاينوا يوم القيامة.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء.

وقال أبو سهل: أي: والحمد لله، كما قال:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست، ولا من غدرة أتقنع

وقيل: حامدين تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم. وقال ابن عباس: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بأمره، أي: تقرون بأنه خالقكم. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقيل: المعنى بقدرته. وقيل: بدعائه إياكم. قال علماؤنا: وهو الصحيح، فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور، بالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويختم به، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال في آخر: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ -١١٤].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.



(٥٧٤) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟
ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا
نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى
ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا
ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا
﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا
فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا
كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

[الإسراء: ٥٣-٦٠]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ - يَنزَغُ - وَكِيلًا - زَبُورًا - تَحْوِيلًا - يَدْعُونَ - يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ - مَحْذُورًا - مَسْطُورًا - نُرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ - مُبْصِرَةً - فَظَلَمُوا۟ بِهَا - أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ - ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ - وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ - طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	التي هي أفضل وأطيب، وأجمل العبارات، وألينها وأحبها إلى النفوس.
﴿يَنزَغُ﴾	يُفسد – يُوقع.
﴿وَكِيلًا﴾	رقيبًا – موكلًا بتوفيقهم.
﴿زَبُورًا﴾	هو الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السلام.
﴿تَحْوِيلًا﴾	تحويلًا للشر من شخص إلى آخر تحويلًا للمرض إلى الصحة والعكس.
﴿يَدْعُونَ﴾	يعبدون – يسألون.
﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾	يطلبون التقرب إلى الله بصالح الأعمال.
﴿مَحْذُورًا﴾	مُتجنبًا – ينبغي أن يُحذر ويبتعد عنه فإنه عذاب شديد.
﴿مَسْطُورًا﴾	مكتوبًا.
﴿نُرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ﴾	نأتي بالمعجزات نؤيد بها الرسل.
﴿مُبْصِرَةً﴾	بينة – نيرة واضحة مضيئة.

(٥٧٦) أحمر
أسود

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾	فظلموا أنفسهم بسبب عقرهم لها.
﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾	علم أمورهم – مقتدر عليهم – عصمك من الناس فلا يستطيعون إلحاق الأذى بك.
﴿ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾	رحلة الإسراء والمعراج.
﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾	الشجرة المذمومة الملعونة آكلها وهي شجرة الزقوم.
﴿طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾	تماديًا في الكفر والتكذيب وازديادًا منه، ازديادًا كبيرًا.



الحث على الكلم الطيب والتعامل الحسن

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وقل يا رسول الله لعبادي المؤمنين يقولوا إذا تخاطب بعضهم مع بعض، أو إذا نقل بعضهم قولًا عن بعض، يقولوا الكلمة التي هي أحسن الكلمات وأطيب الكلمات ويختاروا العبارة التي هي أجمل العبارات، ذلك لأن الشيطان يوقع بينهم ويفسد بينهم، إذا هم تكلموا بكلمة سيئة فإنه يهيجهم على فعل الشر وقول السوء ويزين لهم الانتقام والرد الفاحش، إن الشيطان كان ولا يزال للإنسان عدوًّا ظاهر العداوة مُضلًا ظاهر الإضلال.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضا ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ يقول: إن الشيطان كان لآدم وذرّيته عدوًّا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة

والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها.

وأورد ما أخرجه[1] البخاري ومسلم وأحمد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزَعَ فِي يَدِهِ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنْ نَارٍ**».

قال السعدي رحمه الله:

وهذا من لطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه فإنه يدعوهم ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وأما إخوانهم فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة فإن الحزم

(١) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

كل الحزم والسعي في ضد عدوهم وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرهم ويهدون لرشدهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ربكم يا بني آدم أعلم بكم، وأعلم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية إن يشأ يوفقكم للتوبة ويتوب عليكم ويوفقكم للهداية فتؤمنوا، فيرحمكم بذلك، أو إن يشأ يُتبعكم على الكفر والضلال والعصيان، فتبقوا على الكفر والضلال والعصيان فتستوجبوا لأنفسكم العذاب بذلك.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ لست بموكَّلٍ بتوفيقهم ولا أنت رقيب عليهم.

وربك ﷻ أعلم بكل من في السموات والأرض، لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، وأعلم بما هم عليه من الطاعة أو العصيان أو الفقر أو الغنى أو الإيمان أو الكفر أعلم بكل شيء عنهم، أعلم بهم من غيره، ولقد فضَّل ربنا تبارك وتعالى بعض النبيين على بعض فمنهم من اتخذه خليلًا كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من سماه عبدًا شكورًا كنوحٍ عليه السلام، ومنهم من كلمه تكليمًا كموسى عليه السلام، ومنهم من خلقه من غير أبٍ وأحيا الموتى على يديه كعيسى عليه السلام، ومنهم من أتاه الوسيلة والفضيلة، وجعله سيدًا لولد آدم وهو محمد ﷺ.

ومنهم من رفعه الله مكانًا عليًّا كإدريس عليه السلام، ومنهم من ألان له الحديد وسخر الطير معه والجبال يُسبحن كداود عليه السلام، ومنهم من سخر له الريح

والشياطين كسليمان عليه السلام، ومنهم من آتاه الزبور كداود عليه السلام، والزبور هو الكتاب المنزل عليه عليه السلام. إلى غير ذلك من صور التفضيل، وقد تقدم مزيدٌ من القول في ذلك في تفسير سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾، ﴿ رَّبُّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيتوب عليكم برحمته، حتى تنيبوا عما أنتم عليه من الكفر به وباليوم الآخر ﴿إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذّبكم يوم القيامة بكفركم به.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد على من أرسلناك إليه لتدعوه إلى طاعتنا ربا ولا رقيبا، إنما أرسلناك إليهم لتبلغهم رسالاتنا، وبأيدينا صرفهم وتدبيرهم، فإن شئنا رحمناهم، وإن شئنا عذّبناهم.

ويقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وربك يا محمد أعلم بمن في السماوات والأرض وما يصلحهم فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلم بمن هو أهل للتوبة والرحمة، ومن هو أهل للعذاب، أهدى للحقّ من سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضلّ من سبق له مني الشقاء والخذلان، يقول: فلا يكبرنّ ذلك عليك، فإن ذلك من فعلي بهم لتفضيلي بعض النبيين على بعض، بإرسال بعضهم إلى بعض الخلق، وبعضهم إلى الجميع، ورفعي بعضهم على بعض درجات.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلَّم موسى تكليما، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله، من كلمة الله وروحه، وآتى سليمان مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورا، كنا نحدّث دعاء عُلِّمه داود، تحميد وتمجيد، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، كما قال: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاء**»[(١)]؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ

(١) البخاري (٢٤١٢، ٢٤١٣) وفي غير موطن بنحوه، ومسلم (٢٣٧٤، ١٦٧٢) وفي غير موطن.

﴿ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمدا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ ﴾ من أنفسكم فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم وقد تريدون شيئا والخير في عكسه.

﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ تدبر أمرهم وتقوم بمجازاتهم وإنما الله هو الوكيل وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ من جميع أصناف الخلائق فيعطي كلا منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم من الأوصاف الممدوحة والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبورا وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتبا فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ لأنه خالِقُهم، فهدى من

شاء، وأضلَّ من شاء، وكذلك فضَّل بعض النبيين على بعض، وذلك عن حكمة منه وعِلم، فخلق آدم بيده، ورفع إِدريس، وجعل الذرِّية لنوح، واتخذ ابراهيم خليلًا، وموسى كليمًا، وجعل عيسى روحًا، وأعطى سليمان مُلْكًا جسيمًا، ورفع محمدًا ﷺ فوق السموات، وغفر له ما تقدم من ذَنْبه وما تأخر. ويجوز أن يكون المفضَّلون أصحابَ الكتب، لأنه ختم الكلام بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.



دفع إشكال

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وقول الرسول ﷺ: «لَا تُخَيرونِي مِن بَين الأَنْبيَاءِ»؟

ج: الجمع من وجهين:

أحدهما: أن يكون النبي ﷺ قال ذلك تواضعًا.

الثاني: أن يكون النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يُعلمه الله ﷻ أنه سيد ولد آدم.

وثمَّ وجه ثالث حاصله: أن الأنبياء يشتركون في الفضل في أصل النبوة، وبعد ذلك يتأتى التفضل بالأعمال، كالشهداء مثلًا فهناك شهيدٌ كان أكثر طاعة من شهيد فيفضل عنه مع اشتراكهم في كونهم شهداء لكن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله. والله أعلم.



س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ...﴾؟

ج: أخرجه مسلم[(١)] عن أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ[(٢)]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) مسلم في شواهد حديث (٣٠٣٠).
(٢) هو ابن مسعود.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قَالَ: كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ وَاسْتَمْسَكَ الْإِنْسُ بِعِبَادَتِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

وأخرج مسلم من طريق عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود نحوه، ولكن الإشكال في رواية أبي معمر أن البخاري ومسلم أخرجاها كتفسير لابن مسعود للآية، ليس فيها سبب النزول ففي الصحيحين[1] عن عبد الله بن مسعود فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قَالَ: «كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْلَمُوا، وَكَانُوا يُعْبَدُونَ، فَبَقِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، وَقَدْ أَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

ج: المعنى ـ والله أعلم ـ: قل يا رسول الله لهؤلاء الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، قل لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم أولياؤلكم من دون الله، ورجوتموهم كما يُرجى الله ﷻ قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ادعوا من عبدتموهم من دون الله من أصنام وغيرها لكشف المكروه عنكم أو تحويله إلى غيركم فلن يجيبوكم بشيء فإنهم لا يملكون إزالة المكروه عنكم، ولا تحويله منكم إلى غيركم، لا يملكون تغيير أموالكم من مرضٍ إلى صحة ولا من صحة إلى مرض، ولا غير ذلك، فالقادر على ذلك هو الله ﷻ وحده لا شريك له.

(١) البخاري (٤٧١٤)، و(٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠) واللفظ له.

أما قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ فمعناه هذه المعبودات التي تدعونها من دون الله كالجن وغيرها قد آمنوا وأصبحوا مسلمين يبحثون على عمل يقربهم إلى الله ويتوصلون به إلى جنته ومرضاته فهلا كنتم مثلهم؟!!

فقوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي: يطلبون التقرب إلى الله بصالح العمل ويلتمسون الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى جنة الله ومرضاته.

فإذا كانت الجن التي تعبدونها قد أسلمت وتبحث عما يقرب من مرضاة الله فهلا كنتم مثلها.

فإنها ترجو رحمة الله وتخشى عذابه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ أي: كان ينبغي أن يُحذر ويخشى فإنه عذاب شديد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه، ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضرّ ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة، فإنهم لا يقدرون على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم. وقيل: إن الذين أمر النبيّ ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيرا والمسيح، وبعضهم كانوا يعبدون نفرا من الجنّ.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابا ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ يقول: يبتغي المدعوّون أربابا إلى ربهم القُربة والزُّلفة، لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرۡجُونَ﴾ بأفعالهم تلك ﴿رَحۡمَتَهُۥ

﴿وَيَخَافُونَ﴾ أمره ﴿عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ متقي.

وأورد سبب نزول الآية، وقد تقدم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

وأورد سبب نزول الآية، وقال:

وقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذا بالله منه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

و﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم. والهاء والميم في ﴿رَبِّهِمُ﴾ تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا. وأما ﴿يَدۡعُونَ﴾ فعلى العابدين. و﴿يَبۡتَغُونَ﴾ على المعبودين. ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ بدلا من الضمير في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله. ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ أي: مخوفا لا أمان لأحد منه، فينبغي أن يحذر منه ويخاف. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف زمانان على

الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المعبودين من دون الله الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم؛ أي إزالة المكروه عنهم، ولا تحويلا، أي تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الجدب، ونحو ذلك. ثم بين فيها أيضا أن المعبودين الذين عبدهم الكفار من دون الله يتقربون إلى الله بطاعته، ويبتغون الوسيلة إليه، أي الطريق إلى رضاه ونيل ما عنده من الثواب بطاعته فكان الواجب عليكم أن تكونوا مثلهم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد قدمنا «في سورة المائدة» أن المراد بالوسيلة في هذه الآية الكريمة «وفي آية المائدة»: هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح؛ ومنه قول لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى كل ذي لب إلى الله واسل

وقد قدمنا «في المائدة» أن التحقيق أن قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

من هذا المعنى، كما قدمنا أنها تجمع على وسائل، كقوله:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.



إهلاك القرى الظالمة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما من قرية إلا ونحن مهلكوا أهلها قبل يوم القيامة، فالقرية الصالح أهلها يهلكون بالموت، والقرية الظالم أهلها يهلكها الله ﷻ باستئصالها بعذابٍ شديد، هذا الذي ذكرناه مسطورٌ في اللوح المحفوظ ومكتوب. وقال بعض أهل العلم: وما من قرية ظالمة إلا والله ﷻ مهلكها بتدميرها في الدنيا أو بإنزال عذاب شديد على أهلها، كان ذلك في اللوح المحفوظ مكتوبًا.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء،

فمبيدوهم استئصالا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾، إما ببلاء من قتل بالسيف، أو غير ذلك من صنوف العذاب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقيه عن مجاهد، في قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فمبيدوها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ بالقتل والبلاء، قال: كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ، إما أن يهلكها بموت وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره، وكذّبوا رسله.

قال الطبري:

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ يعني: في الكتاب الذي كتب فيه كلّ ما هو كائن، وذلك اللوح المحفوظ.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ قال: في أمّ الكتاب، وقرأ ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾.

قال الطبري:

ويعني بقوله: ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبا مبينا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق: ٧، ٨].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ «إن» بمعنى «ما»، والقرية الصالحة هلاكها بالموت، والعاصية بالعذاب، والكتاب: اللوح المحفوظ، والمسطور: المكتوب.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قال بعض أهل العلم: في هذه الآية الكريمة حذف الصفة، أي: وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها. وهذا النعت المحذوف دلت عليه آيات من كتاب الله تعالى ؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣١]، أي بل لا بد أن تنذرهم الرسل فيكفروا بهم وبربهم، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٧، ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وغاية ما في هذا القول حذف النعت مع وجود أدلة تدل عليه، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، أي كل سفينة صالحة ؛ بدليل أن خرق الخضر للسفينة التي ركب فيها هو وموسى يريد به سلامتها من أخذ الملك لها ؛ لأنه لا يأخذ المعيبة التي فيها الخرق وإنما يأخذ الصحيحة، ومن حذف النعت قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]؛ أي بالحق الواضح الذي لا لبس معه في صفات البقرة المطلوبة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه،

فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.



س: وضح سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾.

ج: أخرج أحمد[1] وغيره من طريق جَرِير، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ إِيَاسٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ، أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ، فَيَزْرَعُون، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ: «لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾.



السبب في عدم إرسال بعض الآيات لمشركي قريش لما طلبوها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ أن نجيب المشركين إلى طلبهم لما طلبوا المعجزات وسألوها إلا أننا أتينا بالمعجزات لأمم تقدمت فكذبت هذه الأمم بتلك المعجزات وأنكرتها ووصفت الرسل بأنهم سحرة وكذبة ومجانين، وأن ما أتوا به سحرٌ وكهانةٌ ودجلٌ، ولقد آتينا قبيلة ثمود الناقة التي طلبوها من نبيهم صالح ؑ على الوجه الذي طلبوه واضحة بينة نيّرة فظلموا أنفسهم

(١) أحمد (١/ ٢٥٨).

بعقرهم لها وقتلها والتكذيب بها، فلذلك ما أرسلنا إليكم معجزة رحمة بكم فإننا إذا أرسلناها وكذبتم بها أخذناكم بالعذاب ولم نؤجلكم لتوبةٍ وإنابةٍ.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للعباد لإرجاعهم إلى الله ﷻ.

وقيل: إن المراد بالآيات العبر والعظات.

وقيل: المراد تقلب الأحوال من صغرٍ إلى شباب إلى كبرٍ إلى شيخوخة...

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ يا محمد ﴿أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي سألها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذّبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما آتاهم ما سألوا منه كذّبوا رسلهم، فلم يصدّقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنَّا لو أرسلنا بها إليها، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها.

وأورد سبب نزول الآية، وسيأتي إن شاء الله.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وقد سأل الآيات يا محمد مِن قَبْل قومك ثمود، فآتيناها ما سألت، وحملنا تلك الآية ناقة مبصرة، جعل الإبصار للناقة. كما تقول للشجة: موضحة، وهذه حجة مبينة.

وإنما عنى بالمبصرة: المضيئة البينة التي من يراها كانوا أهل بصر بها، أنها لله حجة، كما قيل: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ يقول ﷻ: فكان بها ظلمهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا

وجه لذلك إلا أن يقول قائله أراد: فكفروا بالله بقتلها، فيكون ذلك وجها.

وأما قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ فإنه يقول: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفا للعباد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: ١١٥] وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝٦٥﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وأورد ابن كثير(١) ما أخرجه أحمد بسندٍ صحيح عَنْ جَرِيرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ إِيَاسٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْنِيَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نُؤتِيهم الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أهلكتُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ: قَالَ: «**لَا بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ**». وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾.

(١) أحمد (١/ ٢٥٨).

وبسند صحيح عَنْ عِمْرَانَ[١] بْنِ الْحَكَمِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ. قَالَ: «وَتَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ الصَّفَا لَهُمْ ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَّبته عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ». فَقَالَ: «بَلْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ».

وأورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ ما أخرجه البخاري ومسلم[٢] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ، عز وجل، يُرْسِلُهُمَا يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ».

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية دالة مضيئة نيرة على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى. وقد تقدم ذلك. ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: ظلموا بتكذيبها. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ فيه خمسة أقوال:

الأول: العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين.

الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي.

الثالث: أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك، وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

---

(١) أحمد (١/ ٢٤٢).

(٢) البخاري (١٠٢٤)، ومسلم (٩٠١).

الرابع: القرآن.

الخامس: الموت الذريع، قاله الحسن.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفا من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى ثمود وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ومع ذلك كذبوا بها فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة ما دل على صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عن ما هم عليه.

وأورد ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ عدة أقوال في تفسير الآيات:

أحدها: أنها الموت الذريع.

الثاني: معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفًا للمكذبين.

الثالث: آيات الانتقام تخويفًا من المعاصي.

الرابع: تقلب أحوال الإنسان من صغرٍ إلى شباب، ثم إلى كهولة، ثم إلى

(٥٩٦) أحمر
أسود

مشيب ليعتبر بتقلب أحواله فيخاف عاقبة أمره.



البيان عن الشجرة الملعونة في القرآن

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وذكِّر قومك يا رسول الله بقولنا لك: إن ربك أحاط بالناس أحاط بهم علمًا لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم.

وأحاط بهم فهو عليهم قادر، وأحاط بهم عصمك منهم ومن شرهم فواصل دعوتك إلى الله، فربك يحفظك وربك يُعينك.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فالمراد بالرؤيا والله أعلم، ما أراه الله ﷻ نبيه ﷺ في رحلتي الإسراء والمعراج من المعجزات فكانت هذه الرحلة فتنة واختبارًا للناس، فأقوياء الإيمان قالوا إن الله على كل شيء قدير، أما أهل الشرك وضعفاء الإيمان فتعجبوا كيف يحدث هذا، وجهلوا أن الله على كل شيء قدير، فكان في هذه الرؤيا فتنة لهم.

وكذلك كان في الشجرة الملعونة في القرآن فتنة لهم، وذلك أن هذه الشجرة، وهي شجرة الزقوم قال الله عنها: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات: ٦٤] فقال أهل الكفر: كيف تنبت شجرة في وسط النار، والنار تأكل الأشجار فضلوا بذلك وازدادوا تكذيبًا، فمن ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات: ٦٣].

أما لماذا كانت هذه الشجرة ملعونة فللعلماء على ذلك أجوبة:

أحدها: أن آكلها ملعون، كما يُقال قرية ظالمة، أي: أن أهلها ظلمة.

الثاني: أنها ملعونة بمعنى مذمومة.

الثالث: أن ملعونة، أي: مُبعدة عن أهل الإيمان، أما قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: ونخوِّف أهل الشرك بالعذاب وبالنقم، وبالآيات المحذرة من النار، وبالتذكير بما يحيط بهم، فما يزيدهم هذا كله إلا ازديادًا في الكفر وتماديًا في الشر والتكذيب.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا حضّ من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ، على تبليغ رسالته، وإعلام منه أنه قد تقدّم منه إليه القول بأنه سيمنعه، من كلّ من بغاه سوءا وهلاكا، يقول جلّ ثناؤه: واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس قدرة، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيَّب منهم أحدا، وامض لما أمرناك به من تبليغ رسالتنا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الحسن قال: أحاط بالناس، عصمك من الناس.

وبسندٍ يُحسن بطريقيه، بل قد يصحح بطريقيه عن مجاهد قال: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ قال: فهم في قبضته.

وبإسنادٍ يصح عن قتادة بطريقين قال: منعك من الناس حتى تبلغ رسالة ربك.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هو رؤيا عين، وهي ما رأى النبيّ ﷺ لما أُسري به من مكة إلى بيت المقدس.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به.

قال الطبري:

وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة.

وقال آخرون ممن قال: هي رؤيا منام: إنما كان رسول الله ﷺ رأى في منامه قوما يعلون منبره.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أُسري به، وقد ذكرنا بعض ذلك في أوّل هذه السورة.

وإنما قُلنا ذلك أولى بالصواب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عنى الله ﷻ بها، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس، إلا فتنة للناس: يقول: إلا بلاء للناس الذين ارتدّوا عن الإسلام، لمَّا أُخبروا بالرؤيا التي رآها، عليه الصلاة والسلام وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا بسماعهم ذلك من رسول الله ﷺ تماديا في غيهم، وكفرا إلى كفرهم.

وأما قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيها، فقال بعضهم: هي شجرة الزَّقُّوم.

وأورد بسنده إلى ابن عباس قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قال: شجرة الزَّقُّوم.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾ يقول: ونخوّف هؤلاء المشركين بما نتوعدهم من العقوبات والنكال، فما يزيدهم تخويفنا إلا طغيانا كبيرا، يقول: إلا تماديا وغيا كبيرا في كفرهم وذلك أنهم لما خُوّفوا بالنار التي

طعامهم فيها الزقوم دعوا بالتمر والزبد، وقالوا: تزقموا من هذا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضًا له على إبلاغ رسالته، ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته.

ونقل عن عدد من العلماء في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ ﴾ أي: عصمتُك منهم.

وأورد في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما أخرجه الْبُخَارِيُّ[١]: مِن حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

وأورد ابن الجوزي (زاد المسير) أقوالًا: في تفسير الرؤيا المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾:

أحدها: أنها رؤيا عين وهي ما رأى ليلة أُسري به من العجائب والآيات.

الثاني: أنها رؤيا منام، **ثم فيها قولان:**

أحدهما: أنه ﷺ كان قد أُري أنه يدخل مكة وهو وأصحابه يومئذ بالمدينة فعجَّل قبل الأجل فرده المشركون، فقال أُناس قد رُدَّ، وكان حدثنا أنه سيدخلها فكان رجوعهم فتنتهم.

(١) البخاري (٤٧١٦).

(٦٠٠) أحمر
أسود

الثاني: أنه أُري بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فقيل له: إنها الدنيا يُعطونا فسرِّي عنه فالفتنة هاهنا البلاء.

وأورد في تفسير الملعونة ثلاثة أقوال:

أحدها: المذمومة.

الثاني: الملعونة أكلها.

الثالث: المُبعدة عن منازل أهل الفضل.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله جل وعلا جعل ما أراه نبيه ﷺ من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس؛ لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقا، قالوا: كيف يصلي ببيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال، فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن، وأنه جل وعلا جعل الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم فتنة للناس، لأنهم لما سمعوه ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات: ٦٤] الآية، قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟ فصار ذلك فتنة. وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٤] الآية وهو واضح كما ترى. وأشار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم، وهو قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ

ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٢-١٨]، وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة. وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن الرؤيا التي أراه الله إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية - لا يعول عليه؛ إذ لا أساس له من الصحة، والحديث الوارد بذلك ضعيف لا تقوم به حجة، وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيد من رحمة الله، واللعن: الإبعاد عن رحمة الله، أو لخبث صفاتها التي وصفت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها. والعلم عند الله تعالى.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ ﴾ علما وقدرة فليس لهم ملجأ يلجأون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾ أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ﴾ التي ذكرت ﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم وبعض من كان إيمانه ضعيفا رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب. فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريبا في قلوب بعض المؤمنين ومانعا يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفرا عنه.

بل ذكر الله ألفاظا عامة تتناول جميع ما يكون.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبته وبغض الخير وعدم الانقياد له.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ
خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ
عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا
يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ
لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ
ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧
أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ
وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ
ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾.

[الإسراء: ٦١-٦٩]

(٦٠٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا - أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا - كَرَّمْتَ عَلَيَّ - لَأَحْتَنِكَنَّ - مَّوْفُورًا - وَٱسْتَفْزِزْ - وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ - وَعِدْهُمْ - سُلْطَٰنٌ - وَكِيلًا - يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ - لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ - مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ - ضَلَّ مَن تَدْعُونَ - أَعْرَضْتُمْ - كَفُورًا - يَخْسِفَ بِكُمْ - حَاصِبًا - وَكِيلًا - قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ - تَبِيعًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾	لمن خلقته من طين، لمن كان طينًا فخلق منه.
﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا﴾	أرأيت (والكاف للمخاطبة) آدم هذا فضّلته عليَّ وشرفته عليَّ وأكرمته عني.
﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾	لأستأصلن – لأُضلن – لأجعل في حنكه لجامًا كالدابة أقوده إلى حيث شئت.
﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾	استخف –استجهل- احملهم على الجهل وقلة العقل.
﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾	أقبل عليهم صائحًا منقضًّا عليهم بجنوده الركبان والمشاة.
﴿وَعِدْهُمْ﴾	أخبرهم بالأخبار (الكاذبة والأماني الباطلة).
﴿سُلْطَٰنٌ﴾	حجة – متسلط.
﴿وَكِيلًا﴾	حفيظًا مُدبرًا للأمر.
﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾	يسوق لكم – يجري لكم السفن العظيمة الهائلة.

(٦٠٥) أحمر
أسود

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾	لتلمسوا من رزقه في التجارات والصيد وغير ذلك.
﴿مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾	أصابكم المكروه.
﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾	غابت عن أذهانكم الآلهة الباطلة.
﴿أَعْرَضْتُمْ﴾	انصرفتم عن الإيمان ونفرتم عنه جحودًا لنعم الله.
﴿يَخْسِفَ بِكُمْ﴾	يخفض بكم – يجعله ينهار بكم.
﴿حَاصِبًا﴾	ريحًا شديدة فيها الحصى (الحصباء).
﴿وَكِيلًا﴾	من يتوكل بأموركم وشؤونكم.
﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾	ريحًا عنيفةً تكسر وتقصم الأشياء.
﴿تَبِيعًا﴾	من يتبعنا – من يثأر لكم وينتصر لكم.



قصة إبليس مع آدم عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: واذكر يا رسول الله ما به تتبين عداوة إبليس لك ولأمتك ولبني آدم اذكر قولنا للملائكة لما خلقنا آدم عليه السلام، اسجدوا لآدم، سجود تحية، فسجدوا كلهم إلا إبليس لم يسجد، وقال معرضًا مستنقصًا لآدم عليه السلام قال: أأسجد لمن خلقته من طين، أأسجد لمن خلقته وكان طينًا؟!! ثم تمادى في غيِّه قائلًا: أرأيتك هذا الذي فضلته عليَّ وكرمته عليَّ وشرفته لئن أخرتن ولم تقبضني ولم تتوفني، بل تركتني حيًّا إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته ولأضلنهم ولأجعلن في أفواههم مثل لجام الدابة، ولأقودنهم إلى حيث شئت إلا قليلًا منهم فلا سلطان لي على هؤلاء القليل، وهم عبادك المخلصون.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد تمادي هؤلاء المشركين في غيهم وارتدادهم عتوّا على ربهم بتخويفه إياهم تحقيقهم قول عدوّهم وعدوّ والدهم، حين أمره ربه بالسجود له فعصاه وأبى السجود له، حسدا واستكبارا ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وكيف صدّقوا ظنه فيهم، وخالفوا أمر ربهم وطاعته، واتبعوا أمر عدوّهم وعدوّ والدهم.

ويعني بقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: واذكر إذ قلنا للملائكة ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنه استكبر وقال ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ يقول: لمن

خلقته من طين؛ فلما حذفت «من» تعلَّق به قوله: ﴿خَلَقْتَ﴾ فنصب، يفتخر عليه الجاهل بأنه خُلِقَ من نار، وخلق آدم من طين.

وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ يقول تعالى ذكره: أرأيت هذا الذي كرّمته عليّ، فأمرتني بالسجود له، ويعني بذلك آدم ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أقسم عدوّ الله، فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ يقول: لأستولين عليهم، ولأستأصلنهم، ولأستميلنهم يقال منه: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم أو غير ذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى عداوة إبليس -لعنه الله -لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخارًا عليه واحتقارًا له ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

ثم قال:

والمعنى: أنه يقول: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلًا منهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: من طين. وهذا استفهام إنكار.

ثم قال:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ أي: قال إبليس. والكاف توكيد للمخاطبة. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضلته علي.

ثم قال:

«هذا» نصب بأرأيت.«الذي» نعته. والإكرام: اسم جامع لكل ما يحمد. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي أترى هذا الذي كرمته علي لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ في قول ابن عباس: لأستولين عليهم. وقاله الفراء. مجاهد: لأحتوينهم. ابن زيد: لأضلنهم. والمعنى متقارب، أي: لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم. وروي عن العرب: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله. وقيل: معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت. ومن قولهم: حنكت الفرس أحنكه وأحنكه حنكًا إذا جعلت في فيه الرسن. وكذلك احتنكه. والقول الأول قريب من هذا، لأنه إنما يأتي على الزرع بالحنك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سنة قد أجحفت جهدا إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وإنما قال إبليس ذلك ظنًّا، كما قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال الحسن: ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزمًا.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قال الزجاج: «طينًا» منصوب على وجهين:

أحدهما: التمييز، المعنى: لمن خلقته من طين.

والثاني: على الحال، المعنى: أنشأته في حال كونه من طين. ولفظ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ جاء هاهنا بغير حرف عطف؛ لأن المعنى: قال آسجد لمن خلقتَ طينًا، وأرأيتَك، وهي في معنى: أخبرني، والكاف ذُكرت في المخاطبة توكيدًا، والجواب محذوف، والمعنى: أَخبرني عن هذا الذي كرَّمت عليَّ، لم كرَّمتَهُ عليَّ وقد خلقتَني من نار وخلقتَه من طين؟! فحذف هذا؛ لأن في الكلام دليلًا عليه.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى في هذه الآية عن إبليس: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾، يدل فيه إنكار إبليس للسجود بهمزة الإنكار على إبائه واستكباره عن السجود لمخلوق من طين، وصرح بهذا الإباء والاستكبار في مواضع أخر، فصرح بهما معا «في البقرة» في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وصرح بإبائه «في الحجر» بقوله: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣١]، وباستكباره في «ص» بقوله: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٤]، وبين سبب استكباره بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٦]، كما تقدم إيضاحه «في البقرة»، وقوله: طينًا حال ؛ أي لمن خلقته في حال كونه طينًا. وتجويز الزمخشري كونه حالًا من نفس الموصول، غير ظاهر عندي. وقيل: منصوب بنزع الخافض ؛ أي من طين. وقيل: تمييز، وهو أضعفها. والعلم عند الله تعالى.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن إبليس اللعين قال له: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾، أي أخبرني: هذا الذي كرمته علي فأمرتني بالسجود له وهو آدم ؛ أي لم كرمته علي وأنا خير منه. والكاف في أرأيتك حرف خطاب، و «هذا» مفعول به لـ«أرأيت».

والمعنى: أخبرني. وقيل: إن الكاف مفعول به، و «هذا» مبتدأ، وهو قول ضعيف. وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، قال ابن عباس: لأستولين عليهم، وقاله الفراء. وقال مجاهد: لأحتوينهم. وقال ابن زيد: لأضلنهم. قال القرطبي: والمعنى متقارب. أي لأستأصلنهم بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنهم.

قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر لي في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، أي لأقودنهم إلى ما أشاء ؛ من قول العرب: احتنكت الفرس: إذا جعلت الرسن في حنكه لتقوده حيث شئت. تقول العرب: حنكت الفرس أحنكه (من باب ضرب ونصر) واحتنكته: إذا جعلت فيه الرسن ؛ لأن الرسن يكون على حنكه. وقول العرب: احتنك الجراد الأرض: أي أكل ما عليها. من هذا القبيل ؛ لأنه يأكل بأفواهه، والحنك حول الفم. هذا هو أصل الاستعمال في الظاهر، فالاشتقاق في المادة من الحنك، وإن كان يستعمل في الإهلاك مطلقًا والاستئصال ؛ كقول الراجز:

أشكو إليك سنة قد أجحفت ... جهدًا إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت

وهذا الذي ذكر جل وعلا عن إبليس في هذه الآية من قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الآية، بينه أيضًا في مواضع أخر من كتابه ؛ كقوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، إلى غير

(٦١١) أحمر
أسود

ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه «في سورة النساء» وغيرها.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بين المراد بهذا القليل في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما تقدم إيضاحه. وقول إبليس في هذه الآية: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ الآية، قاله ظنا منه أنه سيقع وقد تحقق له هذا الظن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أن الله ﷻ قال لإبليس اللعين لمن طلب الإمهال إلى يوم القيامة، قال الله له: اذهب، أي: فقد أمهلتك وأخرتك إلى يوم القيامة، كما في الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧]، أي: من المُمهلين المؤجلين إلى يوم القيامة، ثم إن الله ﷻ توعَّد إبليس ومن تبعه بأن جهنم جزاؤهم على كفرهم وكبرهم وعنادهم جزاءً موفورًا غير منقوص، بل هو تامٌّ كامل موفَّر.

أما قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ فمن الاستفزاز، وهو إخراج الشخص عن عقله السوي واعتداله إلى ما يفعله غير الرشدة وغير العقلاء، ومن معاني: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استجهل، أي: اجعلهم يفعلون فعل الجهلاء، واستخف بهم، أي: اجعلهم يفعلون فعل خفاف العقول، ضعفاء العقول ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أن تستفزه ﴿مِنْهُم﴾ بصوتك، قيل: هو الغناء والمزامير،

وقيل: بدعائك لهم لفعل المعصية.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ انقض عليهم مُسرعًا صائحًا عليهم واقذفهم بالشبهات ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بجنودك الركبان والمشاة، وبالدعاة إلى معصية الله، من الركبان والمشاة.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن الشيطان يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ويشرب مع الشخص إذا لم يذكر اسم الله.

الثاني: أن المراد بالمشاركة في الأموال حملهم على الأكل من الحرام، كالربا والرشوة والسحت وغير ذلك.

الثالث: اجعلهم ينفقون ما رزقهم الله في معصية الله.

الرابع: اجعلهم يعمدون إلى الحلال الطيب الذي أحلَّه الله لهم فيحرمونه على أنفسهم كما فعلوا في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

الخامس: ما حثهم الشيطان عليه من منع الزكاة، ومنع أصحاب الحقوق حقوقهم. وثمَّ أقوال أخر وصورٌ أُخر لذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: وشاركهم في الأولاد فلذلك أيضًا صور منها:

زناه[(١)] بالأمهات، وكذا زنا الرجال بنسوة لسن لهم بأزواج فتختلط الأنساب.

الثاني: أنهم يصبغون أبناءهم في الكفر، يهودونهم وينصرونهم

(١) قيل إنه يشارك في الجماع من لم يذكر اسم الله عند الجماع، ولذا ففي الحديث: «**اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا**».

(٦١٣) أحمر
أسود

ويُمجسونهم.

الثالث: أنهم يسمونهم بأسماء ترضي الشياطين ويعبدونهم لغير الله، كعبد شمس وعبد الحارث وعبد الحسين وغير ذلك.

الرابع: أنهم يجعلون لله البنات، وقد تنزه سبحانه عن الصاحبة والولد إلى غير ذلك من الصور.

أما قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ أي: وعدهم أيها الشيطان الوعود الكاذبة والأماني الباطلة.

يمدهم أنهم سيغفر لهم، وذكرهم بأن لهم الأجر والثواب فيما يصنعون.

ويمدهم كذلك بأنهم سينتصرون على غيرهم.

ويمدهم كذلك بأنه ليست هناك جنة ولا نار، ولا بعث ولا حساب.

ويمدهم أن الأصنام تشفع لهم وتدافع عنهم إلى غير ذلك من الوعود الكاذبة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ أي: إلا كذبًا وخِداعًا وباطلًا وزورًا وغشًّا وتضليلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي: المخلصين، الذين سبقت لهم مني الحسنى، وقدرت أنهم من أهل السعادة والاستقامة فهؤلاء ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾ لن تستطيع أن تغلبهم، ولا أن تفتنهم بحجة من الحجج وبباطل من الأباطيل، وكفى بربك لهؤلاء المخلصين وكيلًا عنهم يدفع عنهم السوء والمكروه، ويحفظهم ويسلمهم من كل شر وسوء ومكروه.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره قال الله لإبليس إذ قال له: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ اذهب فقد أخرتك، فمن تبعك منهم، يعني من ذرّية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فأطاعك، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، يقول: ثوابك على دعائك إياهم على معصيتي، وثوابهم على اتباعهم إياك وخلافهم أمري ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾: يقول: ثوابًا مكثورًا مكملًا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء.

وأورد من طرق تصح عن مجاهد في تفسير موفورًا: أي: وافرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ واستخفف واستجهل، من قولهم: استفزّ فلانا كذا وكذا فهو يستفزّه ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾. اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناه جلّ ثناؤه بقوله ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ فقال بعضهم: عنى به: صوت الغناء واللعب.

وقال آخرون: عنى به ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس: واستفزز من ذرّية آدم من استطعت أن تستفزّه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتًا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافًا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يقول: وأجمع عليهم من ركبان

جندك ومشاتهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي، يقال منه: أجلب فلان على فلان إجلابًا: إذا صاح عليه. والجَلَبة: الصوت، وربما قيل: ما هذا الجَلَب، كما يقال: الغَلَب، والشَّفَقَة والشَّفَق.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ في الأموال والأولاد فإن أهل التأويل اختلفوا في المشاركة التي عنيت بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾؛ فقال بعضهم: هو أمره إياهم بإنفاق أموالهم في غير طاعة الله واكتسابهموها من غير حلها.

وأورد بسندٍ يصح عن مجاهد بمجموع طرقه أنه قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ قال: ما أكل من مال بغير طاعة الله.

وأورد عن عطاء بن أبي رباح قال: الشرك في أموال الربا.

وبسند يصح بطريقيه عن قتادة، عن الحسن، في قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال: قد والله شاركهم في أموالهم، وأعطاهم الله أموالًا فأنفقوها في طاعة الشيطان في غير حقّ الله تبارك اسمه، وهو قول قتادة.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال: مشاركته إياهم في الأموال والأولاد، ما زَيَّن لهم فيها من معاصي الله حتى ركبوها.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك كلّ ما كان من تحريم المشركين ما كانوا يحرّمون من الأنعام كالبحائر والسوائب ونحو ذلك.

وقال آخرون: بل عُنِي به ما كان المشركون يذبحونه لآلهتهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك كلّ مال عصى

الله فيه بإنفاق في حرام أو اكتساب من حرام، أو ذبح للآلهة، أو تسييب، أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيًّا به أو فيه، وذلك أن الله قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ فكلّ ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصى الله فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض.

وقوله ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ اختلف أهل التأويل في صفة شركته بني آدم في أولادهم، فقال بعضهم: شركته إياهم فيهم بزناهم بأمهاتهم.

وقال آخرون: عنى بذلك: وأْدُهم أولادَهم وقتلهموهم.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: صبغهم إياهم في الكفر.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، عن الحسن: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال: قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم، فمجسوا وهوّدوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءًا للشيطان.

وقال آخرون: بل عنى بذلك تسميتهم أولادهم عبد الحرث وعبد شمس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: كل ولد ولدته أنثى عصى الله بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو قتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بها بفعله أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك المولود له أو منه لأن الله لم يخصص بقوله ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكلّ ما عصى الله فيه أو به، وأطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة من عصى الله فيه أو به إبليس فيه.

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول تعالى ذكره لإبليس: وعد أتباعك من ذرّية آدم، النصرة على من أرادهم بسوء، يقول الله: ﴿وَمَا

يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله إذا نزل بهم شيئًا، فهم من عداته في باطل وخديعة، كما قال لهم عدو الله حين حصحص الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لإبليس: إن عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوك يا إبليس، ليس لك عليهم حجة.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ يقول جلّ ثناؤه لنبيّه محمد ﷺ: وكفاك يا محمد ربك حفيظًا، وقيمًا بأمرك، فانقد لأمره، وبلغ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تخف أحدًا فإنه قد توكل بحفظك ونصرتك.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ وعباده المؤمنون، وقال الله في آية أخرى ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَآءً مَّوۡفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

وقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك.

وقولـه: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقـول: واحمـل علـيهم بجنـودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و«صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدرعليه. وهذا أمر قدري، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش في معصية الله.

وقال قتادة: إن له خيلًا ورجالًا من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه.

ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهي ارتفاع الأصوات.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ نحو ما ذكره الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال:

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُتَّجه، وَكُلٌّ مِنَ السَّلَفِ، رَحِمَهُمُ اللهُ، فَسَّرَ بَعْضَ الْمُشَارِكَةِ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنفاء، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرّمت عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**».

قال ابن كثير أيضًا:

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّر بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا**».

وقولـه: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ كما أخبر تعالى عن

(١) البخاري (١٤١)، ومسلم (١١٦).

إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: حافظًا ومؤيدًا وناصرًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ﴾ أي: مَنِّهم الأماني الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم. يقويه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠] أي باطلا. ﴿وَعِدْهُمْ ۚ﴾ أي: عدهم النصر على من أرادهم بسوء. وهذا الأمر للشيطان تهدد ووعيد له. وقيل: استخفاف به وبمن اتبعه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

أما مشاركته لهم في الأموال فعلى أصناف:

(منها): ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة له؛ كالبحائر والسوائب ونحو ذلك، وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعًا كالربا والغصب وأنواع الخيانات؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك طاعة له.

وأما مشاركته لهم في الأولاد فعلى أصناف أيضًا:

منها: قتلهم بعض أولادهم طاعة له.

ومنها: أنهم يمجسون أولادهم ويهودونهم وينصرونهم طاعة له وموالاة.

(٦٢٠) أحمر
أسود

ومنها: تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى ونحو ذلك؛ لأنهم بذلك سموا أولادهم عبيدًا لغير الله؛ طاعة له، ومن ذلك أولاد الزنى؛ لأنهم إنما تسببوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة؛ طاعة له، إلى غير ذلك.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله قد بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]، فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم حيث قتلوهم في طاعته. وكذلك تحريم بعض ما رزقهم الله المذكور في الآية طاعة له مشاركة منه لهم في أموالهم أيضا؛ وكقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية، وكقوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث المبينة بعض مشاركته لهم فيما ذكر، ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ عز وجل: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**»(١)، وما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ**

(١) مسلم، وتقدم مرارًا.

لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ»[1] انتهى.

فاجتيال الشياطين لهم عن دينهم، وتحريمها عليهم ما أحل الله لهم (في الحديث الأول) وضرها لهم لو تركوا التسمية (في الحديث الثاني) كل ذلك من أنواع مشاركتهم فيهم. وقوله: «**فاجتالتهم**» أصله افتعل من الجولان؛ أي استخفتهم الشياطين فجالوا معهم في الضلال. يقال: جال واجتال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان في الحرب، واجتال الشيء: إذا ذهب به وساقه. والعلم عند الله تعالى. والأمر في قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾؛ كالأمر في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾، وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، وقد قدمنا أنه للتهديد.

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ بين فيه أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل؛ كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، إلى غير ذلك من المواعيد الكاذبة.

وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الآية، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن عباده الصالحين لا سلطان للشيطان عليهم، فالظاهر أن في الآية الكريمة حذف الصفة كما قدرنا، ويدل على الصفة المحذوفة إضافته العباد إليه إضافة تشريف، وتدل لهذه الصفة المقدرة أيضًا آيات أخر؛ كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ

---

(١) البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

﴿مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، إلى غير ذلك من الآيات ؛ كما تقدم إيضاحه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: مدخرًا لكم موفرًا جزاء أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلًا مضمحلًا كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة

ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ أي: تسلط وإغواء بل الله يدفع عنهم -بقيامهم بعبوديته- كل شر ويحفظهم من الشيطان الرجيم ويقوم بكفايتهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾ لمن توكل عليه وأدى ما أمر به.



ومن نعم الله على خلقه تسيير السفن في البحار

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده لا شريك له هو الذي سوق لكم السفن العظيمة الهائلة ويسيرها في البحر ويجريها فيها لتركبوها وتحملوا عليها متاعكم وتجاراتكم وتنتقلون بها من بلدٍ إلى بلدٍ للبحث عن الرزق والتماس الفضل إنه كان بكم رحيما إذ يسرها لكم وسهّل عليكم أسفاركم، وكان رحيمًا بكم في كل شيء.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمشركين به: ربكم أيها القوم هو الذي يسير لكم السفن في البحر، فيحملكم فيها ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ لتصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجاراتكم ومطالبكم ومعايشكم، وتلتمسون من رزقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾ يقول: إن الله كان بكم رحيمًا حين أجرى لكم الفلك في البحر،

تسهيلًا منه بذلك عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها.

وأورد آثارًا متعددة في معنى ﴿يُزْجِي﴾ وأنها يُجري.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السوق، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقال الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... سائل بني أسد ما هذه الصوت

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة. والفلك هنا جمع، وقد تقدم. والبحر الماء الكثير عذبًا كان أو ملحًا، وقد غلب هذا الاسم على الملح، وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده، أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئًا. ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: في التجارات. وقد تقدم. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده فإنه لم يزل بهم رحيمًا رؤوفًا يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

(٦٢٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وإذا أصابكم المكروه وأنتم في الفلك في البحر، إذا لعبت بكم الأمواج وهاجت الرياح وأشرفتم على الغرق، غابت عنكم تلك الآلهة التي تعبدونها من دون الله، غابت عنكم الأصنام والأوثان واتجهتم إلى دعاء الله وحده لا شريك له ليكشف عنكم الضر ويصرف عنكم الكرب وينجيكم مما أنتم فيها فلما تفضل عليكم وسلمكم ونجاكم وردَّكم إلى البر سالمين آمنين مطمئنين أعرضتم عن الإيمان، وأعرضتم عن التوحيد وكان الإنسان جحودًا لنعم الله عليه، مفكرًا لها ومنكرًا لوحدانيته سبحانه وتعالى.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا نالتكم الشدّة والجهد في البحر ضلّ من تدعون: يقول: فقدتّم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة، وجار عن طريقكم فلم يغثكم، ولم تجدوا غير الله مغيثا يغيثكم دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد، والبراءة من الآلهة، وإفراده بالألوهة كفرًا منكم بنعمته ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ يقول: وكان الإنسان ذا جحد لنعم ربه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضر، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم

ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه[(١)].

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجري. وأهوال حالاته اضطرابه وتموجه. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿ضَلَّ﴾ معناه تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلها من دون الله. المعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا. وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ الإنسان هنا الكافر. وقيل: وطبع الإنسان كفورًا للنعم إلا من عصمه الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ

(١) البيهقي في الدلائل (٥/ ٥٩-٦٠).

وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

بين جل وعلا في هذه الآيات الكريمة: أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر ؛ أي اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك – ضل عنهم ؛ أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده، لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة ؛ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢]، وقوله: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه «في سورة الأنعام» وغيرها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال. فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر. وأما من خذل ووكل إلى عقله الضعيف فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة ظن بجهله أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلًا عن أمور الآخرة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

ج: **المعنى – والله أعلم-:** أفأمنتم يا هؤلاء، يا من أنجاكم الله ﷻ بعد أن أشرفتم على الغرق وردَّكم سالمين آمنين إلى البر، أفأمنتم يا هؤلاء وأفأمنتم يا من أنتم على البر أن يخسف الله بكم جانب البر، أي: البر الذي أنتم عليه تنهار

أرضه وتنخفض وتغور إلى أسفل تنطبق الأرض عليكم.

أو أمنتم أن يرسل الله ﷻ عليكم حاصبًا، ريحًا شديدة تحمل الحصباء وهي الحصى فتقذفها في وجوهكم فلا تستطيعون معها أن تأمنوا وأن تسلموا ولا تجدوا لكم وكيلًا يتولى أمركم ولا يدفع عنكم السوء والمكروه، لا تجدوا لكم من يحفظكم ويسلمكم من السوء والمكروه من دون الله ﷻ.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، وعظيم ما كنتم قد أشرفتم عليه من الهلاك، فلما نجاكم وصرتم إلى البرّ كفرتم، وأشركتم في عبادته غيره ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ يعني ناحية البر ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا﴾ يقول: أو يمطركم حجارة من السماء تقتلكم، كما فعل بقوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة عنكم من عذابه وما يمنعكم منه.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا﴾ يقول: حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: منعة ولا ناصرًا.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكان بعض أهل العربية يوجه تأويل قوله: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا﴾ إلى: أو يرسل عليكم ريحًا عاصفًا تحصب، ويستشهد لقوله ذلك بقول الشاعر:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

وأصل الحاصب: الريح تحصب بالحصباء؛ الأرض فيها الرمل والحصى الصغار. يقال في الكلام: حصب فلان فلانا: إذا رماه بالحصباء، وإنما وُصفت

الريح بأنها تحصب لرميها الناس بذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه! ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصرا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسف: أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بئر خسيف إذا انهدم أصلها. وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس. وعين من الماء خاسفة أي غار ماؤها. وخسفت الشمس أي غابت عن الأرض. وقال أبو عمرو: والخسيف البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة. والجمع خسف. وجانب البر: ناحية الأرض، وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا. وأيضا فإن البحر جانب والبر جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني ريحا شديدة، وهي التي ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، قاله أبو عبيدة والقتبي. وقال قتادة: يعني حجارة من السماء تحصبهم، كما فعل بقوم لوط. ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد: حاصب، وللريح التي

تحمل التراب والحصباء حاصب وحصبة أيضًا. قال لبيد:

جرت عليها أن خوت من أهلها ... أذيالها كل عصوف حصبه

وقال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: حافظًا ونصيرًا يمنعكم من بأس الله.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم إن الله جل وعلا بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله، مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة، كما قال هنا منكرًا عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو المطر أو الريح اللذين فيهما الحجارة.

وأورد ابن الجوزي في زاد المسير ثلاثة أقوال في الحاصب:

أحدها: أن الحاصب حجارة من السماء.

الثاني: أنه الريح العاصف تحصب.

الثالث: أنه الريح سميت بذلك؛ لأنها تحصب أي: ترمى بالحصباء وهي الحصى الصغار.

قال: وقال ابن الأنباري: قال اللغويون: الحاصب الريح التي فيها الحصى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: فهو على كل

شيء قدير إن شاء أنزل عليكم عذابا من أسفل منكم بالخسف أو من فوقكم بالحاصب وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: أم أمنتم يا هؤلاء يا من كنتم في البحر فمسكم الضر فدعوتم الله وحده لا شريك له، ثم سلمكم الله وردَّكم إلى البر فإذا بكم ترجعون إلى شرككم وضلالكم وكفركم وتنكرون فضل الله عليكم وتجحدون وحدانيته. أفأمنتم يا هؤلاء أن يعيدكم الله إلى البحر ثانية فيرسل عليكم في هذه المرة الثانية ريحًا عنيفة عظيمة تقصفكم تدمركم تقضي عليكم، فيفرقكم الله بما كفرتم بسبب كفركم وجحودكم وحدانية الله.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ﴾ بعد أن نهلككم ﴿تَبِيعًا﴾، يعني شخص يتبعكم، يأتي من بعدكم يطلب بثأركم منا فلن يأتي أحدٌ بعقاب الله، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤، ١٥] أي: أن الله ﷻ لا يخشى أن يتعقبه أحد ولا أن يعاتبه أحد، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم أمنتم أيها القوم من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى: يقول: مرّة أخرى، والهاء التي في قوله ﴿فِيهِ﴾ من ذكر البحر.

و﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي تقصف ما مرّت به فتحطمه

وتدقه، من قولهم: قصف فلان ظهر فلان: إذا كسره ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ يقول: فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، يقول: بكفركم به ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ يقول: ثم لا تجدوا لكم علينا تابعًا يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائرًا يثأرنا بإهلاكنا إياكم، وقيل: تبيعًا في موضع التابع، كما قيل: عليم في موضع عالم. والعرب تقول لكل طالب بدم أو دين أو غيره: تبيع. ومنه قول الشاعر:

عَدَوْا وَعَدَتْ غزلانهم فكأنَّها ... ضَوَامنُ غُرمٍ لَزّهُنَّ تَبيعُ

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقيه عن مجاهد في تفسير ﴿تَبِيعًا﴾ قال: ثائرًا.

وبإسنادٍ أيضًا يصح بطريقيه عن قتادة قال: أي لا نخاف أن نتبع بشيء من ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها.

وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ قال ابن عباس: نصيرًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني في البحر. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة، من قصف الشيء يقصفه، أي كسره بشدة. والقصف: الكسر، يقال: قصفت الريح السفينة. وريح قاصف: شديدة. ورعد قاصف: شديد الصوت. يقال: قصف الرعد وغيره قصيفًا. والقصيف: هشيم الشجر. والتقصف التكسر. والقصف أيضًا: اللهو واللعب، يقال: إنها مولدة. ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بكفركم.

وقال:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾ قال مجاهد: ثائرًا. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع وتابع، ومنه ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: مطالبة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ أي بسبب كفركم، فالباء سببية، و «ما» مصدرية. والقاصف: ريح البحار الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها. ومنه قول أبي تمام:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم

يعني: إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد؛ رتما كان أو غيره.

وهذا المعنى الذي بينه جل وعلا هنا من قدرته على إهلاكهم في غير البحر بخسف أو عذاب من السماء – أوضحه في مواضع أخر ؛ كقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩] الآية، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله «في قوم لوط»: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤﴾ [القمر: ٣٤]، وقوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ [الذاريات: ٣٣] إلى غير ذلك من الآيات.

والحاصب في هذه الآية قد قدمنا أنه قيل: إنها السحابة أو الريح، وكلا القولين صحيح ؛ لأن كل ريح شديدة ترمي بالحصباء تسمى حاصبًا وحصبة، وكل سحابة ترمي بالبرد تسمى حاصبًا أيضًا ؛ ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

(٦٣٥) أحمر
أسود

وقول لبيد:

جـرت عليهـا أن خـوت مـن أهلهـا ... أذيالهـا كـل عصـوف حصـبه

وقال الشنقيطي أيضًا:

وقوله في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾، «فعيل» بمعنى «فاعل». أي تابعًا يتبعنا بالمطالبة بثأركم؛ كقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٤، ١٥]، أي لا يخاف عاقبة تبعة تلحقه بذلك. وكل مطالب بدين أو ثأر أو غير ذلك تسميه العرب تبيعًا، ومنه قول الشماخ يصف عقابًا:

تلـوذ ثعالـب الشـرفين منهـا ... كمـا لاذ الغـريم مـن التبيـع

أي: كعياذ المدين من صاحب الدين الذي يطالبه بغرمه منه.

ومنه قول الآخر:

غـدوا وغـدت غـزلانهم وكأنهـا ... ضـوامن غـرم لهـن تبيـع

أي خصمهن مطالب بدين.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية، وقوله ﷺ: «**إذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع**» وهذا هو معنى قول ابن عباس وغيره: ﴿تَبِيعًا﴾ أي نصيرًا، وقول مجاهد: نصيرًا ثائرًا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإن ظننتم ذلك فلستم آمنين من ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي: ريحًا شديدة جدًّا تقصف ما أتت عليه.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾ أي: تبعة ومطالبة فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ
بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا
يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ
سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا
غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ
إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا
تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ
لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ
أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ
ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾
وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ
سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾

(٦٣٧) أحمر

أسود

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا
خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا
﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾

[الإسراء: ٧٠-٨٤]

(٦٣٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿كَرَّمْنَا - بِإِمَـٰمِهِمْ - فَتِيلًا - لَيَفْتِنُونَكَ - لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ - خَلِيلًا - تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ - ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ - وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ - لَيَسْتَفِزُّونَكَ - لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا - سُنَّةَ - تَحْوِيلًا - لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ - وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ - مَشْهُودًا - فَتَهَجَّدْ بِهِۦ - نَافِلَةً لَّكَ - مَقَامًا مَّحْمُودًا - مُدْخَلَ صِدْقٍ - مُخْرَجَ صِدْقٍ - سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا - وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ - زَهُوقًا - وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ - يَـُٔوسًا - شَاكِلَتِهِۦ - أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كَرَّمْنَا﴾	فضلنا – ميّزنا – أكرمنا.
﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾	بكتاب أعمالهم (كتاب أعمالهم الذي كتبت فيه أعمالهم التي عملوها في الدنيا) برسولهم (كي يشهد عليهم).
﴿فَتِيلًا﴾	الخيط الأبيض الرفيع الذي بين فلقتي النواة.
﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾	ليصرفونك ويبعدونك.
﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾	لتتقول علينا قولًا غير هذا القرآن.
﴿خَلِيلًا﴾	صديقًا حميمًا.
﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾	تميل إليهم وإلى ما يريدونه منك.
﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾	عذاب الحياة الدنيا، وقيل: العذاب مضاعفًا في الدنيا.
﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾	عذاب الآخرة، قيل: العذاب مضاعفًا في الآخرة.

(٦٣٩) أحمر
أسود

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾	ليستخفونك – ليفعلون أفعالًا ويقولون أقوالًا يجعلونك بها تخرج من بلادك.
﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	لا يمكثون بعد خروجك إلا زمنًا قليلًا ويأتيهم العذاب.
﴿سُنَّةَ﴾	طريقة.
﴿تَحْوِيلًا﴾	صرفًا وتغييرًا.
﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾	من دلوك الشمس أي عند زوالها عن منتصف السماء.
﴿غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾	برد الليل وظلامه وهو وقت العشاء.
﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾	لدلوك الشمس إلى غسق الليل أي: من الظهر إلى العشاء فيدخل فيه صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.
﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾	القرآن الذي يُقرأ في صلاة الفجر
﴿مَشْهُودًا﴾	تشهده الملائكة وتستمع إليه.
﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾	صل فيه صلاة الليل، وقيل: صلاة بعد نوم.
﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾	زيادة لك، قيل: زيادة في الفرائض عليك، أي: أن قيام الليل كا ن فرضًا عليه. وقيل: نافلة لك ثوابًا زائدًا تتحصل عليه.
﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾	مقامًا يحمدك فيه الخلائق، وقيل: إنه الشفاعة العظمى.

(٦٤٠) أحمر
أسود

﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾	مدخل فيه رضاك وطاعتك وحفظك، (قيل: المدينة- وقيل: الجنة، وقيل: كل مدخل).
﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾	مخرج فيه رضاك وطاعتك وحفظك، أي: أخرجني مطيعًا لك ملتمسًا رضاك وحفظك، وقيل: عند الخروج من مكة، وقيل عند الخروج من القبر، وقيل: كل خروج.
﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾	حجة وقوة وعزًّا تنصري، بها على من ناوأني كي أقيم دينك وأدعو إلى سبيلك.
﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾	ذهب الباطل واضمحل.
﴿زَهُوقٗا﴾	مُضمحلًّا ذاهبًا.
﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾	ابتعد بنفسه.
﴿يَـُٔوسٗا﴾	يائسًا من الفرج – قنوطًا من الرحمة يظن أن لا فرج.
﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾	دينه – طريقته – ناحيته – ووجهته.
﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾	أوفق طريقًا – أسلم منهجًا – أسلك طريقًا. أي: من سلك الطريق الأمثل الموفق لطاعة الله ﷻ ومرضاته.



تكريم بني آدم وتفضيلهم على غيرهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: ولقد شرفنا وفضلنا بني آدم ويسرنا لهم ما يركبونه وينتقلون عليه من مكان إلى مكان في البر، وذلك المركوب في البر منه الإبل والخيل والبغال والحمير وغير ذلك، وكذلك سخرنا لهم ما يركبونه في البحر وينتقلون عليه من قطر إلى قطر، وهي السفن ورزقناهم من لذيذ المطاعم والمشارب والثمار والملابس الجيدة والمناظر الحسنة والأثاث والمتاع وغير ذلك. أما صورة تفضيل بني آدم وتشريفهم فبالعقل الذي رزقهم الله إياه يميزون به، وكذا فضلناهم وميزناهم بحسن خلقهم وحسن قوامهم واعتدالهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

كذلك ميزناهم بأنواع البيان التي علمناهم إياها، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، فمن ذلك البيان باللسان، ومن ذلك البيان بالقلم (بالكتابة) ومن ذلك البيان بالإشارة.

وكذا ميزناهم بتسليطهم على غيرهم من الدواب إلى غير ذلك مما فضَّل الله به بني آدم على غيرهم.

فكان من اللائق ببني آدم وقد كرمناهم وفضلناهم، ورزقناهم، كان من اللائق أن يقدموا شكرًا لله على ما أنعم به عليهم وتفضَّل، كان من اللائق أن يوحدوا الله ويفردوه بالعبادة، ويشكروه بالقلب واللسان والجوارح والله أعلم، وبنحو ما ذكرت قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بتسليطنا إياهم على غيرهم من

الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدوابّ والمراكب ﴿و﴾ في ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ في الفلك التي سخرناها لهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه -وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه -وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي «البحر» أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة

عليهم أيضًا. ﴿كَرَّمۡنَا﴾ تضعيف كرم، أي جعلنا لهم كرمًا أي شرفًا وفضلًا. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المُركبات من الأطعمة. وغاية كل حيوان يأكل لحمًا نيئًا أو طعامًا غير مركب.

... وأورد أقوالًا أخر في تكريم بني آدم وقال:

والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف،. وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء. وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالًا يفضل بها ابن آدم أيضًا، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ أي: على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة.

(٦٤٤) أحمر
أسود

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية. ﴿وَ﴾ في ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح. فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

فإن قيل: كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل، وفيهم الكافر المُهان؟

فالجواب من وجهين.

أحدهما: أنه عامل الكل معاملة المكرَم بالنعم الوافرة.

والثاني: أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة، أجرى الصِّفة على جماعتهم، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: واذكر يوم ندعو كل أناس لإمامهم كي يتبعونه، ويكونون معه.

أما هذا الإمام فللعلماء فيه أقوال:

أولها وأشهرها: أنه كتاب الأعمال، فالمعنى: يوم ندعو كل أناس لتناول كتاب أعمالهم، ذلكم الكتاب الذي كتبت فيه أقوالهم وأعمالهم، يوم ندعوهم لتناوله.

الثاني: أنه الكتاب الذي أُنزل على نبيهم.

الثالث: أن المراد بالإمام الرسول، أي: كل أمة تأتي، ويأتي معها رسولها ليشهد عليها.

الرابع: أن المراد بالإمام ما كان يعبدونه في الدنيا، كما في الحديث: «يُنَادِي مُنَادٍ يوم القِيَامَة لِتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ».

وثمَّ أقوال أُخر.

والأظهر كما أشرت هو القول الأول، لقوله تعالى عقبه: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ومعناه: فمن تناول كتاب أعماله بيده اليمنى فهؤلاء الذين أكرموا وسعدوا كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ...﴾ [الحاقة: ١٩-٢٢] الآيات، وكما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، فقوله تعالى هاهنا: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: ينظرون في كتاب أعمالهم ويقرؤنه، ويرون الأعمال الصالحة والأقوال الصالحة التي فيه فيسعدوا بذلك، ولا يبخسون من أعمالهم الصالحة ولا من أقوالهم الصالحة شيئًا، ولو كان قدر الفتيل

والفتيل هو الخيط الأبيض الرفيع الذي بين فلقتي نواة التمر.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: في هذه الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عن الحق وعن الصواب والرشد، وكان تاركًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ معرضًا عن الإيمان والإسلام ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿أَعۡمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، وكما قال: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

أما قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ أي: وأشد ابتعادًا عن سبيل الخير وسبيل الجنة، بل هو موجَّه إلى طريق النار وعياذًا بالله من ذلك.

وكذلك فهو ضال عن الصراط السوي، فينحرف على الصراط، وعن الصراط فيسقط في جهنم، والعياذ بالله، هذا والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في معنى الإمام الذي ذكر الله جلّ ثناؤه أنه يدعو كلّ أناس به، فقال بعضهم: هو نبيّه، ومن كان يقتدى به في الدنيا ويأتمّ به.

وأورد بأسانيد تصح بمجموعها عن مجاهد في قوله: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ قال: نبيهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يدعوهم بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الحسن قال: بأعمالهم.

وفي رواية أخرى عنه: بكتابهم الذي فيه أعمالهم.

وقال آخرون: بل معناه: يوم ندعو كلّ أناس بكتابهم الذي أنزلت عليهم فيه أمري ونهيي.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمُّون به في الدنيا، لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتمّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها.

وقوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ يقول: فمن أعطي كتاب عمله بيمينه ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ذلك حتى يعرفوا جميع ما فيه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يقول تعالى ذكره: ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم فتيلا وهو المنفتل الذي في شقّ بطن النواة.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ ...﴾:

اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أشير إليه بقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾، فقال بعضهم: أشير بذلك إلى النعم التي عدّدها تعالى ذكره بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فقال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن محمد بن أبي موسى، قال: سئل عن هذه الآية ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ فقال: قال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ قال: من عمي عن شكر هذه النعم في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا.

قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن قُدرة الله فيها وحججه، فهو في الآخرة أعمى.

وأورد بإسنادٍ فيه مقال عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ

(٦٤٨) أحمر
أسود

﴿أَعْمَىٰ﴾ يقول: من عمي عن قُدرة الله في الدنيا ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾.

وبإسناد صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ يقول: من كان في هذه الدنيا أعمى عما عاين فيها من نعم الله وخلقه وعجائبه ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ فيما يغيب عنه من أمر الآخرة وأعمى.

وبإسنادٍ صحيح ابن زيد، وسئل عن قول الله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ فقرأ ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: ٣]، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، وقرأ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠] وقرأ حتى بلغ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦] قال: كلّ له مطيعون، إلا ابن آدم. قال: فمن كان في هذه الآيات - التي يعرف أنها منا، ويشهد عليها وهو يرى قدرتنا ونعمتنا - أعمى، فهو في الآخرة التي لم يرها أعمى وأضلّ سبيلًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله على أنه المنفرد بخلقها وتدبيرها، وتصريف ما فيها، فهو في أمر الآخرة التي لم يرها ولم يعاينها، وفيما هو كائن فيها أعمى وأضلّ سبيلًا يقول: وأضلّ طريقا منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاته بالصواب، لأن الله تعالى ذكره لم يخصص في قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عمى الكافر به عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجه ذلك إلى عماه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم، وحمله إياهم في البرّ والبحر، وما عدد في الآية التي ذكر فيها

نعمه عليهم، بل عمّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهم كما عمّ تعالى ذكره.

وأورد الحافظ ابن كثير أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ واختار القول بأنه كتاب الأعمال ورجحه قائلًا:

وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ويحتمل أن المراد بإمامهم أي كل قوم بمن يأتمون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

وفي الصحيحين[١]: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع ما كان يعبد الطواغيت الطواغيت**» وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهدا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾

(١) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (٢٩٩) (١١٨).

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

[الحاقة: ١٩-٢٦]

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذًا بالله من ذلك.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، ومعهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ مما عملوه من الحسنات.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال. ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك؛ لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.



محاولات أهل الكفر مع رسول ﷺ لصرفه عن دينه وإبعاده عن الحق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وإن كاد أهل الكفر أن يصرفونك عن الوحي الذي أوحيناه إليك، اقتربوا أن يصرفوك عن القرآن المنزل من عند الله ﷻ، واجتهدوا في ذلك وحاولوا معك كي تفتري على الله ﷻ وتتقول عليه ما لم يقله، وعندها، إذا انصرفت عن الوحي وافتريت على الله الكذب سيتخذونك صديقًا عزيزًا حميمًا شديد الصداقة لهم، ولكن الله ﷻ ثبتك على الإيمان فلله الحمد، ولولا أن الله ﷻ ثبتك لانجرفت وانحرفت وطاوعتهم فيما يريدونه منك، وملت إليهم بعض الميل وأقبلت عليهم بعض الإقبال، فإذا كان ذلك صدر منك كنت ستلقى العذاب مضاعفًا، ستلقى العذاب في الدنيا مضاعفًا وستلقاه في الآخرة مضاعفًا، ولن تجد نصيرًا ينصرك من دون الله ولن تجد دافعًا يدفع عنك العذاب.

هذا، ومن العلماء من قال في تأويل قوله: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عذاب الحياة،

﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عذاب الممات.

ومنهم من قال، وهو الأظهر - والله أعلم-: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: العذاب مضاعفًا في الحياة، ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: العذاب مضاعفًا بعد الممات. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أن يفتنوا رسول الله ﷺ بها عن الذي أوحى الله إليه إلى غيره، فقال بعضهم: ذلك الإلمام بالآلهة؛ لأن المشركين دعوه إلى ذلك، فهم به رسول الله ﷺ.

وأورد حديثًا ضعيفًا بذلك، فيه: كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندَعُه حتى يلم بآلهتنا، فحدّث نفسه، وقال: ما عَلَيَّ أنْ أُلِمَّ بِها بَعْدَ أنْ يَدَعُونِي أسْتَلِمُ الحَجَرَ، وَالله يَعْلَمُ أنّي لَهَا كارهٌ، فأَبى الله، فَأَنزلَ الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ الآية.

وهو ضعيف الإسناد كما أشرت.

وأورد بسندٍ ضعيف أيضًا، وهو مرسل من مراسيل قتادة قال: ذكر لنا أن قريشًا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسوّدونه ويقاربونه، وكان في قولهم أن قالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا وابن سيدنا، فما زالوا يكلّمونه حتى كاد أن يقارفهم ثم منعه الله وعصمه من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

وبسندٍ ضعيف جدًّا عن ابن عباس، قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ وذلك أن ثقيفًا كانوا قالوا للنبيّ ﷺ: يا رسول الله أجِّلنا سنة حتى يُهْدَى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يُهْدى لآلهتنا أخذناه، ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة، فهم رسول الله ﷺ أن

(٦٥٣) أحمر
أسود

يعطيهم، وأن يؤجِّلهم، فقال الله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيّه ﷺ، أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله، وجائز أن يكون ذلك كان ما ذكر عنهم من ذكر أنهم دعوه أن يمسّ آلهتهم، ويلمّ بها، وجائز أن يكون ذلك ما ذُكر عن ابن عباس من أمر ثقيف، ومسألتهم إياه ما سألوه مما ذكرنا، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أيّ ذلك كان، والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره، حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عُني بذلك منه.

وقوله: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ يقول تعالى ذكره: ولو فعلت ما دَعَوْك إليه من الفتنة عن الذي أوحينا إليك لاتخذوك إذًا لأنفسهم خليلًا وكنت لهم وكانوا لك أولياء.

يقول تعالى ذكره: ولولا أن ثبَّتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ يقول: لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ شيئًا قليلًا وذلك ما كان ﷺ همّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله.

ويقول تعالى ذكره: لو ركنت إلى هؤلاء المشركين يا محمد شيئًا قليلًا فيما سألوك إذن لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات.

وأورد بإسناد يصح بطريقيه عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ قال: عذابها، ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ قال: عذاب الآخرة.

وبإسناد يصح بطريقيه عن قتادة قال: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

قال الطبري:

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ يقول: ثم لا تجد لك يا محمد إن نحن أذقناك لركونك إلى هؤلاء المشركين لو ركنت إليهم، عذاب الحياة وعذاب الممات علينا نصيرًا ينصرك علينا، ويمنعك من عذابك، وينقذك مما نالك منا من عقوبة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

قال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة تثبيته لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركون إلى الكفار، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات ؛ أي: مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة، وبهذا جزم القرطبي في تفسيره. وقال بعضهم: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر. والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث، وبهذا جزم الزمخشري وغيره. والآية تشمل الجميع.

وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنبيه – لو خالف – بينه في غير هذا

الموضع ؛ كقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] الآية.

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم - بينه في موضع آخر ؛ كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآية، ولقد أجاد من قال:

وكبائر الرجل الصغير صغائر　　وصغائر الرجل الكبير كبائر

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنت لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد. وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضعف النصيب، كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي نصيب. وقد تقدم في الأعراف.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا﴾ أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: حبيبًا صفيًّا، أعز عليهم من أحبابهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن

الآداب، المحبة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾. ﴿وَ﴾ مع هذا فـ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق، وامتناا عليك بعدم الإجابة لداعيهم، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم. ﴿إِذًا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لأصبناك بعذاب مضاعف، في الحياة الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وإن كاد أهل الكفر أن يستفزونك بأقوالهم وأفعالهم كي يضطروك للخروج من بلدك ويطردوك منها، فإذا فعلوا وأخرجوك منها لن يمكثوا بعدك إلا زمنًا قليلًا، وينتقم الله ﷻ منهم، وهذه سنةٌ لله جارية إذا أخرج القوم نبيهم من بين أظهرهم وطردوه من بلادهم لم يمكثوا بعده إلا زمنًا يسيرًا ويأتيهم عذاب الله ﷻ ولن تجد لطريقتنا من يحولها عن مسارها تحويلًا.

لن تجد من يصرف عن القوم السوء والمكروه.

هذا، ولما أخرج المشركون رسولهم محمدًا ﷺ من مكة، ما لبثوا إلا قليلًا وأخذهم العذاب يوم بدر، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول ﷻ: وإن كاد هؤلاء القوم ليستفزونك من الأرض: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتى أهلكهم بعذاب عاجل.

واختلف أهل التأويل في الذين كادوا أن يستفزّوا رسول الله ﷺ ليخرجوه من الأرض وفي الأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها، فقال بعضهم: الذين كادوا أن يستفزوا رسول الله ﷺ من ذلك اليهود، والأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها المدينة.

وأورد بإسنادٍ ضعيف جدًّا أن بعض اليهود قال للنبيّ ﷺ: إن أرض الأنبياء أرض الشام، وإن هذه ليست بأرض الأنبياء، فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

وقال آخرون: بل كان القوم الذين فعلوا ذلك قريشًا، والأرض مكة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ وقد همّ أهل مكة بإخراج النبيّ ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك لما توطنوا، ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره، ولقلما - مع ذلك - لبثوا بعد خروج نبيّ الله ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر.

ومن وجه آخر عن قتادة: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: قد فعلوا بعد ذلك، فأهلكهم الله يوم بدر، ولم يلبثوا بعده إلا قليلًا حتى أهلكهم الله يوم بدر.

وكذلك كانت سنَّة الله في الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك.

ومن وجهين يصحان بمجموعهما عن مجاهد: ﴿خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ قال: لو أخرجت قريش محمدا لعذّبوا بذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول قتادة ومجاهد، وذلك أن قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ في سياق خبر الله ﷻ عن قريش وذكره إياهم، ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ إلى أنه خبر عنهم، فهو بأن يكون خبراً عمن جرى له ذكر أولى من غيره. وأما القليل الذي استثناه الله جلّ ذكره في قوله: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ فإنه فيما قيل، ما بين خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى أن قتل الله من قتل من مشركيهم ببدر.

ويقول تعالى ذكره: لو أخرجوك لم يلبثوا خلافك إلا قليلًا ولأهلكناهم بعذاب من عندنا، سنتنا فيمن قد أرسلنا قبلك من رسلنا، فإنا كذلك كنا نفعل بالأمم إذا أخرجت رسلها من بين أظهرهم، ونصبت السنة على الخروج من معنى قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ لأن معنى ذلك: لعذّبناهم بعد قليل كسنتنا في أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسنتنا تحويلًا عما جرت به.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾: أي سنة الأمم والرسل كانت قبلك كذلك إذا كذبوا رسلهم وأخرجوهم، لم يناظروا أن الله أنزل عليهم عذابه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا

برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: (خلفك) بمعنى بعدك و﴿خِلَٰفَكَ﴾ بمعنى مخالفتك، ذكره ابن الأنباري، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر، وهذا قول من ذكر أنهم قريش.

الثاني: ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير، وهذا قول من ذكر أنهم اليهود.

وقال:

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾ أي: يعذبون كسنة من قد أرسلنا، فهو نصب بإضمار يعذبون، فلما سقط الخافض عمل الفعل، قاله الفراء، وقيل: انتصب على معنى سننا سنة من قد أرسلنا، وقيل: هو منصوب على تقدير حذف الكاف، التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلًا كسنة من قد أرسلنا، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويقف على الأول والثاني. ﴿قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ وقف حسن، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: لا خلف في وعدها.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلًا حتى تحل بهم العقوبة، كما

هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلًا حتى أوقع الله بهم بـ«بدر» وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقًا لربه، أن يثبته على الإيمان، ساعيًا في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ فكيف بغيره؟ وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم -عند وجود أسباب الشر- بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.



الحث على إقامة الصلوات والإشارة إلى الصلوات الخمس

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: أقم الصلاة من دلوك الشمس أي: من زوال الشمس عن منتصف السماء إلى غسق الليل ظلامه وبرده، وهذا يشمل

صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فدلوك الشمس زوالها من منتصف السماء، وهو وقت الظهر إذا زالت الشمس أي: مالت.

وقوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: من وقت دلوك الشمس إلى وقت دخول الليل بظلامه وبردِهِ (أعني البرد الذي في الليل).

هذا، وإن كان من أهل العلم من ذهب إلى أن دلوك الشمس هو غروبها، والقول الذي استظهره هو القول الأول والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أي: وأقم الصلاة إلى الفجر الذي يُقرا فيه القرآن جهرًا (أعني صلاة الفجر) ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: القرآن الذي يُقرأ في صلاة الفجر ﴿كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ تشهده الملائكة وتستمع إليه فإن الملائكة تجتمع في صلاتي الفجر والعصر كما جاءت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

وقد صح الخبر أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ تشهده الملائكة[(١)].

والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يا محمد ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾.

واختلف أهل التأويل في الوقت الذي عناه الله بدلوك الشمس، فقال بعضهم: هو وقت غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذ: صلاة المغرب.

وأورد من طرق تصح عن ابن مسعود أنه قال: يذهب على أن دلوك الشمس غروبها منها ما أورده بسندٍ صحيح[(١)].

(١) صحيح: وسيأتي إن شاء الله.

(١) وله طرق عن ابن مسعود.

(٦٦٢) أحمر
أسود

عن عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه، أنه كان مع عبد الله بن مسعود، على سطح حين غربت الشمس، فقرأ ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾. حتى فرغ من الآية، ثم قال: والذي نفسي بيده إن هذا لَحِينَ دَلَكَتِ الشمس وأفطر الصائم ووقت الصلاة[١].

ومن وجه آخر بسندٍ صحيح: عن عقبة بن عبد الغافر، أن أبا عُبيدة بن عبد الله كتب إليه أن عبد الله بن مسعود كان إذا غربت الشمس صلى المغرب. ويفطر عندها إن كان صائمًا، ويقسم عليها يمينًا ما يقسمه على شيء من الصلوات بالله الذي لا إله إلا هو، إن هذه الساعة لميقات هذه الصلاة، ويقرأ فيها تفسيرها من كتاب الله ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾.

ومن وجه ثالث بسندٍ صحيح عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: هذا دلوك الشمس، وهذا غسق الليل، وأشار إلى المشرق والمغرب.

وبسندٍ صحيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دلوك الشمس غروبها، يقول دلكت براح.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ قال: كان أبي يقول: دلوكها: حين تريد الشمس أن تغرب إلى أن يغسق الليل، قال: هي المغرب حين يغسق الليل، وتَدلُك الشمس للغروب.

قال الطبري:

وقال آخرون: دلوك الشمس: ميلها للزوال، والصلاة التي أمر رسول الله ﷺ بإقامتها عند دلوكها: الظهر.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن ابن يزيد، عن عبد الله، قال: دلوكها: ميلها، يعني الشمس.

(١) ويشهد له ما قبله.

قلت: (وما تقدم عن ابن مسعود في أن دلوكها غروبها أصح من هذا والطرق إلى ابن مسعود فيه أكثر).

وأورد بسندٍ فيه مقال عن ابن عباس قال في قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ قال: دلوكها زوالها.

وأورد بسنده[1] إلى ابن عمر قال: دلوكها ميلها.

وبسندٍ صحيح عن الحسن قال: دلوكها زوالها.

ومن طريق الزهري[2] عن ابن عباس دلوك الشمس زيغها بعد نصف النهار، يعني: الظل.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة قال: أي: إذا زالت الشمس عن بطن السماء لصلاة الظهر.

وبسندين يصحان بمجموعهما عن مجاهد: دلوك الشمس حين تزيغ.

واختار الطبري أن دلوك الشمس صلاة الظهر، قال: وذلك أن الدلوك في كلام العرب الميل.

واستشهد الطبري لرأيه ببعض الاستشهادات وببعض الأحاديث في أسانيدها ضعف، وقال:

فإذا كان صحيحًا ما قلنا بالذي به استشهدنا، فبين إذن أن معنى قوله جلّ ثناؤه ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ أن صلاة الظهر والعصر بحدودهما مما أوجب الله عليك فيهما لأنهما الصلاتان اللتان فرضهما الله على نبيّه من وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل، وغسق الليل: هو إقباله

(١) وذلك من طريق موسى بن عبد الرحمن قال: ثنا أبو أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن نافع عن ابن عمر به.

(٢) وهو صحيح عن الزهري لكن ينظر في سماعه من ابن عباس.

ودنوه بظلامه، كما قال الشاعر:

آبَ هَـــــذَا اللَّيْـــــلُ إِذْ غَسَـــــقَا

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف منهم في الصلاة التي أمر رسول الله ﷺ بإقامتها عنده، فقال بعضهم: الصلاة التي أمر بإقامتها عنده صلاة المغرب.

وأورد بسندٍ صحيح عن عكرمة قال: وقد سئل عن هذه الآية ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ قال: بُدو الليل.

وبإسنادين يصحان بمجموعهما عن مجاهد قال: غسق الليل غروب الشمس.

وعن قتادة نحوه بسندين يصحان أيضًا بمجموعهما.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد قال: (ظلمة الليل).

وقال آخرون: هي صلاة العصر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: الصلاة التي أمر النبيّ ﷺ بإقامتها عند غسق الليل، هي صلاة المغرب دون غيرها، لأن غسق الليل هو ما وصفنا من إقبال الليل وظلامه، وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس. فأما صلاة العصر، فإنها مما تقام بين ابتداء دلوك الشمس إلى غسق الليل، لا عند غسق الليل.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ فإن معناه وأقم قرآن الفجر: أي ما تقرأ به صلاة الفجر من القرآن، والقرآن معطوف على الصلاة في قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾.

وكان بعض نحويي البصرة يقول: نصب قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ يقول: أن ما تقرأ به في صلاة الفجر من القرآن كان مشهودا، يشهده فيما ذكر ملائكة الليل وملائكة النهار.

وأورد بسنده إلى[1] أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ في هذه الآية ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ قال: «**تَشْهَدُهُ مِلائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلائِكَةُ النَّهارِ**».

وأورد بسندين يصحان بمجموعهما عن قتادة قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال: صلاة الفجر.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ فإنه يقول: ملائكة الليل وملائكة النهار يشهدون تلك الصلاة.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي عُبيدة، عن عبد الله أنه قال في هذه الآية: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ قال: تنزل ملائكة النهار وتصعد ملائكة الليل.

وأورد عدة آثار في أن المراد بقرآن الفجر صلاة الفجر وقوله: ﴿مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده الملائكة.

وأورد بسندٍ إلى أبي هريرة[2] قال: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**تَجْتَمِعُ مَلائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلائِكَةُ النَّهارِ فِي صَلاةِ الفَجْرِ**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾.

---

(١) من طريق لبيد بن أسباط، قال: ثني أبي عن الأعمش عن ابن مسعود، وعن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٢) وأخرجه البخاري (٤٧١٧)، ومسلم (٦٤٩).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته. وقال أبو عبيدة: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرقيات:

إن هـــذا الليـــل قـــد غســـقا   واشـــتكيت الهـــم والأرقـــا

وقد قيل: غسق الليل مغيب الشفق. وقيل: إقبال ظلمته. قال زهير:

ظلـت تجـود يـداها وهـي لاهيـة   حتـى إذا جـنح الإظـلام والغسـق

يقال: غسق الليل غسوقًا. والغسق اسم بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان، يقال: غسقت العين إذا سالت، تغسق. وغسق الجرح غسقانًا، أي سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أي أخر المغرب إلى غسق الليل. وحكى الفراء: غسق الليل وأغسق، وظلم وأظلم، ودجا وأدجى، وغبس وأغبس، وغبش وأغبش. وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يوم غيم: أغسق أغسق. يقول: أخر المغرب حتى يغسق الليل، وهو إظلامه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بإقامة الصلاة تامة، ظاهرًا وباطنًا، في أوقاتها. ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآنا، لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله، وملائكة الليل وملائكة والنهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض لتخصيصها بالأمر.

وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات. وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك للعذر؛ لأن الله جمع وقتهما جميعًا.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها، ركن؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.



المراد بقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وقم من الليل فصل لربك ﷻ صلاةً هي نافلة لك وللعلماء قولان مشهوران في قوله ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾:

أحدهما: فريضةً عليك زيادة على الفرائض التي هي الصلوات الخمس، فعليه يكون قيام الليل فرضًا على رسول الله ﷺ زيادة على الصلوات الخمس، ويكون هذا خاصًّا به صلوات الله وسلامه عليه.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادة لك في الأجر ورفعةً لك في الدرجات، فأمتك إن صلَّت من الليل كانت صلاتها كفارات للسيئات ومغفرة للذنوب، أما أنت فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فصلاتك من الليل، تجعلك عبدًا شكورًا ترتفع درجاتك. والله أعلم.

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ أي: ليبعثك الله يوم القيامة إذا

(٦٦٨) أحمر
أسود

أنت قمت من الليل تصلي نافلة لك؛ ليبعثك يوم القيامة ويوقفك موقفًا تحمدك فيه الخلائق أجمع، وأكثر أهل العلم على أن هذا المقام المحمود هو الشفاعة العظمى للفصل بين العباد يوم القيامة إذا دنت الشمس من رؤوس الخلائق وبلغ من الكرب والهم ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيذهبون للأنبياء طالبين الشفاعة فيعتذر الأنبياء عنها، كلٌّ يقول نفسي نفسي فيذهبون إلى رسول الله ﷺ فيخر ساجدًا ثم يقال له: «**ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه**...» الحديث، وقد تقدم بطوله في تفسيره لسورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ...﴾.

هذا، وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن ﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله واجبة وأيضًا وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن التهجد يكون بعد نوم، والظاهر، والله أعلم، أن هذا ليس بلازم لصلاة الليل، وذلك أنه إذا لم يكن الشخص قد نام، فله أيضًا أن يصلي من الليل قبل النوم، ومن كل الليل قد صلى النبي ﷺبل وقد أوصى بعد أصحابه بالوتر قبل النوم.

هذا، والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ فاسهر بعد نومة يا محمد بالقرآن، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة من الليل. وأما الهجود نفسه: فالنوم.

ثم أورد بأسانيد صحيحة عن علقمة والأسود وعبد الرحمن بن الأسود أنهم قالوا: التهجد: بعد نومةٍ.

وقال الطبري:

وأما قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فإنه يقول: نفلًا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك.

واختُلف في المعنى الذي من أجله خصّ بذلك رسول الله ﷺ، مع كون صلاة كلّ مصلّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجوده قد كان أدّى فرائضه نافلة نفلًا إذ كانت غير واجبة عليه، فقال بعضهم: معنى خصوصه بذلك: هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوّع، وقيل له: أقمها نافلة لك: أي فضلًا لك من الفرائض التي فرضتها عليك عما فرضت على غيرك.

وأورد بسندٍ ضعيف جدًّا عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني بالنافلة أنها للنبيّ ﷺ خاصة، أُمر بقيام الليل وكُتب عليه.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل قيل ذلك له ﷺ لأنه لم يكن فعله ذلك يكفِّر عنه شيئًا من الذنوب؛ لأن الله تعالى كان قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر، فكان له نافلة فضل، فأما غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة.

واختار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره عن ابن عباس وإن كان السند إلى ابن عباس ضعيفًا.

وقال الطبري:

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ وعسى من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شكّ أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب

يحول بينه وبين نفعه إياه مع الإطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبه غارّ بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذ كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جلّ ثناؤه من صفته الغرور لعباده صحّ ووجب أن كلّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهى أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسى ولعلّ من الله واجبة.

وتأويل الكلام: أقم الصلاة المفروضة يا محمد في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجد فرضًا فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقامًا تقوم فيه محمودًا تحمده، وتغبط فيه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود، فقال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم.

وأورد بسندٍ صحيح عن حُذيفة، قال: يجمع الناس في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خُلقوا، قيامًا لا تكلَّم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، والشرّ ليس إليك، والمهديّ من هَدَيت، عبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك ربّ هذا البيت؛ فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى.

وبسندٍ صحيح عن الحسن قال: المقام المحمود مقام الشفاعة يوم القيامة.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن مجاهد قال في المقام المحمود: شفاعة محمد يوم القيامة.

(٦٧١) أحمر
أسود

قال الطبري:

وقال آخرون: بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله نبيّه أن يبعثه إياه، هو أن يقاعده معه على عرشه.

وأورد بسندٍ ضعيف عن مجاهد قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ قال: يُجْلسه معه على عرشه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب ما صحّ به الخبر عن رسول الله.

وأورد عدة أحاديث في أن النبي ﷺ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ ما حاصله أنها الشفاعة.

وستأتي إن شاء الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أَمْرٌ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[(١)]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ قَالَ: «**صَلَاةُ اللَّيْلِ**».

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود وإبراهيم النخعي، وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب.

ثم قال:

واختلف في معنى قوله: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة. رواه العوفي[(١)] عن

(١) مسلم (١١٦٣).

(١) وهو ضعيف.

ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رَحِمَهُ اللَّهُ، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه.

وقال:

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: صلِّ به في سائر أوقاته. ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هول الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.



س: اذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري[1] من حديث ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ».

وأخرج البخاري[2] من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ».

قلت: وراجع أحاديث الشفاعة التي أوردتها في سورة البقرة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وقل يا رسول الله: يا رب أدخلني مدخل صدق، أدخلني مُدخلًا أكون فيه في طاعتك وحفظك ومرضاتك، وأخرجني إلى مخرج أكون أيضًا فيه في طاعتك ورضوانك وحفظك، واجعل لي حجة وقوة وبيِّنة وعِزًّا أحفظ به دينك وأنافح عن دينك يكون نصيرًا لي من عندك.

هذا، وقد ذهب بعض العلماء إلى مدخل الصدق مكة ومخرج الصدق المدينة.

---

(١) البخاري (٤٧١٨).

(٢) البخاري (٦١٤).

وقال آخرون: مدخل الصدق القبر ومخرج الصدق البعث.

وقال آخرون: مدخل الصدق الجنة ومخرج الصدق الدنيا.

وهنالك أقوال أُخر كثيرة في هذا الصدد.

والصواب: والله أعلم أن هذا عام فيدخل فيه كل مدخل وكل مخرج أي: اجعل مداخلي كلها مداخل صدق ومخارجي كلها مخارج صدق.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وقل يا محمد: يا ربّ أدخلني مدخل صدق.

واختلف أهل التأويل في معنى مُدْخل الصدق الذي أمر الله نبيّه ﷺ أن يرغب إليه في أن يدخله إياه، وفي مخرج الصدق الذي أمره أن يرغب إليه في أن يخرجه إياه، فقال بعضهم: عَنَى بمُدْخل الصِّدق: مُدْخل رسول الله ﷺ المدينة، حين هاجر إليها، ومُخْرَج الصدق: مُخْرجه من مكة، حين خرج منها مهاجرًا إلى المدينة.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن، في قول الله: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ قال: كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، أو يطردوه، أو يُوثِقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أخرجه الله من مكة إلى الهجرة بالمدينة.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ قال: المدينة حين هاجر إليها، ومخرج صدق: مكة حين خرج منها مخرج صدق، قال ذلك حين خرج مهاجرًا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقل ربّ أمتني إماتة صِدْق، وأخرجني بعد الممات من قبري يوم القيامة مُخْرج صدق.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مُدْخل صدق، وأخرجني منه مُخْرَج صدق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني مدخل صدق: الجنة، وأخرجني مخرج صدق: من مكة إلى المدينة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني في الإسلام مُدْخل صدق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني مكة آمنًا، وأخرجني منها آمنًا.

قال الطبري:

وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معنى ذلك: وأدخلني المدينة مُدْخل صدق، وأخرجني من مكة مُخْرج صدق.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن ذلك عقيب قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾. وقد دللنا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهل مكة؛ فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ﷺ، ليخرجوه عن مكة، كان بيِّنًا، إذ كان الله قد أخرجه منها، أن قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أمر منه له بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي هَمَّ المشركون بإخراجه منها مُخْرج صدق، وأن يدخله البلدة التي نقله الله إليها مُدْخل صدق.

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾. اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: واجعل لي ملكًا ناصرًا ينصرني على من ناوأني، وعِزًّا أقيم به دينك، وأدفع به عنه من أراده بسوء.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الحسن، في قول الله ﷻ ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ يُوعِده لَيَنزعَنَّ مُلك فارس، وعزّ فارس، وليجعلنه له، وعزّ الرّوم، ومُلك الروم، وليجعلنه له.

وبسندٍ حسن عن قتادة، في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ وإن نبيّ الله علم أن لا طاقةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ﷻ، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك حجة بينة.

وبإسنادٍ يصح من وجهين عن مجاهد: ﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ قال: حجة بينة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك أمر من الله تعالى نبيّه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطانًا نصيرًا له على من بغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده.

وإنما قلت ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون هموا به من إخراجه من مكة، فأعلمه الله ﷻ أنهم لو فعلوا ذلك عوجلوا بالعذاب عن قريب، ثم أمره بالرغبة إليه في إخراجه من بين أظهرهم إخراج صدق يحاوله عليهم، ويدخله بلدة غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخولها إليها، وأن يجعل له سلطانًا نصيرًا على أهل البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلّ من كان لهم شبيهًا، وإذا أوتي ذلك، فقد أوتي لا شكّ حجة بينة.

وأما قوله: ﴿نَصِيرًا﴾ فإن ابن زيد كان يقول فيه، نحو قولنا الذي قلنا فيه.

وأورد بسند صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾

قال: ينصرني، وقد قال الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ هذا مقدّم ومؤخَّر، إنما هو سلطان بآياتنا فلا يصلون إليكما.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قيل: المعنى أمتني إماتة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق، ليتصل بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾. كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهي. وقيل: علمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن، فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي: اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتها الأمر.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا على جميع ما آتيه وما أذره.

وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيرًا ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له -على كل حالة من أحواله- دليلًا ظاهرًا، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.



ظهور الحق وقمع الباطل
والبيان عن أن القرآن شفاء ورحمة لأهل الإيمان

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقل يا رسول الله جاء الحق الذي هو القرآن، والذي هو الإيمان والهدى، والذي هو القوة التي أيد الله بها المؤمنين فجاء الحق مؤيدًا بالقوة، وجاء الحق مؤيدًا بالحجة، وجاء الحق الذي هو التوحيد وأهله، وذهبت الأصنام وزمانها وعبادها وأولياؤها، وذهب الباطل وانصرف مضمحلًّا مهزومًا مخذولًا إن الباطل كان في ذهاب واضمحلال وزوال.

أما قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: وننزل من القرآن آيات فيها:

* شفاءٌ لأهل الإيمان والتصديق، شفاء من الشك والريب والنفاق.
* شفاءٌ من الأمراض البدنية كذلك.
* شفاء كذلك من الجهل والكفر والضلال والحيرة والانحراف.
* ورحمة لأهل الإيمان، ننزل من القرآن آيات تُحذر المؤمنين من العذاب فيرحمهم الله بها من عذابه في الدنيا والآخرة.
* آيات فيها إرشاد للخير فيعملون بها فيُرحمون في الدنيا والآخرة.
* آيات فيها هدى فيهتدون بها فيُرحمون في الدنيا والآخرة.
* أما أهل الكفر فلا يزدادون بهذا القرآن إلا زيفًا وضلالًا وخسارًا!!
* ذلك بأنهم كلما تُليت عليهم آيةٌ كذبوا بها وأنكروها فازدادوا بتكذيبهم خسارًا، وحملوا بتكذيبهم آثامًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين كادوا أن يستفزوك من الأرض ليخرجوك منها ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى الحقّ الذي أمر الله نبيّه ﷺ أن يُعْلم المشركين أنه قد جاء، والباطل الذي أمره أن يعلمهم أنه قد زَهَق، فقال بعضهم: الحقّ: هو القرآن في هذا الموضع، والباطل: هو الشيطان.

وأورد سند ذلك عن قتادة: وهو حسن.

وقال آخرون: بل عُنِي بالحقّ جهاد المشركين وبالباطل الشرك.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن مسعود، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثُمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾[(١)].

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر الله تبارك وتعالى نبيّه ﷺ أن يخبر المشركين أن الحقّ قد جاء، وهو كلّ ما كان لله فيه رضًا وطاعة، وأن الباطل قد زهق: يقول: وذهب كلّ ما كان لا رضا لله فيه ولا طاعة مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أن الحقّ هو كلّ ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل: هو كلّ ما وافق طاعته، ولم يخصص الله عز ذكره بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عمّ الخبر عن مجيء جميع الحقّ، وذهاب جميع الباطل، وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول الله ﷺ أهل الشرك بالله، أعني على إقامة جميع الحقّ، وإبطال جميع الباطل.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ فإن معناه: ذهب الباطل، من قولهم: زَهَقت نفسه: إذا خرجت وأزهقتها أنا؛ ومن قولهم: أزهق السهم: إذا جاوز الغرض فاستمرّ على جهته، يقال منه: زهق الباطل، يزهَق زُهوقا، وأزهقه الله: أي

(١) صحيح، وأخرجه البخاري وسيأتي قريبًا إن شاء الله.

أذهبه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وأورد ما أخرجه البخاري[(١)] من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، **جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**».

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يستشفى به من الجهل من الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون الكافرين به؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله، ويحرّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ يقول: ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارا: يقول: إهلاكا، لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خسارًا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجسا إلى

(١) البخاري (٤٧٢٠) (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١).

رجسهم قبلُ.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ به ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ -وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد- إنه: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدا وتكذيبا وكفرا. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات في ذلك كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلن، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة ورواج إذا لم يقابله الحق فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته.

وقوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

أي: فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة.

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها. وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله.



س: هل يُستشفى بالقرآن من الأمراض البدنية؟

ج: نعم يستشفى به منها أيضًا، وقد كان النبي ﷺ إذا اشتكى نفث في يديه بالمعوذات ومسح بها رأسه وما استطاع من جسده(١).

وكذلك فمن أنواع الاستشفاء الاستشفاء بالرقية والأدلة على ذلك كثيرة.



بيان حال كثير من الناس مع نعم الله عليهم، وأن النعيم سبب في طغيانهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾.

ج: يبين الله ﷻ حال الإنسان والجبلة التي جُبل عليها أكثر الناس، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، قيل: المراد الإنسان الكافر أو الإنسان عمومًا إلا من رحم الله، إذا أنعمنا عليه ووسعنا عليه في المال والولد والصحة والعافية والمنصب والجاه إذا به يُعرض عن طريق الله سبحانه وتعالى وينحرف إلا القليل، فقليل من العباد شكور.

فقوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أعرض عن طاعتنا وابتعد بنفسه عنها.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أصابه الضر في ماله أو بدنه أو أهله، أو غير ذلك ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ قانطًا من رحمة الله يظن أن لا انفراج والأدلة على ذلك كثيرةٌ جدًّا، قدمت عددًا منها عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

أي: أنه إذا رأى نفسه مستغنيًا عن الناس بدأ في الطغيان.

وعند قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٨].

(١) صحيح، وسيأتي بتفصيل إن شاء الله في تفسير سورتي المعوذتين وكذا الإخلاص.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، فنجّيناه من كرب ما هو فيه في البحر، وهو ما قد أشرف فيه عليه من الهلاك بعصوف الريح عليه إلى البرّ، وغير ذلك من نعمنا، ﴿أَعۡرَضَ﴾ عن ذكرنا، وقد كان بنا مستغيثًا دون كلّ أحد سوانا في حال الشدّة التي كان فيها ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ يقول: وبعد منا بجانبه، يعني بنفسه، ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] قبل ذلك.

وأورد بإسنادين يصحان بمجموعهما عن مجاهد، في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قال: تباعد منا.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ يقول: وإذا مسه الشرّ والشدّة كان قنوطًا من الفرج والروْح.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: إذا مسه الشرّ أَيس وقَنط.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه.

قال مجاهد: بعد عنا.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر -وهو المصائب والحوادث والنوائب- ﴿كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ أي: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود: ٩- ١١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن الإنسان- عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ من الخير قد قطع ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا.

وأما من هداه الله فإنه- عند النعم -يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾

يبين الله ﷻ حال الإنسان والجبلة التي جُبل عليها أكثر الناس، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، قيل: المراد الإنسان الكافر أو الإنسان عمومًا إلا من رحم الله، إذا أنعمنا عليه ووسعنا عليه في المال والولد والصحة والعافية والمنصب والجاه إذا به يُعرض عن طريق؛ بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه إذا أنعم على الإنسان بالصحة والعافية والرزق أعرض عن ذكر الله وطاعته، ونأى بجانبه، أي تباعد عن طاعة ربه، فلم يمتثل أمره، ولم يجتنب نهيه.

وقال الزمخشري: أعرض عن ذكر الله كأنه مستغن عنه، مستبد بنفسه ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه، ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك

(٦٨٦) أحمر
أسود

من عادة المستكبرين. واليؤس: شديد اليأس، أي القنوط من رحمة الله.

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله «في سورة هود»: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ٩، ١٠] وقوله في «آخر فصلت»: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٤٩-٥١]، وقوله: «في سورة الروم»: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ [الروم: ٣٣]، وقوله فيها أيضا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم: ٣٦]، وقوله «في سورة يونس»: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ الآية، وقوله «في سورة الزمر»: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٨] الآية، وقوله فيها أيضا: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾ [الزمر: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد استثنى الله من هذه الصفات عباده المؤمنين في قوله «في سورة هود»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ١١] كما تقدم إيضاحه. وقرأ ابن ذكوان «وناء» كجاء، وهو بمعنى نأى ؛ كقولهم: راء، في: رأى.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء كل يعمل وفق دينه الذي يتدين به وعلى طريقته التي هو عليها، فأهل التوفيق والطاعة والإيمان والنوايا الحسنة يعملون على طريقتهم التي يقتضيها إيمانهم ودينهم وامتثالهم لأمر الله ﷻ، وأهل الكفر والعصيان والجحود والنكران يعملون وفق ما هم عليه من الكفر والعصيان، والجحود والنكران ﴿فَرَبُّكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ أعلم بمن سلك الطريق الأوفق والسبيل الأرشد الموصل إلى جنات الله ومرضاته. ولا شك أن أفضل السبل وأحسن الطرق هي الطريق التي أرشد الله العباد إليها، وذلك بالاستقامة على أمره واجتناب نهيه واتباع رسوله وكتابه.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول ﷻ لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس: كلكم يعمل على شاكلته: على ناحيته وطريقته ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ﴾ منكم ﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ يقول: ربكم أعلم بمن هو منكم أهدى طريقًا إلى الحقّ من غيره.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال: على ناحيته وعلى ما ينوي.

وقال آخرون: الشاكلة: الدِّين.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال: على دينه، الشاكلة: الدين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال

(٦٨٨) أحمر
أسود

مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية -والله أعلم- تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢] ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كانوا من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ
عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾
قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ
لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن
زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ
قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ
مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا
﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا

بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ
كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ
رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

[الإسراء: ٨٥-١٠٠]

(٦٩١) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - وَكِيلًا - ظَهِيرًا - صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ - فَأَبَى - كُفُورًا - تَفْجُرَ لَنَا - يَنْبُوعًا - فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ - كِسَفًا - قَبِيلًا - زُخْرُفٍ - تَرْقَى - لِرُقِيِّكَ - سُبْحَانَ رَبِّي - أَوْلِيَاءَ - وَنَحْشُرُهُمْ - وَبُكْمًا - وَصُمًّا - خَبَتْ - سَعِيرًا - وَرُفَاتًا - لَا رَيْبَ فِيهِ - كُفُورًا - لَأَمْسَكْتُمْ - خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ - قَتُورًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾	لنجعلن القرآن يذهب من صدرك فلا تدري عنه شيئًا.
﴿وَكِيلًا﴾	من يتوكل عنك لدينا لإرجاعه لك وناصرًا – مدافعًا عنك.
﴿ظَهِيرًا﴾	معاونًا – مُعينًا.
﴿صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾	نوعنا للناس – ذكرنا للناس.
﴿فَأَبَى﴾	فامتنع مُصرًّا – فأصرَّ.
﴿كُفُورًا﴾	جحودًا لوحدانية الله وإنكارًا لنعمه ﷻ.
﴿تَفْجُرَ لَنَا﴾	تفتح لنا فتحة في الأرض يخرج منها الماء بغزارة.
﴿يَنْبُوعًا﴾	عينًا (فتحة من الأرض يخرج منها الماء).
﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾	تُجري الأنهار بين أشجارها.
﴿كِسَفًا﴾	قطعًا.

(٦٩٢) أحمر
أسود

﴿قَبِيلًا ﴾	عيانًا – نراهم بأعيينا – كل قبيلة بمفردها ترى الله من الملائكة.
﴿زُخْرُفٍ ﴾	ذهب.
﴿تَرْقَىٰ ﴾	تصعد على درج.
﴿لِرُقِيِّكَ ﴾	لصعودك.
﴿سُبْحَانَ رَبِّي ﴾	تنزه ربي (عن العجز والضعف وعن الشريك والمثيل والند والصاحبة والولد وتنزه عن كل عيب ونقص وتنزه عن كل ما لا يليق به).
﴿أَوْلِيَآءَ ﴾	أنصارًا.
﴿وَنَحْشُرُهُمْ ﴾	نجمعهم.
﴿وَبُكْمًا ﴾	لا يتكلمون.
﴿وَصُمًّا ﴾	لا يسمعون.
﴿خَبَتْ ﴾	سكنت – هدأت.
﴿سَعِيرًا ﴾	اشتعالًا – نارًا تلهب.
﴿وَرُفَٰتًا ﴾	تُرابًا.
﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾	لا شك فيه وأنه آتٍ.
﴿ كُفُورًا ﴾	جحودًا.
﴿لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾	لامتنعتم عن الإنفاق.
﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾	خوف الفقر والفاقة.
﴿قَتُورًا ﴾	بخيلًا ممسكًا.

س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾؟

ج: أخرج البخاري ومسلم وأحمد[1] من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْث، وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلوهُ فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فلم يرد عليه شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...﴾ الآية؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: ويسألونك عن الروح التي تجري في البدن ويحيا بها الشخص، ما هي هذه الروح؟ وكيف شأنها؟ وما أمرها؟ وكان السائلون آنذاك هم اليهود، فقل لهؤلاء السائلين عن الروح إن أمرها وشأنها وأحوالها وما يتعلق بها أمرٌ موكولٌ إلى الله ﷻ، والعلم بها موكولٌ إلى الله لا يعلمه إلا هو ﷻ، فهو من الأمور التي استأثر الله ﷻ بالعلم بها، وليست هي وحدها التي تجهلونها، بل ثَمَّ أمور كثيرة جدًّا تجهلونها أيضًا فالعلم الذي أوتيتموه قليل جدًّا بالنسبة لعلم الله ﷻ، فكما قال الخضر لموسى عليهما السلام لما رأيا عصفورًا ينقر بمنقاره في البحر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله ﷻ إلا كما نقص العصفور بمنقاره من البحر، وسيأتي الحديث بلفظه في سورة الكهف إن شاء الله.

* هذا، ومن العلماء من قال إن الروح التي سألوا رسول الله ﷺ عنها هو جبريل عليه السلام، إذ الله قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

(١) البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤) بنحوه، وأحمد (١/ ٤٤٤).

(٦٩٤) أحمر
أسود

وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وقال آخرون: إنه ملك من الملائكة، كما هو أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤].

وقيل غير ذلك.

والظاهر – والله أعلم – أن الروح التي سألوا عنها هي التي تحيا بها الأبدان، وأن العلم بها موكول إلى الله ﷻ، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ويسألك الكفار بالله من أهل الكتاب عن الروح ما هي؟ قل لهم: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا قليلًا.

قال الطبري:

واختلف أهل التأويل في الروح الذي ذُكِر في هذا الموضع ما هي؟ فقال بعضهم: هي جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال آخرون: هي مَلك من الملائكة.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فإنه يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله ﷻ دونكم، فلا تعلمونه ويعلم ما هو.

وأما قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنيّ بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقال بعضهم: عنى بذلك: الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضمّ غير المخاطب إلى المخاطب، خرج الكلام على المخاطبة؛ لأن العرب كذلك تفعل إذا اجتمع في الكلام مخبر عنه غائب ومخاطب، أخرجوا الكلام خطابًا للجمع.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الروح خاصة دون غيرهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: خرج الكلام خطابًا لمن خوطب به، والمراد به جميع الخلق؛ لأن علم كلّ أحد سوى الله وإن كثر في علم الله قليل.

وإنما معنى الكلام: وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلًا من كثير مما يعلم الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والمعنى: أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة، أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾.



التذكير بنعم الله وقدرته وفضله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

ج: يُذكِّر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ بنعمته التي أنعم بها عليه من إيحاء هذا القرآن إليه ويُذكره أيضًا بقدرته على رفع هذا القرآن من صدره ومحو العلم به من قلبه وعقله، فيقول تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي: لنرفعنه عنك ونجعلك كما كنت قبل نزوله عليك لا تدري ما الكتاب والإيمان، ثم إذا فعلنا ذلك بك، رفعناه عنك وحينئذٍ إذا فعلنا ذلك بك، لن تجد وكيلًا عنك يتوكل عنك عندنا ويشفع لك عندنا، ويدافع عنك عندنا، ولن تجد وكيلًا لك يرد إليك ما أخذناه منك ولا ينصرك إذا أردناك بسوءٍ أو مكروه، ولكن رحمة من ربك ﷻ بك ما فعلنا بك ذلك، ولكننا أكرمناك بحفظ ما أعطيناك إياه ولم نسلبه منك، بل ثبتناك وثبتناه في قلبك وهذا شيءٌ من فضل، وإلا ففضل الله عليك كبيرٌ وعظيم وواسعٌ في كل جانب والحمد لله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي آتيناك من العلم الذي أوحينا إليك من هذا القرآن لنذهبنّ به، فلا تعلمه، ثم لا تجد لنفسك بما نفعل بك من ذلك وكيلًا، يعني: قيِّما يقوم لك، فيمنعنا من فعل ذلك بك، ولا ناصرًا ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريد بك، قال: وكان عبد الله بن مسعود يتأوّل معنى ذهاب الله ﷻ به رفعه من صدور قارئيه.

ويقول ﷻ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ولكنه لا يشاء ذلك، رحمة من ربك وتفضلًا منه عليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تحصى.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

ج: يبين الله ﷻ شيئًا من فضل هذا القرآن العظيم وكريم منزلته وإعجازه لمن حاول أن يأتي بشيء من مثله، فيقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المشركين المكذبين، ولغيرهم من البشر، قل لئن اجتمعت الإنس والجن وتعاونوا فيما بينهم على أن يأتوا بقرآن مثل هذا القرآن فلن يستطيعوا أن يأتوا بقرآن مثله، ولو كان بعضهم معينًا لبعض أي: ولو كانوا كلهم متحدين متعاونين فيما بينهم لا تخالف بينهم، فإنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بآية من مثل آيات هذا الكتاب العزيز.

فقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: معاونًا، والآية كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ...﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جلّ ثناؤه: قل يا محمد للذين قالوا لك: إنا نأتي بمثل هذا القرآن: لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله، لا يأتون أبدًا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض عونًا وظهيرًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ، فيما

أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولقد نوعنا في هذا القرآن من الآيات، وأوردنا فيه من جميع الأمثال للناس، فأوردنا آيات رحمة لترغيبهم وآيات عذاب لتخويفهم، وبشارات وإنذارات، وقصص للأولين واستدلالات يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته، وسقنا فيه من الأمثال ما سقناه، فضُربت أمثال لأهل الكفر، وأمثالٌ لأهل الإيمان، وأمثالٌ للحياة الدنيا وغير ذلك من الأمثال كل ذلك لعلهم يتذكرون، أو يتفكرون، أو يوقنون، فرفض أكثر الناس الإيمان، واشتد امتناعهم عن الإيمان، وأصروا على البقاء على الكفر والجحود والنكران لنعم الله ﷻ وإنكار توحيده.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، احتجاجًا بذلك كله عليهم، وتذكيرًا لهم، وتنبيها على الحقّ ليتبعوه ويعملوا به ﴿فَأَبَىٰ

أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ يقول: فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحقّ، وإنكارًا لحجج الله وأدلته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ أي: جحودا وردا للصواب.



تعنت أهل الكفر وشدة تكذيبهم

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

ج: هذا – والله تعالى أعلم-: بيانٌ لتعنت أهل الكفر وشدة تكذيبهم، بل وسخريتهم واستهزائهم إذ يقولون لرسول الله ﷺ لن نصدقك فيما تقول ولن نتبعك على ما جئت به حتى تفجر لنا من الأرض عيونًا فتفور المياه منها وتخرج جارية أو تكون لك حديقة عظيمة من نخيل وأعناب وتجعل الأنهار تتفجر فتجري وسطها جريانًا، أو تجعل السماء تتساقط علينا قطعًا، أو تأتي بالله ﷻ ومعه الملائكة فنراهم عيانًا، بأعيينا، ويأتون لكل قبيلة فتراهم كل قبيلة على حدة، تراهم كل قبيلة بمفردها، أو يكون لك بيت من ذهب، أو تصعد على سلم فتدخل في السماء، ولن نصدقك في رؤيتنا لك وأنت تدخل في السماء وتصعد إليها حتى تأتينا من السماء بكتاب من عند الله نقرؤه ونؤمر فيه باتباعك، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

فقل يا رسول الله لهؤلاء المشركين المتعنتين المتشددين المُصرين على البقاء على الكفر، الذي طلبوا ما طلبوه ومن طلباتهم أن يروا ربهم عيانًا بأعينهم في الدنيا قل لهم تنزه ربي ﷻ عن أن يأتيكم كي ترونه بناءً على طلبكم وتنزه ربي عن العجز والضعف، فربي على كل شيء قدير وتنزه ربي عن الشريك والند والمثيل والصاحبة والولد تنزه ربي عن أن أتدخل في شؤونه أو أفرض عليه أمرًا فما أنا إلا بشر ولكني رسول من عند الله أبلغكم ما أرسلني

الله به إليكم ليس لي من الأمر شيء إنما عليَّ البلاغ وقد أديته لكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال يا محمد، المشركون بالله من قومك لك: لن نصدّقك، حتى تفجر لنا من أرضنا هذه عينا تنبع لنا بالماء.

وقوله ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يفعول من قول القائل: نبع الماء: إذا ظهر وفار، ينْبُع ويَنْبَع، وهو ما نبع.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾: أي حتى تفْجُر لنا من الأرض عيونا: أي ببلدنا هذا.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقال لك يا محمد مشركو قومك: لن نصدّقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا، تَدفَّق بالماء أو تفور، أو يكون لك بستان، وهو الجنة، من نخيل وعنب، فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيرا بأرضنا هذه التي نحن بها خلالها، يعني: خلال النخيل والكروم، ويعني بقوله ﴿خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ بينها في أصولها تفجيرا بسبب أبنيتها.

وأورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة في قوله: ﴿كِسَفًا﴾ قطعًا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره عن قيل المشركين لنبيّ الله ﷺ: أو تأتي بالله يا محمد والملائكة قبيلا.

واختلف أهل التأويل في معنى القبيل في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: حتى يأتي الله والملائكة كلَّ قبيلة منا قبيلة قبيلة، فيعاينونهم.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن مجاهد قال: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ قال: قبائل على حدتها كل قبيلة.

قال الطبري: وقال آخرون: معنى ذلك: أو تأتي بالله والملائكة عيانا نقابلهم

مقابلة، فنعاينهم معاينة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة نعاينهم معاينة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرا عن المشركين الذين ذكرنا أمرهم في هذه الآيات: أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب، وهو الزخرف.

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: أو تصعد في درج إلى السماء، وإنما قيل في السماء، وإنما يرقى إليها لا فيها، لأن القوم قالوا: أو ترقى في سلم إلى السماء، فأدخلت «في» في الكلام ليدلّ على معنى الكلام، يقال: رَقِيت في السلم، فأنا أرقَى رَقيا ورِقيا ورُقيا، كما قال الشاعر:

أنتَ الَّذِي كَلَّفْتَنِي رَقْيَ الدَّرْج ... عَلَى الكلالِ والمَشِيبِ والعَرْجِ

وقوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ يقول: ولن نصدّقك من أجل رُقِيك إلى السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ منشورا نَقْرَؤُهُ فيه أمرنا باتباعك والإيمان بك.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن مجاهد، قوله: ﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال: من ربّ العالمين إلى فلان، عند كلّ رجل صحيفة تصبح عند رأسه يقرؤها.

وبسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾: أي كتابا خاصا نؤمر فيه باتباعك.

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك هذه الأقوال، تنزيها لله عما يصفونه به، وتعظيما له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألونيه ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها

خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ أي: أنهارًا جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعًا من العذاب، ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ أي: جميعًا، أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ رقيًّا حسيًّا، ومع هذا فـ ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾

ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات؛ وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ عما تقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ ليس بيده شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا.

وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

بين الله جل وعلا في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم، وكثرة

اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق ؛ فذكر أنهم قالوا له ﷺ: إنهم لن يؤمنوا له – أي: لن يصدقوه – حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعا، وهو يفعول من: نبع، أي: ماء غزير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ﴾، أي بستان من نخيل وعنب، فيفجر خلالها – أي وسطها – أنهارا من الماء، أو يسقط السماء عليهم كسفا: أي قطعا كما زعم، أي في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: ٩] الآية، أو يأتيهم بالله والملائكة قبيلا: أي معاينة. قاله قتادة وابن جريج، كقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال بعض العلماء: قبيلا: أي كفيلا ؛ من تقبله بكذا: إذا كفله به. والقبيل والكفيل والزعيم بمعنى واحد.



(٧٠٥) أحمر
أسود

تعليل الكفار لعدم إيمانهم بأن الرسول ﷺ بشر

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

ج: يبين الله ﷻ سبب امتناع كثيرين من الناس عن الإيمان ورفضهم له، فيقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ أي: بالله وحده لا شريك له ويصدقوا رسله لما جاؤهم بالهدى من عند الله إلا تعللهم بأن الرسول من البشر، فقالوا: كيف يكون الرسول الذي أرسله الله ﷻ بشرًا من أمثالنا ويهدينا، وذلك كما في قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وكما قال قوم فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].. إلى غير ذلك من الآيات.

فقال تعالى: ﴿ قُل ﴾ يا رسول الله ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ في طمأنينة، يمشون كما تمشون في الأرض ويسكنونها كما تسكنونها لنزلنا عليهم من السماء ملكًا من جنسهم يكون رسولًا إليهم، كما أننا أرسلنا إليكم رسولًا من أنفسكم فلا يصلح أن تكونوا بشرًا وينزل عليكم ملك لا ترونه أو ترونه فتستنكرون هيئته أو تخشونه ولا تطيقون تحمله فيزداد الأمر عليكم التباسًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾. [الأنعام: ٩]

ثم أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين وكفى بالله شهيدًا، على صدقي وعلى أنه أرسلني، وشهيدًا عليكم بتكذيبكم لي إنه ﷻ ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ بأموالهم ﴿بَصِيرًا﴾ مطلقًا ناظرًا إليهم وإلى أعمالهم وأقوالهم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما منع يا محمد مشركي قومك الإيمان بالله، وبما جئتهم به من الحقّ ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يقول: إذ جاءهم البيان من عند الله بحقيقة ما تدعوهم وصحة ما جئتهم به، إلا قولهم جهلا منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ فإن الأولى في موضع نصب بوقوع منع عليها، والثانية في موضع رفع، لأن الفعل لها.

ويقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك وتصديقك فيما جئتهم به من عندي، استنكارا لأن يبعث الله رسولا من البشر: لو كان أيها الناس في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لَنزلْنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصّه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولا أرسلناه منهم ملكا مثلهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد للقائلين لك ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ فإنه نعم الكافي والحاكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ يقول: إن الله بعباده ذو خبرة وعلم بأمورهم وأفعالهم، والمحقّ منهم والمُبطل، والمُهدىّ والضالّ ﴿بَصِيرًا﴾ بتدبيرهم وسياستهم وتصريفهم فيما شاء، وكيف شاء وأحبّ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو مجازٍ

جميعَهم بما قدّم عند ورودهم عليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته البشر رسلًا كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسولًا منكم لطفًا ورحمة.

ويقول تعالى مرشدًا نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذبا عليه انتقم مني أشد

الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ -٤٦].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة.



المهتدي من هداه الله
وبيان صورة من صور الحشر يوم القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم -: ومن يوفقه الله ﷻ فهو المُوفّق للخير، ولن يستطيع أحدٌ أن يضله ولا أن يصرفه عن طريق الحق والصواب والإيمان والهدى والرشاد.

والمعنى أيضًا ومن كتب الله له الهداية وسبق في علم الله أنه سيكون مؤمنًا فهذا الذي سيهتدي ويوفق إذا دعوته إلى الله ويستجيب لداعي الله عمومًا.

أما قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾، أي: ومن يصرفه الله ﷻ عن طريق الحق والصواب، فلن تجد له من يوفقه ولن تجد له ناصرًا ينصره.

وكذا من المعنى، ومن سبق له من الله أن يكون شقيًّا فلن تستطيع أن تهديه أبدًا.

مصير هذا الزائغ يوم أنه يحشر مع المحشورين المجموعين يوم القيامة على وجوههم، والذي أمشاهم في الدنيا على أرجلهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم يوم القيامة، فيحشرون على وجوههم ﴿عُمْيًا﴾ لا يرون

﴿وَبُكۡمٗا﴾ لا يتكلمون ﴿وَصُمّٗاۖ﴾ لا يسمعون، ومصيرهم الذي يصيرون إليه، ومأواهم الذي يأوون إليه هو جهنم كلما ﴿خَبَتۡ﴾ سكنت وكادت أن تنطفئ زدناهم سعيرًا، أي: ازدادت توهجًا وإحراقًا واشتعالًا.

هذا، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة مريم وفي غيرها الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا ...﴾، وبين قوله تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ﴾ [مريم: ٣٨] وحاصله أن المواقف يوم القيامة تتعدد وتتنوع والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن يهد الله يا محمد للإيمان به، ولتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك، فوفَّقه لذلك، فهو المهتد الرشيد المصيب الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده. ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن﴾ يقول: ومن يضلله الله عن الحقّ، فيخذله عن إصابته، ولم يوفقه للإيمان بالله وتصديق رسوله، فلن تجد لهم يا محمد أولياء ينصرونهم من دون الله، إذا أراد الله عقوبتهم والاستنقاذ منهم. ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ يقول: ونجمعهم بموقف القيامة من بعد تفرقهم في القبور عند قيام الساعة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ وهو جمع أبكم، ويعني بالبكم: الخُرْس.

فإن قال قائل: وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عميًا وبكمًا وصمًّا، وقد قال: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] فأخبر أنهم يرون، وقال: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣] فأخبر أنهم يسمعون وينطقون؟ قيل: جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماعًا وأبصارًا ومنطق في

أحوال أُخَر غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك.

أما قوله: ﴿عُمْيًا﴾ فلا يرون شيئا يسرّهم. وقوله: ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة، وقوله: ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئا يسرّهم، وقوله: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ومصيرهم إلى جهنم، وفيها مساكنهم، وهم وَقُودها.

وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ يعني بقوله خبت: لانت وسكنت.

وأورد عن قتادة بسندٍ يصح بطريقيه: كلما احترقت جلودهم بُدّلوا جلودا غيرها، ليذوقوا العذاب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضل له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وأورد ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم[١] من حديث أَنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!!**».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكما وعميًا وصمًّا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ أي: لهبًا ووهجًا وجمرًا،

(١) وقد آثرت إيراد رواية البخاري ولفظه، والحديث: أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

كما قال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠] (١).

قال ابن الجوزي ﴿زاد المسير﴾:

قوله تعالى: ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ فيه قولان:

أحدهما: عميًا لا يرون شيئًا يَسرُّهم، وبكمًا لا ينطقون بحجَّة، وصمًّا لا يسمعون شيئًا يسرُّهم، قاله ابن عباس. وقال في رواية: عميًا عن النظر إلى ما جعل لأوليائه، وبكمًا عن مخاطبة الله، وصمًّا عما مدح به أولياءه، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول. قال مقاتل: هذا يكون حين يقال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيصيرون عميًا بكمًا صمًّا لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ذلك الذي أعددناه لأهل الكفر من العذاب، والذي ذكرنا بعضه، وهو أنهم يحشرون يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا ومأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرًا، ذلك العذاب هو جزاؤهم الذي جازيناهم به لكونه جحدوا بآياتنا، وأنكروها وكذبوا بها وأنكروا البعث قائلين أئذا كنا عظامًا بالية متفتتة وصرنا ترابًا أنرجع أحياء مرة ثانية؟!!

(١) الظاهر – والله أعلم – أن المراد أنهم في بعض المواطن يكونون عميا، وفي بعضها يكون صُمًّا وبكمًا، وفي مواطن أخر يبصروا كي يروا ما يسؤوهم، ويسمعوا ما يسؤوهم ويتكلموا تعذيبًا لهم وازدراءً بهم.

ثم يبين الله ﷻ لهؤلاء شيئًا من قدرته على البعث ودليلًا من الأدلة على ذلك، فكما هو معلوم لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] فمن ثمَّ فالذي خلق السموات والأرض قادرٌ على إعادة البشر أحياءً بعد الممات.

فالمعنى، أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث المكذبون بالمعاد وبالثواب وبالعقاب، أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر بلا شك من خلق الناس، أولم يستدلوا بخلق السموات والأرض على قدرته إعادتهم أحياء، وقادر على خلق بشر مثلهم، وقادر كذلك على خلقه سموات أخر وأرضين أخر.

أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على إعادتهم أحياء؟ فقد جعل لهم أجلًا تقوم فيه ساعتهم، وأجلًا تنتهي عنده حياتهم في الدنيا، ولكن مع كل هذا فقد رفض أهل الكفر الإيمان واستمروا على كفرهم وضلالهم واختاروا الكفر على الإيمان.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصفنا من فعلنا يوم القيامة بهؤلاء المشركين، ما ذكرت أنا نفعل بهم من حشرهم على وجوههم عميًا وبكمًا وصما، وإصلائنا إياهم النار على ما بيَّنا من حالتهم فيها ثوابهم بكفرهم في الدنيا بآياتنا، يعني بأدلته وحججه، وهم رسله الذين دعوهم إلى عبادته، وإفرادهم إياه بالألوهة دون الأوثان والأصنام، وبقولهم إذا أُمروا بالإيمان بالميعاد، وبثواب الله وعقابه في الآخرة ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ بالية ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قد صرنا ترابًا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ يقولون: نُبعث بعد ذلك خلقًا جديدًا. كما

ابتدأناه أوّل مرّة في الدنيا استنكارًا منهم لذلك، واستعظامًا وتعجبًا من أن يكون ذلك.

ويقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القُدرة على أن يخلق مثلهم، أشكالهم وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقا جديدا، بعد أن يصيروا عظامًا ورُفاتًا، وقوله ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ يقول تعالى ذكره: وجعل الله لهؤلاء المشركين أجلًا لهلاكهم، ووقتًا لعذابهم لا ريب فيه. يقول: لا شكّ فيه أنه آتيهم ذلك الأجل ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ يقول: فأبى الكافرون إلا جحودا بحقيقة وعيده الذي أوعدهم وتكذيبًا به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقال ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١، ٨٣].

وقــال هاهنــا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ذلك العذاب جزاء كفرهم. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: ترابًا. ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلًا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. وقيل: وهو يوم القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: المشركون إلا جحودًا بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغي أن يشك فيه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من خلق السموات والأرض مع عظمهما قادر على بعث الإنسان بلا شك؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، الآية، أي ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين بالبعث المتعنتين الذي طلبوا منك – حتى يؤمنوا – أن تفجر لهم من الأرض ينبوعًا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب... الآيات.

قل لهؤلاء المشركين إن ربي كريم لا يعجزه شيء أما البخلاء فهم أنتم، ولو كانت خزائن الأرزاق وخزائن رحمة ربي بأيديكم فمن سعتها ومع عظمها الذي لا يعلمه إلا الله، لو كانت هذه بأيديكم مع أنها لن تنفد ولن تفنى، ولكن مع ذلك لو كانت بأيديكم لبخلتم ولم تعطوا الناس شيئًا خوفًا من أن تفنى ويحل بكم الفقر، وكان الإنسان بخيلًا ممسكًا إلا من رحم الله.

وفي معنى الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ

نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [النساء: ٥٣] والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال، وعنى بالرحمة في هذا الموضع: المال ﴿إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ يقول: إذًا لَبَخِلْتُمْ بِهِ فَلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار.

وأورد بسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة قال: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ خشية الفاقة.

وقال الطبري: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾﴾ يقول: وكان الإنسان بخيلا ممسكا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله صلوات الله عليه وسلامه قل لهم يا محمد: لو أنكم – أيها الناس –تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق.

قال ابن عباس، وقتادة: أي الفقر أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدا؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ قال ابن عباس، وقتادة: أي: بخيلًا منوعًا. وقال الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ -٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لا يَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض فَإِنَّهُ لَمْ يَغض مَا فِي يَمِينِهِ**».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ أي: خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ حتى نتوسع في المعيشة. أي: لو توسعتم لبخلتم أيضا. وقيل: المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى، لأمرين:

أحدهما: أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته.

الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم. والله تعالى يتعالى في جوده عن هاتين الحالتين. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر، قاله ابن عباس وقتادة. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قل ماله. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بخيلا مضيقا. يقال: قتر على عياله يقتر ويقتر قترا وقتورا إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي هذه الخزائن قولان:

أحدهما: خزائن الأرزاق.

والثاني: خزائن النِّعم، فيخرج في الرحمة قولان:

أحدهما: الرِّزق.

والثاني: النِّعمة. وتحرير الكلام: لو ملكتم ما يملكه الله ﴿ لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفاقة. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: الكافر ﴿قَتُورًا﴾ أي: بخيلًا مُمْسِكًا؛ يقال: قَتَر يَقْتُرُ، وقَتَر يَقْتِرُ: إذا قصَّر في الإنفاق. وقال الماوردي: لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى، لما جاد كجود الله تعالى، لأمرين:

أحدهما: أنه لا بد أن يُمسِك منه لنفقته ومنفعته.

والثاني: أنه يخاف الفقر، والله تعالى منزَّه في جُوده عن الحالين.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

بين تعالى في هذه الآية: أن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته – أي: خزائن الأرزاق والنعم – لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء، خوفا من الإنفاق لشدة بخلهم.

وبين أن الإنسان قتور، أي: بخيل مضيق ؛ من قولهم: قتر على عياله، أي: ضيق عليهم.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر ؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ -٢٢]. الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ التي لا تنفد ولا تبيد. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.



شيء من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ
فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢
فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ
لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤ وَبِٱلۡحَقِّ
أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى
ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ
مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩ قُلِ
ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ
وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١ ﴾

[الإسراء: ١٠١-١١١]

(٧٢٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ - بَيِّنَٰتٍ - مَسْحُورًا - بَصَآئِرَ - مَثْبُورًا - يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ - لَفِيفًا - وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ - وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ - فَرَقْنَٰهُ - مُكْثٍ - يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا - لَمَفْعُولًا - أَيًّا مَّا تَدْعُوا - بِصَلَاتِكَ - تُخَافِتْ بِهَا - وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا - وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ - وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾	تسع معجزات – تسع مؤيدات تؤيده في دعوته.
﴿بَيِّنَٰتٍ﴾	واضحات ظاهرات – مظهرات أنه نبيٌّ من عند الله، ومظهرات لوحدانية الله وقدرته.
﴿مَسْحُورًا﴾	مخدوعًا – قد سحرك ساحرٌ فهُيئت لك الأمور على غير حقيقتها – ساحرًا.
﴿بَصَآئِرَ﴾	مُنيرات – يُستبصر بها ويستضاء بها.
﴿مَثْبُورًا﴾	هالكًا – ملعونًا – مطرودًا من الرحمة.
﴿يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾	يخرجهم من الأرض.
﴿لَفِيفًا﴾	جميعًا – مختلطين ملتفٌّ بعضكم ببعض.
﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾	بالأمور التي هي حق نزل القرآن، فنزل فيه الأمر بالعدل والإحسان وكل خير وكل صدق وينهى عن الفحشاء والمنكر وكل شر.

(٧٢١) أحمر
أسود

﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾	نزل محروسًا محفوظًا لم تمسه أيدي الشياطين ولم يناله أحدٌ بزيادة أو نقصان عند نزوله.
﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾	فصلناه من اللوح المحفوظ – بيّناه ووضحناه.
﴿مُكۡثٖ﴾	مَهَل (وذلك في ثلاث وعشرين سنة).
﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾	يخرون لله ساجدين على جباههم، وليس المراد السجود على الذقن، إنما هي كلمةٌ تقال لمن خرَّ ساجدًا.
﴿لَمَفۡعُولٗا﴾	لمتحققًا واقعًا.
﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾	بأي أسماء تدعونه وتسألونه.
﴿بِصَلَاتِكَ﴾	المراد بصلاتك هنا بقراءتك.
﴿تُخَافِتۡ بِهَا﴾	تُسرُّ بها.
﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾	توسط بين الجهر والإسرار. التمس طريقًا وسطًا بين الجهر والإسرار.
﴿وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾	ناصرٌ ومتولٍّ لأمره بسبب ذل به أي: أن الله ﷻ ليس بذليل حتى يتخذ وليًّا يتعزز به، فسبحانه هو القوي العزيز الناصر، وقيل: من الذل، أي: من الخلق الذين هم جميعًا أذلاء لله أي: لم يكن له ناصرٌ ينصره لضعفه بل هو القوي العزيز. والله أعلم.
﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾	عظِّمه تعظيمًا – اعتقد وأيقن أنه أكبر من كل شيء.



س: ما هذه الآيات التسع التي آتاها الله ﷻ نبيه موسى ﷺ؟

ج: هناك آيتان لا أعلم مخالفًا من أهل العلم أنهما داخلتان في الآيات التسع وهما العصا واليد.

قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨].

وهناك خمس آيات أُخر في سورة الأعراف.

نقل ابن الجوزي في زاد المسير الاتفاق عليها من المفسرين (أي: أنها داخلة في التسع).

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣]

فهي خمسٌ أخر (الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم) فأصبح المجموع سبعًا.

قال ابن الجوزي: ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وأورد أقوالًا متعددة في الآيتين الأخيرتين.

قلت (مصطفى): فذهب فريق من العلماء إلى أن الآيتين الأخيرتين هما أخذ آل فرعون بالسنين (أي: سنوات الشدة والبلاء) ونقص الثمرات.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فالسنين ونقص الثمرات آية واحدة وهي الثامنة.

أما التاسعة فقال البعض: إنها انفلاق البحر لموسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

قلت (مصطفى): وهذه الأخيرة، وإن كانت معجزة بلا شك لكنني لا أراها داخلة في الآيات التسع؛ لأن موسى خاطبه فرعون بعدها (أي: بعد الآيات التسع) ولكن فلق البحر تبعه غرق فرعون.

ومن العلماء من قال: إن الآيتين هما أن الله ﷻ أحلَّ العقدة التي كانت بلسان موسى عليه السلام، والثانية أنها دعاء موسى بالطمس على أموالهم وأولادهم.

وهنالك أقوالٌ أُخر فتحصل أن هناك سبع متفق عليها وهي: (اليد – العصا – الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم).

وآيتان فيهما اختلاف:

أحدها: إحلال العقدة التي كانت بلسانه.

والثانية: أخذهم بالشدة والجوع ونقص الثمرات.

وهنالك أقوال أخر.

هذا، وقد ورد في هذا الباب حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ أخرجه غير واحد من أهل الحديث[1] من حديث صَفْوَانَ بْنِ عَسّالٍ الْمُرَادِيِّ، رضي الله عنه قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ حَتَّى نَسْأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ فَقَالَ: لَا تَقُلْ لَهُ: نَبِيٌّ فَإِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ لَصَارَتْ لَهُ أَرْبَعُ أَعْيُنٍ. فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا**

---

(١) أخرجه الطبري والترمذي في التفسير، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ١١١-١١٢)، وابن ماجه (٣٧٠٥) وغيرهم.

تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً -أَوْ قَالَ: لَا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ -شُعْبَةُ الشَّاكُّ -وَأَنْتُمْ يَا يَهُودُ، عَلَيْكُمْ خَاصَّةً أَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ». فَقَبَّلَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَقَالَا نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. وقَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَتَّبِعَانِي؟» قَالَا: لِأَنَّ دَاوُدَ عليه السلام دَعَا أَلَّا يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخْشَى إِنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا يَهُودُ.

وهو ضعيف الإسناد من أجل عبد الله بن سلمة وهو متكلم فيه.

قال ابن كثير رحمه الله:

وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم.

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل عبد الله بن سلمة فإن له بعض ما ينكر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك. والله أعلم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا،

(٧٢٥) أحمر
أسود

وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ولقد أيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو النبي الكليم الذي اصطفاه الله بالرسالة والتكليم، وهو موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، أيدناه بتسع من المعجزات العظيمة في دعوته لفرعون، أيدناه بتسعٍ من الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أنه رسولٌ من عند الله، فجعلناها آيات مُعينةً له في دعوته، مُعينة له على فرعون وقومه، وقد تقدم بيان الآيات التسع (العصا – اليد – الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم) وكذا سنوات الشدة ونقص الثمرات، وهي واحدة وهي الثامنة، وكذا حل العقدة التي كانت بلسانه، وقيل: انفلاق البحر، وثَمَّ آيات أُخر، ولكن المذكورة من أعظم الآيات، وهذا فضلًا عن الآيات التي أيد الله عَزَّ وَجَلَّ بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في دعوته لبني إسرائيل وفي سيرته معهم (كالتوراة – أو الألواح – تظليل الغمام – وانفجار الحجر إلى اثنتي عشرة عينًا والمن والسلوى وغير ذلك).

أما قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فمعناه فاسأل يا رسول الله بني إسرائيل من اليهود المحيطين بك في المدينة وغيرهم، اسألهم عن صدق ما ذكرته لك واسألهم عن هذه الآيات وهل هي حق أم لا.

فماذا كان يا رسول الله بعد أن أرسلنا موسى عليه السلام بهذه الآيات إلى فرعون؟ هل آمن؟! هل صدَّق؟!!

كلا فما آمن ولا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى واتهم موسى عليه السلام باتهامات باطلة، لقد قال لموسى عليه السلام إني لأظنك يا موسى مسحورًا، قيل: مخدوعًا، وقيل: ساحرًا، فوصف موسى عليه السلام بأنه ساحر أو مسحور فأجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ أن هذه الآيات ما أنزلها إلا الله عز وجل، فأنت تعرف ذلك جيدًا يا فرعون، لكنك مكابرٌ ومكذب وجاحد، فأنت تعلم الحق ولكنك تجحده وتنكره، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

أما قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾ فمعناه أنها موضحات للناس صدق موسى عليه السلام في رسالته، وفي دعواه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فهي بصائر يستبصر بها من أراد الله له الهداية.

هذا، وقول موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ أي: وإني لأوقن تمام اليقين أنك يا فرعون هالكًا بتكذيبك مطرودًا من رحمة الله مُبعدًا عنها. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى بن عمران تسع آيات بيِّنات تُبَين لمن رآها أنها حجج لموسى شاهدة على صدقه وحقيقة نبوّته.

وأورد أقوالًا نحوًا مما تقدم في بيان الآيات التسع ثم قال:

وأما قوله ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ فإن عامّة قرّاء الإسلام على قراءته على وجه الأمر بمعنى: فاسأل يا محمد بني إسرائيل إذ جاءهم موسى.

وقوله ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ يقول: فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون مرادا به إني لأظنك يا موسى ساحرًا، فوضع مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن، وقد تأوّل بعضهم حجابًا مستورًا، بمعنى: حجابًا ساترًا، والعرب قد تخرج فاعلا بلفظ مفعول كثيرًا.

وأورد الطبري وجهًا ضعيفًا من وجوه القراء في قوله: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ وصوَّب القراءة بفتح التاء وقال:

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات التسع البينات التي أريتكها حجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه، وشاهدة لي على صدق وصحة قولي، إني لله رسول، ما بعثني إليك إلا ربّ السماوات والأرض؛ لأن ذلك لا يقدر عليه، ولا على أمثاله أحد سواه، بصائر: يعني بالبصائر: الآيات، أنهنّ بصائر لمن استبصر بهنّ، وهدى لمن اهتدى بهنّ، يعرف بهنّ من رآهنّ أن من جاء بهنّ فمحقّ، وأنهنّ من عند الله لا من عند غيره، إذ كنّ معجزات لا يقدر عليهنّ، ولا على شيء منهنّ سوى ربّ السموات والأرض، وهو جمع بصيرة.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ يقول: إني لأظنك يا فرعون ملعونا ممنوعا من الخير، والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا الأمر: أي ما منعك منه، وما صدّك عنه؟ وثبره الله فهو يَثْبُرُهُ وَيُثْبِرُهُ لغتان، ورجل مثبور: محبوس عن الخيرات هالك، ومنه قول الشاعر:

إذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيّ ... وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وأورد الطبري: بسندٍ صحيح بطرقه عن ابن عباس قال: ﴿مَثۡبُورٗا﴾ ملعونًا،

(٧٢٨) أحمر
أسود

وأورد أقوالًا أُخر منها أن معناها (مغلوبًا)، ومنها مُبدِّلًا مغيِّرًا، ومنها مخبولًا لا عقل له.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ أي: ساحرًا بغرائب أفعالك، قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضع الفاعل، كما تقول: هذا مشئوم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل مخدوعا. وقيل مغلوبا، قاله مقاتل. وقيل غير هذا.

وقال في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني الآيات التسع. و﴿أَنزَلَ﴾ بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته.

وقراءة العامة: ﴿عَلِمۡتَ﴾ بفتح التاء خطابًا لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي يعلم، فبلغت ابن عباس فقال: إنها ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤]. ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس، ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن علي لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كلثوم المرادي وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائي.

وقال أيضًا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضًا.

(٧٢٩) أحمر
أسود

وأورد أقوالًا أخر.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ الآية، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر، أي حججا واضحة، وذلك يدل على أن قول فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩]، وقوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣] كل ذلك منه تجاهل عارف.

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى مبينًا سبب جحوده لما علمه «في سورة النمل» بقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ الآية [النمل: ١٢-١٤].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ﴾ قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العِلم، على خلاف ظن فرعون في موسى، وسوّى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العِلم أيضًا.

وفي المثبور ستة أقوال:

أحدها: أنه الملعون فذكرها وعزاها إلى قائليها وذكر الثاني منها: أنه المغلوب، والثالث: الناقص العقل، والرابع: المهلك، والخامس: الهالك، والسادس: الممنوع من الخير.

وأورد قولين في قوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾:

أحدهما: يستأصلهم.

الثاني: يستخفهم حتى يخرجوا.

وأورد أقوالًا كذلك في قوله: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

أحدها: فلسطين والأردن.

الثاني: أرض وراء الصين.

الثالث: أرض مصر والشام.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: فأراد فرعون أن يخرج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الأرض ويطردهم منها فأغرقناه ومن معه كلهم، وقلنا من بعد إغراقه وإهلاكه لبني إسرائيل اسكنوا الأرض، وهي أرض مصر، وقيل: مصر والشام، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: فإذا جاء يوم القيامة أخرجناكم من قبوركم يا بني إسرائيل أنتم وغيركم وجئنا بكم للحساب مختلطين بعضكم ببعض ملتفٌّ بعضكم ببعض، وقيل: لفيفًا جميعًا، ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في أن كل قوم يحشرون مع أمثالهم، وذلك لأن مواقف القيامة تتنوع وتتعدد فأول الأمر يخرجون من القبور مختلطين كالفراش المبثوث الذي يركب بعضه بعضًا ثمَّ بعد ذلك يرتبون ويكونون جماعات وأسراب كالجراد في مسيره، ثم أيضًا تتبع كل أمة ما كانت تعبد.

وبنحو ما ذكر في الآية عمومًا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فأراد فرعون أن يستفز موسى وبني إسرائيل من

الأرض، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ﴾ في البحر، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من جنده ﴿جَمِيعٗا ١٠٣﴾، ونجّينا موسى وبني إسرائيل، ﴿وَقُلۡنَا﴾ لهم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ هلاك فرعون ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعد الآخرة، جئنا بكم لفيفًا: يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفًا: أي مختلطين قد التفّ بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيِّه، من قولك: لففت الجيوش: إذا ضربت بعضها ببعض، فاختلط الجميع، وكذلك كلّ شيء خُلط بشيء فقد لُفّ به.

وأورد الطبري أيضًا عدة آثار في معنى لفيفًا منها: أثر أبي رزين بسندٍ صحيح عنه ﴿لَفِيفٗا﴾، قال: من كل قوم.

وأثر مجاهد بسندين يصحان بمجموعهما عنه ﴿لَفِيفٗا﴾ قال: جميعًا.

ونحوه عن قتادة قال: جميعًا، أي: أولكم وآخركم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلما وكرما، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال هاهنا

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا ﴾ أي: جميعًا.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله ﷻ ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد إغراقه. ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: أرض الشأم ومصر. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعًا من جهات شتى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: مجتمعين مختلطين. وطعام لفيف إذا كان مخلوطًا من جنسين فصاعدًا. وفلان لفيف فلان أي: صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون.



من فضائل القرآن الكريم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وبالحق أنزلنا هذا القرآن أنزلناه فيه الحق، فيه العدل، فيه الأمر بكل معروف وجميل، والنهي عن كل منكرٍ وقبيح، كل أخباره صدق، وكل أحكامه عدلٌ، وكل هدايته إنما هي للتي هي أقوم، تبشير لأهل الصلاح، تحذيرٌ وإنذار لأهل الشر والفساد، يرشد إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، وينهى عن مساوئ الأخلاق وسفاسفها، يأمر بالعدل والإحسان ووصل الأرحام، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظ بجميل المواعظ، وتضرب فيه أحسن الأمثال، فحقًّا بالحق أنزله الله من عنده.

وكذا فإنه بالحق نزل، نزل محروسًا محفوظًا لا تمسه الشياطين ولا تناله أيدي العابثين، لم تمسه الأيدي بزيادة ولا نقصان، وكما قال تعالى في شأنه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]. وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [الجن: ٢٧].

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝١٠٥﴾ أي: ليس عليك من أمر هدايتهم وتوفيقهم من شيء فأنت في هذا الباب مبشرٌ من أطاع بالجنة ومنذر من عصى بالنار.

مبشرٌ من أطاع برضوان الله ومنذر من عصى وكفر بسخطٍ من الله.

مبشرٌ من أطاع بحياة طيبة، ومنذر من عصى بالشقاوة والعذاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ بتخفيف الراء فمعناه فصلناه، قيل: فصلناه من اللوح المحفوظ، وقيل: جعلنا بين آياته فواصل حتى تفهم وتُستبان وتتجلى معانيها.

وقوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على مهل وتؤدة، وقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ مُنجمًا في ثلاثٍ وعشرين سنة.

فقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: أنزلناه شيئًا بعد شيءٍ، وذلك كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وبالحق أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة، والأمور المستحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة، والأخلاق الردية، والأفعال الذّميمة ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيّه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى من أرسلناك إليه من عبادنا، إلا مبشرا بالجنَّة من أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا وَنَهْينا، ومنذرا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهينَا ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامّة قرّاء الأمصار ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بتخفيف الراء من فرقناه، بمعنى: أحكمناه وفصلناه وبيناه.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس، قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ يقول: لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك.

قال:

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ يقول تعالى ذكره: فرقنا تنزيله، وأنزلناه شيئًا بعد شيء.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي رجاء؛ قال: تلا الحسن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ قال: كان الله تبارك وتعالى ينزل هذا القرآن بعضه قبل بعض لما علم أنه سيكون ويحدث في الناس، لقد ذكر لنا أنه كان بين أوّله وآخره ثماني عشرة سنة، قال: فسألته يومًا على سخطة، فقلت: يا أبا سعيد **(وقرآنا فرّقناه)** فثقلها أبو رجاء، فقال الحسن: ليس **(فرّقناه)**، ولكن ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾، فقرأ الحسن مخففة، قلت: من يُحدثك هذا يا أبا سعيد أصحاب محمد، قال: فمن يحدّثنيه، قال: أنزل عليه بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ثماني سنين، وبالمدينة عشر سنين.

وبسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ لم ينزل في ليلة ولا ليلتين، ولا شهر ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، ولكن كان بين أوّله وآخره عشرون سنة، وما شاء الله من ذلك.

وأورد آثارًا في تفسير ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ منها: فصلناه، ومنها بيناه ومنها فرق الله بين الحق والباطل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمنًا للحق كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: متضمنًا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ووصل إليك -يا محمد- محفوظًا محروسًا، لم

يشب بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملإ الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس[1].

وعن ابن عباس أيضا أنه قال: ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبينًا مفسرًا؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: مهل ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ أي: شيئا بعد شيء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن. ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوز أن يكون معنى الأول: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق، كقوله خرج بثيابه، أي: وعليه ثيابه. وقيل الباء في ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ الأول بمعنى مع، أي: مع الحق، كقولك ركب الأمير بسيفه أي: مع سيفه. ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بمحمد ﷺ، أي: نزل عليه، كما تقول نزلت بزيد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أي:

---

(١) والنسائي في الكبرى (١١٣٧٢)، والحاكم (٢/ ٣٦٨) والطبري.

أنزلناه نجمًا بعد نجم، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الهاء كناية عن القرآن، والمعنى: أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والدِّين المستقيم، فهو حَقٌّ، ونزوله حق، وما تضمنه حق. وقال أبو سليمان الدمشقي: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: بالتوحيد، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يعني: بالوعد والوعيد، والأمر والنهي.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواءالبيان):

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أنزل هذا القرآن بالحق: أي: متلبسا به متضمنا له ؛ فكل ما فيه حق فأخباره صدق، وأحكامه عدل ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] وكيف لا وقد أنزله جل وعلا بعلمه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] الآية. وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله.

لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل، كما أشار إلى هذا بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] الآية، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١] الآية، وقوله في هذه الآية: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾، أي: لتبليغه عن ربه، بدلالة لفظ الرسول؛ لأنه يدل على أنه مرسل به.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد بين جل وعلا أنه بين هذا القرآن لنبيه ليقرأه على الناس على مكث، أي: مهل وتؤدة وتثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك،

(٧٣٨) أحمر
أسود

وقد أمر تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤]، ويدل لذلك أيضا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا﴾ منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده، على حد قوله في الخلاصة:

فالسابق انصبه بفعل أضمرا حتما موافق لما قد أظهرا

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾ أي: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا، فارقًا بين الهدى والضلال، والحق والباطل. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

[الفرقان: ٣٣]



حال أهل العلم والإيمان مع القرآن

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين لك، قل لهم آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به فإن ثواب إيمانكم عائدٌ عليكم، وإثم تكذيبكم عائدٌ عليكم أيضًا، ولن تضروا الله شيئًا.

آمنوا به أو لا تؤمنوا فإن هناك من هم أفضل منكم وأعلم منكم وأعقل منكم وهم الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، من قبل نزول القرآن، هؤلاء الذين كانوا أهل كتاب عاملين بكتابهم مطيعين لربهم، هؤلاء إذا يتلى عليهم القرآن يخرون للأذقان سجدًا، أي: يخرون لله ﷻ ساجدين على جباههم، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تنزّه ربنا عن الشريك والنِّد والصاحبة والمثيل والولد، تنزه ربنا على كل عيب ونقص، تنزه ربنا عن كل ما لا يليق به، تنزه ربنا عن الضعف والعجز، تنزه ربنا عن أن يخلف وعده، وقد وعد أن ينزل قرآن، وعد بذلك في التوراة والإنجيل، وغير ذلك من الكتب، وعد بأن يرسل رسولًا هو محمد ﷺ، وها هو قد جاء، ها هو قد نزل عليه القرآن، فحقًّا إن وعد ربنا كان مفعولًا متحققًا، فإن ربنا لا يخلف الميعاد، ولا يخلف ما وعد سبحان ربنا لقد كان وعد ربنا متحققًا.

إنهم – أعني أهل الكتاب – يخرون ساجدين بكائين معترفين بفضل الله معظمين ربهم يزيدهم هذا القرآن خشوعًا، وتواضعًا وإخباتًا لله ﷻ، وسمعًا وطاعة وامتثالًا لله ﷻ، وتعظيمًا لله ﷻ هذا، وليس معنى قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ التي هي جمع ذقن، ليس المعنى أن يسجدون على الأذقان، ليس

المعنى أنهم يسجدون على اللحية إنما ذلك مثل يقال لمن بادر بامتثال الأمر وسمع وأطاع وسجد فيقولون خر لذقنه ساجدًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين لك ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾: آمنوا بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله ولا ترككم الإيمان به يُنقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرّون تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله، لأذقانهم سجدًا بالأرض.

واختلف أهل التأويل في الذي عُني بقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ فقال بعضهم: عُنِي به: الوجوه.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك اللِّحَى.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ يقول جلّ ثناؤه: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن، إذ خروا للأذقان سجودًا عند سماعهم القرآن يُتْلَى عليهم، تنزيها لربنا مما يضيف إليه المشركون به، ما كان وعد ربنا من ثواب وعقاب إلا مفعولًا حقًّا يقينًا، إيمانًا بالقرآن وتصديق به، والأذقان في كلام العرب: جمع ذَقَن وهو مجمع اللَّحيين، وإذ كان ذلك كذلك، فالذي قال الحسن في ذلك أشبه بظاهر التنزيل[١].

(١) والذي نقله عن الحسن حاصله ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ قال: اللحى.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف منهم في الذين عنوا بقوله ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وفي ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال آخرون: عُنِي بقوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما قلنا: عُنِي بقوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن؛ لأنه في سياق ذكر القرآن لم يجر لغيره من الكتب ذكر، فيصرف الكلام إليه، ولذلك جعلت الهاء التي في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من ذكر القرآن، لأن الكلام بذكره جرى قبله، وذلك قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وما بعده في سياق الخبر عنه، فذلك وجبت صحة ما قلنا إذا لم يأت بخلاف ما قلنا فيه حجة يجب التسليم لها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ويخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعًا، يعني: خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يمسكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لله

ﷻ، شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾.

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ أي: خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعًا، أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل.

والأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين.

وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللحى. أي يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع. واللام بمعنى على، تقول: سقط لفيه أي على فيه.

وقال القرطبي أيضًا:

وإنما خص الأذقان بالذكر؛ لأن الذقن أقرب شيء فمن وجه الإنسان.

قال ابن خويز منداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن هاهنا عبارة

عن الوجه، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه. فيقال: خر لوجهه ساجدًا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخـــر صــــريعًا لليــــدين وللفـــم

فإنما أراد: خر صريعًا على وجهه ويديه.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ نزَّهوا الله تعالى عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن، وقالوا: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بإنزال القرآن وبعثِ محمّد ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾ واللام دخلت للتوكيد. وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيًّا من العرب، ومُنزِلٌ عليه كتابًا، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كرَّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم. ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ أي: يزيدهم القرآن تواضعًا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه فـ: ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا ۩﴾.

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره، ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك.

جواز البكاء في الصلاة

س: هل يجوز البكاء في الصلاة؟

ج: نعم يجوز البكاء في الصلاة، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ...﴾ [المائدة: ٨٣].

وقول عائشة لرسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا بَكرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ»[١]. وما رواه الترمذي[٢] وغيره من طريق مُطَرِّف بْن عَبدِ اللهِ بنِ الشخير، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ»، وفي بعض الروايات مِنَ الْبُكَاء.

ولفظة «مِنَ الْبُكَاء» فيها بعض الكلام، ولكن كلمة « أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ» يشعر بأنه من البكاء والله أعلم.



س: هل عند قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ...﴾ سجدة؟ وعند أي موطنٍ هذه السجدة؟

ج: نعم عندها سجدة، وقد نقل الإجماع على ذلك الطحاوي[٣] وغيره.

وموطنها عقب قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) البخاري (٢/ ٢٠٦)، ومسلم (٤/ ١٤٠).
(٢) الترمذي في الشمائل (١٦٥) بسندٍ صحيح.
(٣) انظر شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

(٧٤٥) أحمر
أسود

س: وضح سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

ج: صح لهذه الآية الكريمة أكثر من سبب نزول فأخرج البخاري ومسلم[١] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ المُشْرِكُونَ سَبُّوا القُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ المُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا القُرْآنَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾عَنْ أَصْحَابِكَ فَلاَ تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

وأخرج البخاري ومسلم[٢] أيضًا من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «أُنْزِلَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ» تعني: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كما في رواية مسلم.

وهناك أسباب نزول أُخر لا تكاد تخلو من مقال، وما قدمناه أصح ذلك، والله أعلم.



س: ما مدى صحة هذا الأثر الذي أخرجه الطبري من طريق محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عَزَّ وَجَلَّ، وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئًا، وقيل لعمر: اخفض شيئًا.

ج: هذا الأثر ضعيف الإسناد للانقطاع بين محمد بن سيرين وأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(١) البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦).
(٢) البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (٤٤٧).

(٧٤٦) أحمر
أسود

فلم يسمعه ابن سيرين من أبي بكر ولا يُدرى من هذه الواسطة بينهما هل هو ثقة أم ضعيف. والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: قل يا هؤلاء ادعوا الله ﷻ بأي اسم من أسمائه فقولوا يا الله، اللهم (ومعناه ياالله) أو قولوا: يا رحمن، أو ادعوه بأي اسم كان من أسمائه الحسنى، فالأسماء الحسنى كلها لله، وهو يجيبكم إذا دعوتموه (وإن كان من الأنسب أن يختار الاسم الموافق للدعوة كما في قولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]).

فقوله: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي: فله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأفضل الأسماء، وكل أسمائه حسنى.

هذا، ومعلوم أن أهل الشرك كان منهم من ينكر اسم الرحمن.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

وكان منهم من يُثبته، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ...﴾ [يس: ١٥].

وقد تقدم القول في ذلك في سورة الفاتحة عند تفسير البسملة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ فمعناه: ولا تجهر بقراءتك في الصلاة، أي: لا ترفع صوتك رفعًا زائدًا بالقراءة في الصلاة ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي: ولا تخفيها وتسرُّ بها إسرارًا لا تسمع معه أصحابك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: اسلك طريقًا وسطًا بين الجهر

والإسرار، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا صلى فجهر بالقراءة سبَّ المشركون القرآن ومن جاء به، وإذا أسرَّ به لم يكد يُسمع أصحابه فأمر بالتوسط في القراءة بين الجهر والإسرار. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها القوم ﴿أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ بأيّ أسمائه جلّ جلاله تدعون ربكم، فإنما تدعون واحدًا، وله الأسماء الحُسنى، وإنما قيل ذلك له ﷺ؛ لأن المشركين فيما ذكر سمعوا النبيّ ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله على نبيّه عليه الصلاة والسلام هذه الآية احتجاجًا لنبيّه عليهم(١).

قال الطبري:

ولدخول «ما» في قوله: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ وجهان: أحدهما أن تكون صلة، كما قيل: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾ [المؤمنون: ٤٠]، والآخر أن تكون في معنى إن: كررت لما اختلف لفظاهما، كما قيل: ما إن رأيت كالليلة ليلة.

وقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ اختلف أهل التأويل في الصلاة، فقال بعضهم: عنى بذلك: ولا تجهر بدعائك، ولا تخافت به، ولكن بين ذلك، وقالوا: عنى بالصلاة في هذا الموضع: الدعاء.

وأورد بسندٍ صحيح عن عائشة قالت: نزلت – تعني هذه الآية ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ...﴾ – في الدعاء.

وكذا بأسانيد تصح بمجموعها عن مجاهد: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ

(١) والسند بذلك الذي أورده الطبري – فيه مقال.

(٧٤٨) أحمر
أسود

بِهَا﴾ ولا تخافت بها في الدعاء والمسألة.

وبسندٍ صحيح عن سعيد بن جبير، قال: في الدعاء.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الصلاة. واختلف قائلو هذه المقالة في المعنى الذي عَنَى بالنهي عن الجهر به، فقال بعضهم: الذي نهى عن الجهر به منها القراءة.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله لنبيّه ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تُسْمِعهم القرآن حتى يأخذوا عنك.

وأورد بسندٍ صحيح أيضًا من وجه آخر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو مختفٍ بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع الصوت بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله لنبيّه ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أي بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبُّوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

وبسندٍ صحيح عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: في القراءة.

وقال آخرون: إنما عُنِي بذلك: ولا تجهر بالتشهد في صلاتك، ولا تخافت بها.

وقال الطبري: حدثني أبو السائب، قال: ثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: نزلت هذه الآية في التشهد ﴿وَلَا تَجْهَرْ

(٧٤٩) أحمر
أسود

بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: بل كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة جِهارًا، فأمر بإخفائها.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تجهر بصلاتك تحسنها من إتيانها في العلانية، ولا تخافت بها: تسيئها في السريرة.

عن الحسن أنه كان يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أي: لا تراء بها عَلانيَة، ولا تخفها سرًّا ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

واختار الطبري قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سبب النزول ثم قال:

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ ولكن التمس بين الجهر والمخافتة طريقًا إلى أن تسمع أصحابك، ولا يسمعه المشركون فيؤذوك. ولولا أن أقوال أهل التأويل مضت بما ذكرت عنهم من التأويل، وأنا لا نستجير خلافهم فيما جاء عنهم، لكان وجهًا يحتمله التأويل أن يقال: ولا تجهر بصلاتك التي أمرناك بالمخافتة بها، وهي صلاة النهار؛ لأنها عجماء لا يجهر بها، ولا تخافت بصلاتك التي أمرناك بالجهر بها، وهي صلاة الليل، فإنها يجهر بها ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ بأن تجهر بالتي أمرناك بالجهر بها، وتخافت بالتي أمرناك بالمخافتة بها، لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكلها، فكان ذلك وجهًا غير بعيد من الصحة، ولكنا لا نرى ذلك صحيحًا لإجماع الحجة من أهل التأويل على خلافه. فإن قال قائل: فأية قراءة هذه التي بين الجهر والمخافتة؟

(٧٥٠) أحمر
أسود

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، عَزَّ وَجَلَّ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وأورد بعض الآثار التي قدمت ذكر الصحيح منها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

عبر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾﴾، لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر، لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها، فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير، ومنه الحديث الصحيح: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي**» أي قراءة الفاتحة على ما تقدم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾.

أمر الله جل وعلا عباده في هذه الآية الكريمة: أن يدعوه بما شاءوا من أسمائه، إن شاءوا قالوا: يا ألله، وإن شاءوا قالوا: يا رحمن، إلى غير ذلك من أسمائه جل وعلا.

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع: أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية، وبين لهم بعض أفعال الرحمن جل وعلا في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤]؛ ولذا قال بعض العلماء: إن قوله: الرحمن علم القرآن جواب لقولهم: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لعباده: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ﴾ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، أي: حتى ينهى عن دعائه به، أي: اسم دعوتموه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب، مما يناسب ذلك الاسم.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه، وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: تتوسط فيما بينهما.



(٧٥٢) أحمر
أسود

الحث على حمد الله ﷻ على وحدانيته وعدم اتخاذه ولدًا وانفراده بالملك وتكبيره تكبيرًا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وقل يا رسول الله، وأيضًا يا عبد الله، وقولي يا أمة الله: الحمد لله الذي لم يكن له ولد، فلو كان له ولد لكانت هناك محاباة ومجاملات وهذا الولد أيضًا سيكبر، وسينازع أباه الملك إلى غير ذلك من متبوعات الولد، فالحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، وتنزه الله عن ذلك، فالله قدره أعظم من ذلك، وقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣]

أما قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: أنه تعالى متفردٌ بالملك، وله في ملكه الخلق والأمر، ليس له منازع ينازعه ولا شريك يشاركه فلو كان معه شريك في الملك لحدث التنازع والشقاق وحدث الاختلاف في الأمر والنهي، فشريك يريد أمرًا، وشريكه يريد أمرًا آخر، فيحدث الخلاف، وكما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]، وكما قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ فمعناه – والله أعلم -: ولم يكن له ناصرٌ ينصره ولا حافظ يحفظه ولا أحد سيرعاه من الذل الذي به، أي: أنه تبارك وتعالى ليس بذليل حتى يحتاج إلى وليٍّ ينصره، بل هو العزيز الغالب، فقوله: من الذل، أي من ذلٍّ به، أي: فليس به ذل، وثمَّ قولٌ آخر في تفسير ﴿مِّنَ

﴿ٱلذُّلِّ﴾ أي: من العباد الذين هم أذلاء وفقراء، فكل العباد أذلاء وفقراء إليه.

أما قوله: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ أي: عظمه تعظيمًا، ولا تعتقد أبدًا أن أحدًا أكبر منه، ولا أقدر منه، ولا أقوى منه، بل الله أعظم، والله أكبر كبيرًا.

فالله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آهل وسلم اللهم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًّا، لأن ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجا إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفردًا بالمُلك والسلطان ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول: ولم يكن له حليف حالفه من الذّل الذي به؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره، فذليل مهين، ولا يكون من كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر إلهًا يطاع ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ يقول: وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل، وأطعه فيما أمرك ونهاك.

وبنحو الذي قلنا في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال أهل التأويل.

وأورد عن مجاهد بسندين يصحان بمجموعهما: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: لم يحالف[1] أحدًا، ولا يبتغي نصر أحد.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة

(١) كذا لم يحالف، والمثبت في بعض الطبعات (لم يخالف)، ولا وجه لها، والله أعلم.

الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لم يحالف أحدًا ولا يبتغي نصر أحد.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا: عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه، تعالى الله عن أقوالهم! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحدًا ولا ابتغى نصر أحد، أي: لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعًا. وقال الكلبي: لم يكن له ولي من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، ردا لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ أي: عظمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر، أي صفة بأنه أكبر من كل شي. قال الشاعر:

رأيت الله أكبر كل شيء … محاولة وأكثرهم جنودا

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه ﷺ؛ (لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما قدمنا) أن يقولوا: «الحمد لله» أي: كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبينًا أنه منزه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

فبين تنزهه عن الولد والصاحبة في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣]، وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٢] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبين في مواضع أخر: أنه لا شريك له في ملكه، أي: ولا في عبادته؛ كقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومعنى قوله في هذه الآية: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، يعني أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعز به؛ لأنه هو العزيز القهار، الذي كل شيء تحت قهره وقدرته، كما بينه في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] الآية،

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والعزيز: الغالب، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ أي: عظمه تعظيمًا شديدًا، ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه، كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ونحوها من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: لا يتولى أحدًا من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له. انتهى.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الإسراء.

الفِهرس

(٧٥٨) أحمر
أسود

(٧٥٩) أحمر
أسود

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة النحل

(٧٦٠) أحمر
أسود

الموضوع	الصفحة

(٧٦١) أحمر
أسود

الموضوع	الصفحة

(٧٦٢) أحمر
أسود

(٧٦٣) أحمر
أسود

الموضوع الصفحة

(٧٦٥) أحمر
أسود

(٧٦٦) أحمر
أسود

(٧٦٧) أحمر
أسود

الموضوع الصفحة

(٧٦٨) أحمر
أسود

الموضوع | الصفحة